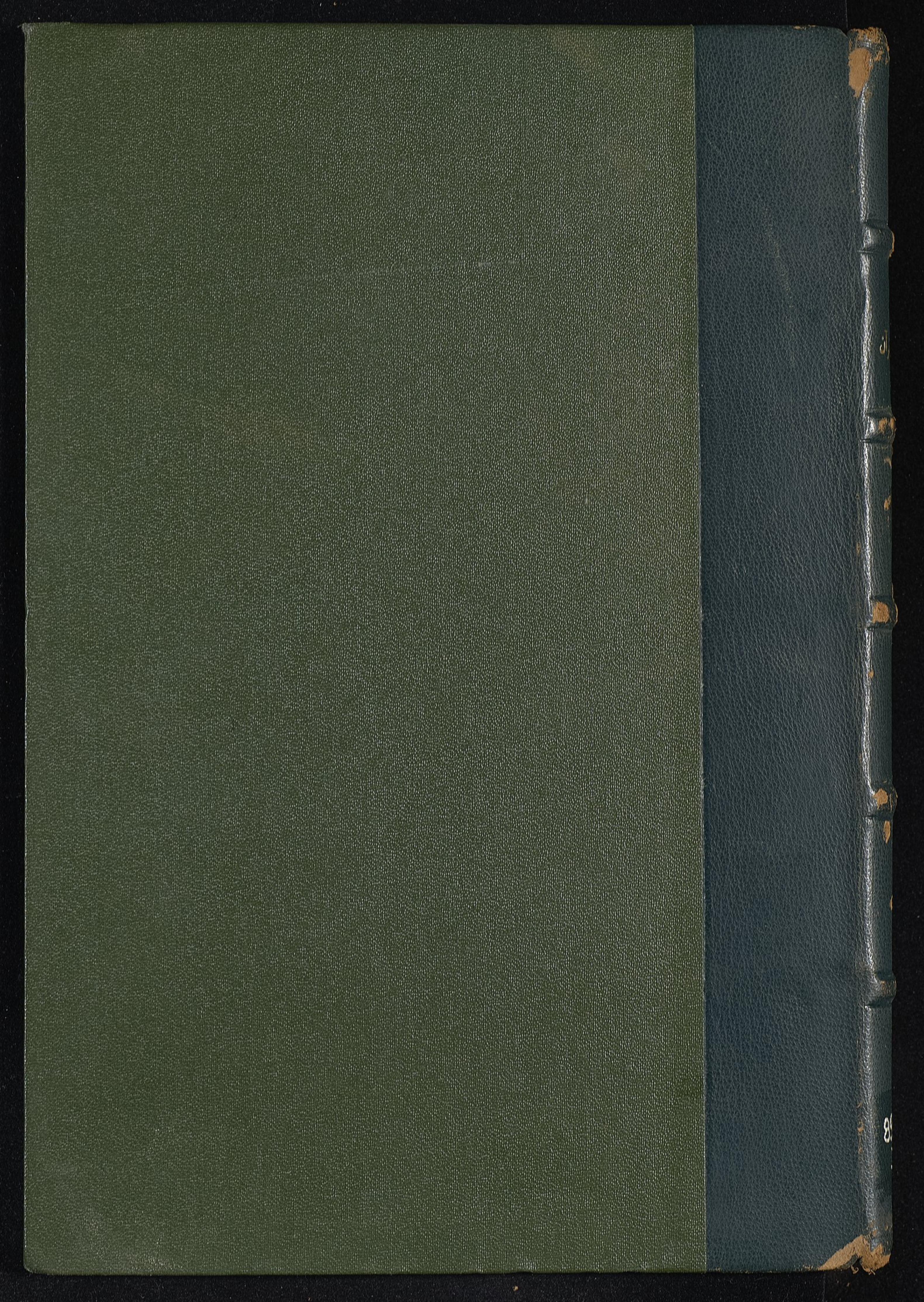
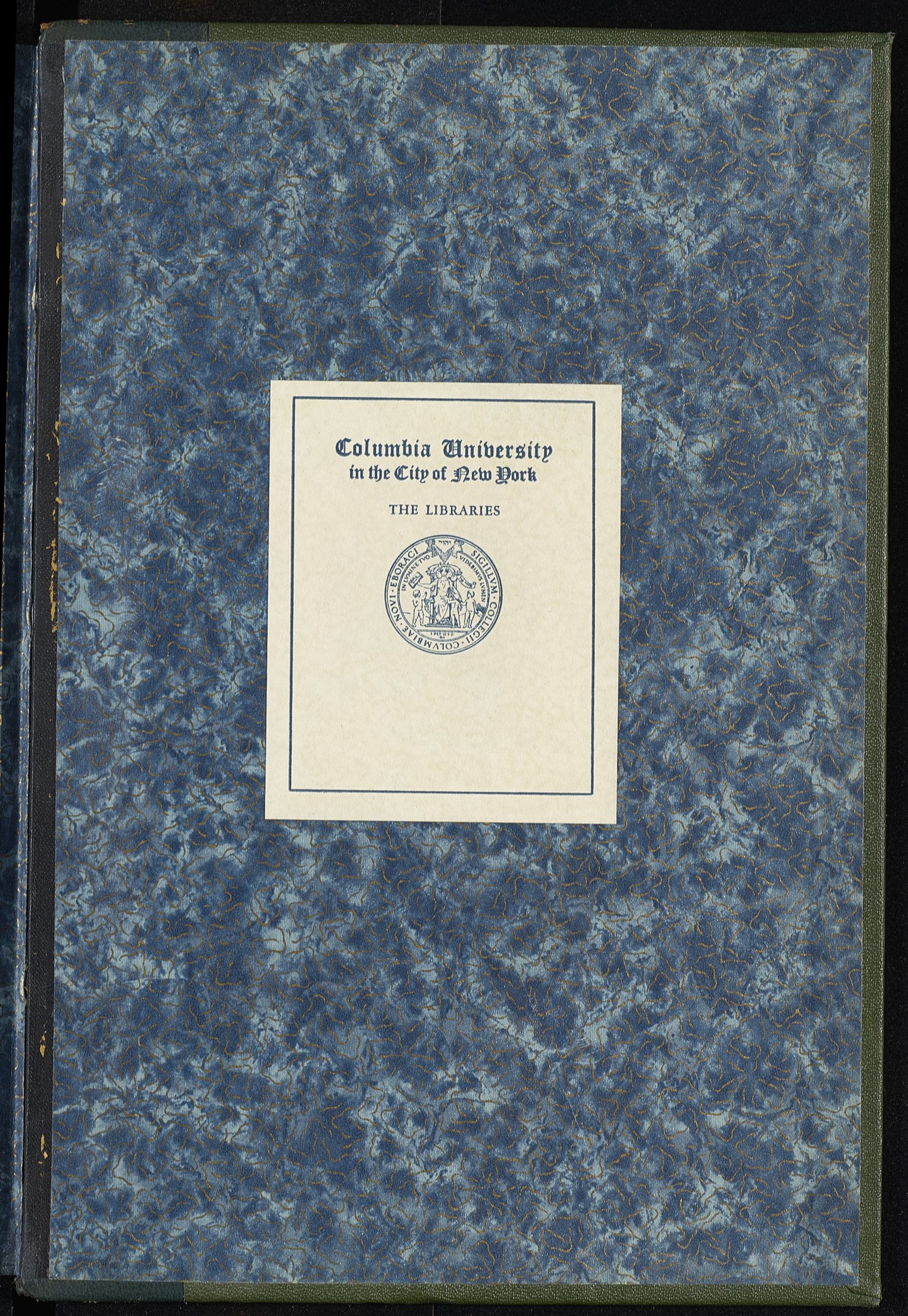
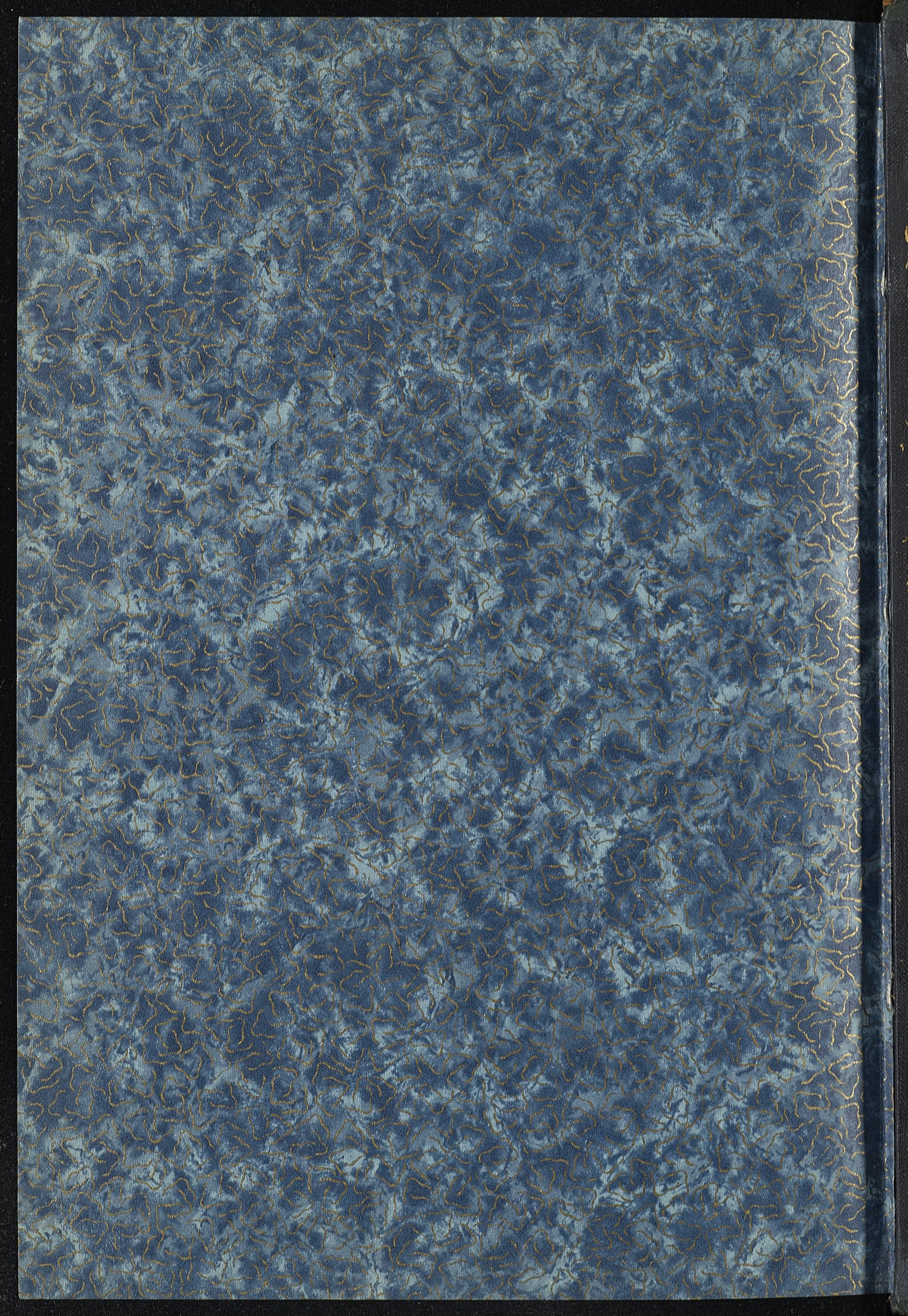
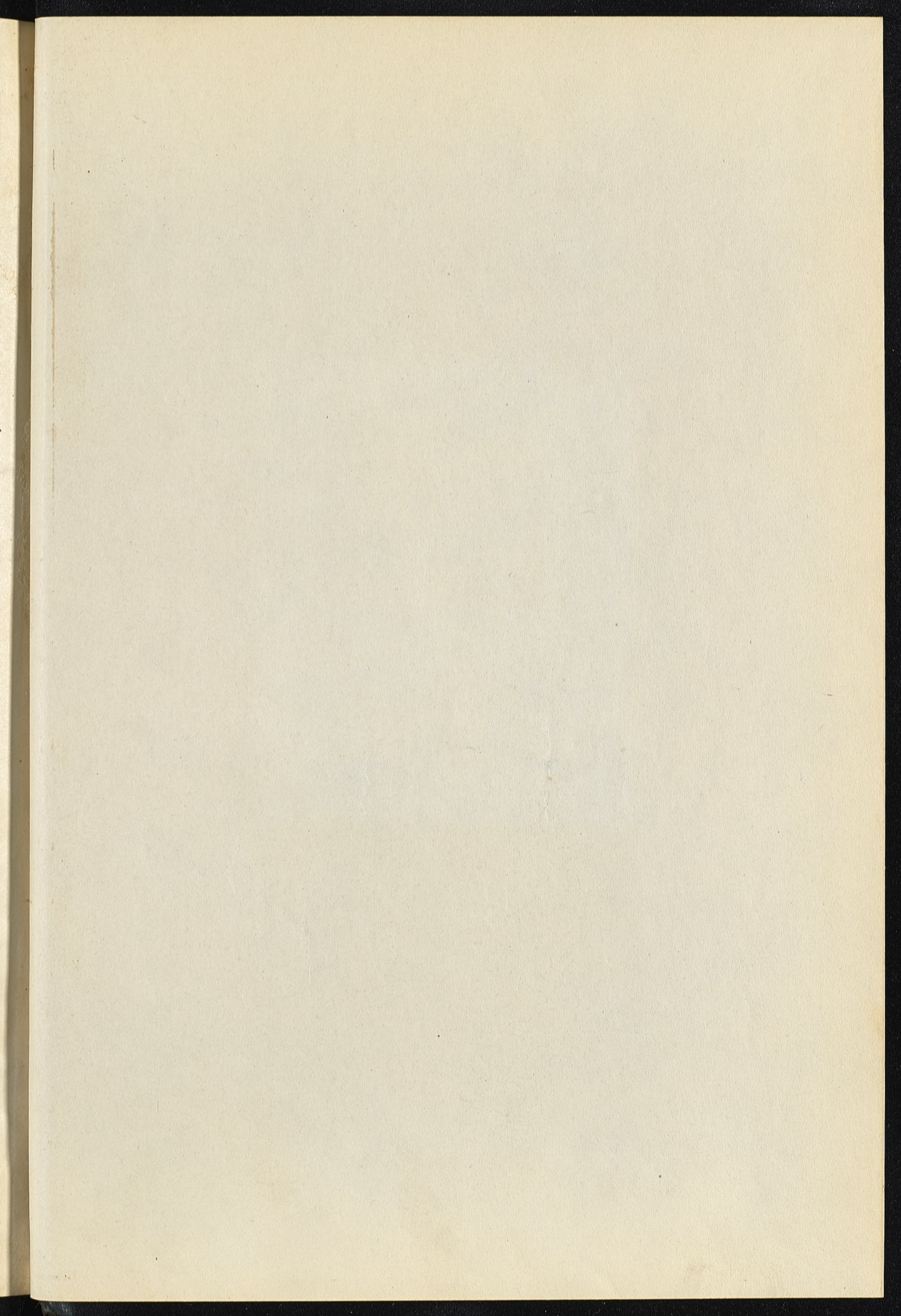



Columbia University
in the City of New York
THE LIBRARIES





دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء التاسع

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

فهـــرس الجـزء التاســع

تفسـير ســورة هـــود

صفحة

صفحة

*

تفسير سورة يوسف عليه السلام

صفحه

صفحة

سورة الرعد

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود عليه السلام

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ؛ وهى قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ » . وأسند أبو محمد الدّارمىّ فى مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرءوا سورة هود يوم الجمعة " . وروى الترمذىّ عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله قد شِبْتَ ! قال : " شَيَّبتنى هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ وعَمَّ يتساءلون وإذا الشّمس كُوِّرت " . قال : هذا حديث حسن غريب، وقد رُوِى شىء من هذا مرسلا . وأخرجه الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله فى « نوادر الأصول » : حدّثنا سفيان بن وكيع قال حدّثنا محمد بن بشر عن علىّ بن صالح عن أبى إسحق عن أبى جُحَيْفة قال : قالوا يارسول الله نراك قد شبتَ ! قال : " شَيَّبتنى هودٌ وأخواتُها " . قال أبو عبد الله : فالفزع يورث الشّيب وذلك أن الفزع يُذهِل النفس فينشِّف رطوبة الجسد، وتحت كل شعرة مَنْبع، ومنه يَعْرَق، فإذا نَشَّف الفزعُ رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر فابيضّ ؛ كما ترى الزرع الأخضر بِسقائه، فإذا ذهب سِقاؤه يبس فابيضّ؛ وإنما يبيضّ شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويُبْسِ جلده، فالنفس تَذهل بوعيد الله، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله، فتذبل، ويُنشِّف ماءها ذلك الوعيد والهول الذى جاء به ؛ فمنه تَشيب . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » فإنما شابوا من الفزع . وأمّا سورة « هود » فإنما فيها ذكر الأمم، وماحلّ بهم من عاجل بأس الله تعالى، فأهل اليقين إذا تلوها تَراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطشُ بأعدائه، فلو ماتوا من الفزع لحقَّ لهم، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يَلْطُف بهم فى تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه . وأمّا أخواتها فما أشبهها من السور؛ مثل « الحاقة » و « سأل سائل » و « إذا الشمس كوّرت »

و « القارعة » ، ففى تلاوة هذه السّور ما يَكشف لقلوب العارفين سلطانَه وبطشَه فتذهل منه النفوس ، وتَشيب منه الرءوس . وقد قيل إن الذى شيّب النبيّ صلى الله عليه وسلم من سورة « هـود » قوله : « فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » على ماياتى بيانه إن شاء الله تعـالى . وقال يزيد بن أَبَان : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منـامى فقرأت عليه سورة « هود » فلما ختمتها قال : " يايزيد هذه القراءة فأين البكاء " . قال علماؤنا قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هودُ فاعلم بغير تنوين على أنه آسم للسورة؛ لأنك لو سميت آمرأة بزيد لم تَصرِف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه .وعيسى بن عمر يقول : هذه هودٌ بالتنوين على أنه آسم للسورة؛ وكذا إن سمى آمرأة بزيد؛ لأنه لمـا سكن وسطه خفّ فصرف، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع ، فقلت : هذه هودٌ وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه .

قوله تعالى : الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿ الٓر ﴾. تقدّم القول فيه[1] . ﴿ كِتَابٌ ﴾ بمعنى هذا كتاب . ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ فى موضع رفع نعت لكتاب . وأحسن ماقيل فى معنى «أحكمت آياته» قول قَتادة؛أى جعلت محكمة كلّها لا خَلَل فيهـا ولا باطل . والإحكام منع القول من الفساد، أى نُظمت نظما مُحْكما لايلحقها تناقض ولاخَلَل . وقال آبن عباس : أى لم ينسخها كتاب ، بخلاف التوراة والإنجيل . وعلى هـذا فالمعنى؛ أُحكم بعض آياته بأن جعـل ناسخا غير منسوخ . وقد تقدّم القول فيه[2] .

(١) راجع تفسير الآية الأولى من سورة « يونس » . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية .

وقد يقع اسم الجنس على النوع ؛ فيقال : أكلت طعام زيد ؛ أى بعض طعامه . وقال الحسن وأبو العالية : « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » بالأمر والنهى ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقال قتادة : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصّلها بالحلال والحرام . مجاهد : أحكمت جملة ، ثم بُيِّنت بذكر آية آية بجميع مايُحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوّة والبعث وغيرها . وقيل : جُمعت فى اللوح المحفوظ ، ثم فُصِّلت فى التنزيل . وقيل : « فُصِّلت » نزلت نجْما نجْما لتُتَدبَّر . وقرأ عكرمة « فَصَلَتْ » مخففا أى حَكَمت بالحق . ﴿ مِنْ لَدُنْ ﴾ أى من عند . ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أى محكم للأمور . ﴿ خَبِيرٍ ﴾ بكل كائن وغير كائن .

قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ قال الكسائى والفرّاء : أى بألا ؛ أى أحكمت ثم فصّلت بألا تعبدوا إلا الله . قال الزجاج : لئلا ؛ أى أحكمت ثم فصّلت لئلا تعبدوا إلا الله . قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله . ﴿ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أى من الله . ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أى مخوِّف من عذابه وسطوته لمن عصاه . ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه . وقيل : هو من قول الله أولا وآخرا ؛ أى لا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير ؛ أى الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ عطف على الأول . ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أى ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة . قال الفرّاء : « ثم » هنا بمعنى الواو ؛ أى وتوبوا إليه ؛ لأن الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هى الاستغفار . وقيل : استغفروه من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين . وقد تقدّم هذا المعنى فى « آل عمران »[(١)] مستوفى . وفى « البقرة »[(٢)] عند قوله : « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا » . وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها ؛ فالمغفرة أوّل فى المطلوب وآخر فى السبب . ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر ، وتوبوا إليه من الكبائر . ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أى يمتّعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم . وقيل: يمتّعكم يُعمِّركم؛ وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه أَمتع اللهُ بك ومتَّع . وقال سهل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الخَلْق والإقبال على الحقّ . وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود . ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل: هو الموت . وقيل: القيامة. وقيل: دخول الجنة. والمتاع الحسن على هذا وقاية كلّ مكروه وأمرٍ مَخُوف ، مما يكون فى القبر وغيره من أهوال القيامة وكُرَبها ؛ والأول أظهر لقوله فى هذه السورة : « وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ » وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم. قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابتُلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرَّقة والقَذَر والجيف والكلاب . ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ أى يؤت كلّ ذى عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله . وقيل : ويؤت كلّ من فضلت حسناته على سيئاته « فَضْلَهُۥ » أى الجنة ، وهى فضل الله؛ فالكناية فى قوله : « فَضْلَهُۥ » ترجع إلى الله تعالى . وقال مجاهد : هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه ، أو عمل يعمله بيده أو رجله ، أو ما تطوع به من ماله فهو فضل الله ، يؤتيه ذلك إذا آمن ، ولا يتقبله منه إن كان كافرا . ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ أى يوم القيامة ، وهو كبير لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير هو يوم بَدْر وغيره : و « تَوَلَّوْا » يجوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى : وإن تولّوا فقل لهم إنى أخاف عليكم . ويجوز أن يكون مستقبلا حذفت منه إحدى التاءين والمعنى : قل لهم إن تتولّوا فإنى أخاف عليكم .

قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أى بعد الموت . ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من ثواب وعقاب .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . « يثنون صدورهم » أي يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف ، قال ٱبن عباس : يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة ، ويظهرون خلافه . نزلت في الأخنس بن شَرِيق ، وكان رجلا حُلو الكلام حُلو المنطق ، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ، وينطوى له بقلبه على ما يسوء . وقال مجاهد : « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » شكًّا وٱمتراء . وقال الحسن : يثنونها على ما فيها من الكفر . وقيل : نزلت في بعض المنافقين ، كان إذا مرّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ثنَى صدره وظهره ، وطأطأ رأسه وغطّى وجهه ، لكيلا يراه النبيّ صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ؛ حكى معناه عن عبد الله بن شداد فالهاء في « منه » تعود على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا ، وٱستغشينا ثيابنا ، وثَنَينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية . وقيل : إن قوما من المسلمين كانوا يتنسّكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبيّن الله تعالى أن التنسّك ما ٱشتملت عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل . وروى ٱبن جَرِير عن محمد بن عبّاد بن جعفر قال سمعت ٱبن عباس رضى الله عنهما يقول : «ألا إنهم تَثْنَونِى صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ (١) » قال : كانوا لا يجامعون النساء ، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء ، فنزلت هذه الآية . وروى غير محمد بن عبّاد عن ٱبن عباس : « أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوِى صُدُورُهُمْ » بغير نون بعد الواو ، في وزن تنطوى ؛ ومعنى « تثنوى » والقراءتين الأخريين متقارب ؛ لأنها لا تثنوى حتى يثنوها . وقيل : كان بعضهم ينحنى على بعض يسارّه في الطّعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى .

(١) في الأصل : « تثنوى » بغير نون بعد الواو في وزن تنطوى ، وهو يخالف ما في صحيح البخارى وتفسير الطبرى عن محمد بن عباد ، فلذا صوّبناه عنهما ؛ وأما رواية « تثنوى » المذكورة بالأصل فقد نسبها ٱبن عطية إلى ٱبن عيينة ، ويعضده ما في (إعراب القرآن للنحاس) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس «ألا إنهم تثنوى صدورهم » بغير نون بعد الواو في وزن تنطوى ... الخ ، وهى العبارة الآتية بالأصل . وتعقب بعض المفسرين هذه القراءة بأنها غلط في النقل لا تتجه . راجع روح المعانى والبحر وتفسير ابن عطية .

« لِيَسْتَخْفُوا » أى ليتواروا عنه ؛ أى عن محمد أو عن الله . ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أى يُغطُّون رءوسهم بثيابهم . قال قَتَادة : أخفى ما يكون العبد إذا حَنَى ظهره ، وآستغشى ثوبه ، وأضمر فى نفسه همَّه .

قوله تعالى : وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ « ما » نفى و « مِن » زائدة و « دابةٍ » فى موضع رفع ؛ التقدير : وما دابةٌ . « إِلَّا عَلَى اللَّهِ » « على » بمعنى « مِن » ؛ أى من الله رزقها ؛ يدل عليه قول مجاهد : كُلُّ ماجاءها من رزق فمن الله . وقيل : « على الله » أى فضلا لا وجوبا . وقيل : وعدا منه حقا . وقد تقدّم بيان هذا المعنى فى « النساء »[1] وأنه سبحانه لا يجب عليه شىء . « رِزْقُهَا » رفع بالابتداء ، وعند الكوفيين بالصفة ؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص ؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرزق . وقيل : هى عامة ، وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رُزقت رُوحها ؛ ووجه النظم بما قبلُ : أنه سبحانه أخبر برزق الجميع ، وأنه لا يَغفُل عن تربيته ، فكيف تَخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم ؟! والدّابة كل حيوان يَدِبّ . والرزق حقيقته ما يتغذّى به الحىّ ، ويكون فيه بقاء رُوحه ونماء جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى المِلك ؛ لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلَفها ؛ وهكذا الأطفال تُرزق اللّبن ولا يقال إن اللّبن الذى فى الثّدى مِلك للطفل . وقال تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » وليس لنا فى السماء مِلك ؛ ولأن الرزق لوكان مِلكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدّم فى « البقرة »[2] هذا المعنى والحمد لله . وقيل لبعضهم : من اين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الرّحى يأتيها بالطّحين ، والذى شدق

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

الأشداق هو خالق الأرزاق . وقيل لأبى أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عنـد الله ؛ فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء ؟ فقال : كأن ما له إلا السماء ! يا هذا الأرضُ له والسماءُ له ؛ فإن لم يؤتنى رزقى من السماء ساقه لى من الأرض ؛ وأنشـد :

وكيف أخافُ الفقـرَ واللهُ رازقِى * ورازقُ هذا الخلقِ فى العُسْرِ واليُسْرِ
تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهـمْ * وللضَّبِّ فى البيداءِ والحُوتِ فى البحرِ

وذكر التِّرمذىّ الحكيم فى «نوادر الأصول» بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر فى نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وقد أَرْمَلُوا[1] من الزاد ، فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم يسأله ، فلما آنتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليـه وسلم سمعه يقرأ هـذه الآية « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » فقال الرجل : ما الأشعريّون بأهون الدواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغَوْث ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قَصْـعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ماشاءوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : آذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فإنا قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : " ما أرسـلت إليكم طعاما " فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك شىء رزقكموه الله " .

---

(١) أرملوا من الزاد : أى نفد زادهم ؛ وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل ، كما قيل للفقير الترب .

قوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أى من الأرض حيث تأوى إليه . ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أى الموضع الذى تموت فيه فتدفن؛ قاله مِقْسَم عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الربيع ابن أنس : « مستقرّها » أيام حياتها . « ومستودعها » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : « مستقرّها » فى الرَّحِم . « ومستودعها » فى الصُّلْب . وقيل : « يعلم مستقرّها » فى الجنة أو فى النار . « ومستودعها » فى القبر؛ يدل عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة وأهل النار : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » . ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أى فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدّم فى « الأعراف »[1] بيانه والحمد لله . ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . قال كعب : خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا، ثم خلق الريح فجعل الماء على متْنها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : إنه سئل عن قوله عز وجل : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » فقال : على أى شىء كان الماء ؟ قال : على متْن الرِّيح . وروى البخارىّ عن عِمْران بن حُصَين . قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : "اقبلوا البشرى يابنى تميم" قالوا : بشّرتنا فأعطنا [مرتين][2] فدخل ناس من أهل اليمن فقال : "اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم" قالوا : قبِلنا، جئنا لنتفقه فى الدِّين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان ؟ قال : "كان اللهُ ولم يكن شىءٌ غيرُه وكان عرشه على الماء ثم خلق السمواتِ والأرضَ وكتب

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة عن صحيح البخارى .

فى الذكر كل شيء " ثم أتانى رجل فقال : يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها فإذا هى يقطع دونها السراب ، وأيم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم .

قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى خلق ذلك ليبتلى عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث . وقال قتادة : معنى « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أتم عقلا . وقال الحسن وسفيان الثورى : أيكم أزهد فى الدنيا . وذكر أن عيسى عليه السلام مر برجل نائم فقال : يانائم قم فتعبد ، فقال : ياروح الله قد تعبدت ، فقال : « وما تعبدت » ؟ قال : قد تركت الدنيا لأهلها ، قال : نم فقد فقت العابدين . الضحاك : أيكم أكثر شكرا . مقاتل : أيكم أتقى لله . ابن عباس : أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل . وروى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا « أيكم أحسن عملا » قال : " أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله " فجمع الأقاويل كلها ، وسيأتى فى « الكهف »[1] هذا أيضا إن شاء الله تعالى . وقد تقدم معنى الابتلاء . ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ أى دللت يا محمد على البعث ﴿ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ وذكرت ذلك للمشركين لقالوا : هذا سحر . وكسرت « إن » لأنها بعد القول مبتدأة . وحكى سيبويه الفتح . ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه ، وبعده « لَيَقُولُنَّ » لأن فيه ضميرا . و﴿ سِحْرٌ ﴾ أى غرور باطل ، لبطلان السحر عندهم . وقرأ حمزة والكسائى « إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ » كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ اللام فى « لئن » للقسم ، والجواب « لَيَقُولُنَّ » . ومعنى « إِلَىٰ أُمَّةٍ » إلى أجل معدود وحين معلوم ؛ فالأمة هنا

(١) راجع المسئلة الثانية فى تفسير قوله تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » . آية ٧ .

المدّة ؛ قاله آبن عباس ومجاهد وقتادة و جمهور المفسّرين . وأصـل الأمّة الجماعة ؛ فعبّر عن الحين والسنين بالأمّة لأن الأمّة تكون فيها . وقيل : هو على حذف المضاف ؛ والمعنى إلى مجيء أمّة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك . أو إلى آنقراض أمّة فيها من يؤمن فلا يبـقى بعـد آنقراضها من يؤمن . والأمّة آسم مشـترك يقال على ثمانية أوجه ؛ فالأمّة تكون الجماعة ؛ كقوله تعـالى : « وَجَدَ عَلَيْـهِ أُمَّةً مِنَ النَّـاسِ » . والأمّة أيضا أتبـاع الأنبياء عليهم السلام . والأمّة الرجل الجامع للخـير الذى يُقتدى به ؛ كقوله تعـالى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا » . والأمة الدِّين والمِلّة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ » . والأمّة الحين والزمان ؛ كقوله تعالى : « وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وكذلك قوله تعالى : « وَآدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » . والأمّة القامة ، وهوطول الإنسان وارتفاعه ؛ يقال من ذلك : فلان حسن الأمّة أى القامة . والأمّة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يَشْرَكه فيه أحد ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يُبعَث زيدُ بن عمرو بن نُفَيل أمّة وحده"[1] . والأمة الأم ؛ يقال : هذه أمّة زيد ، يعنى أمّ زيد . ﴿ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ يعنى العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكذيبا للعذاب لتأخره عنهم ، أو استعجالا وآستهزاء ؛ أى ماالذى يحبسه عنا . ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ قيـل : هو قتل المشركين ببدر ؛ وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتى . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى نزل وأحاط . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى جزاء ما كانوا به يستهزئون ، والمضاف محذوف .

قوله تعـالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ الإنسـان آسم شائع للجنس فى جميـع الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلت . وقيل : فى عبد الله بن أبى

(١) (يبعث زيد أمة) لأنه كان تبرأ من أديان المشركين ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه .

أميّة المخزومي . « رحمة » أي نعمة . ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ أي سلبناها إياه . ﴿ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾ أي يائس من الرحمة ﴿ كَفُورٌ ﴾ للنعم جاحد لها ؛ قاله ٱبن الأعرابي . النحاس : « ليؤوس » من يَئِس يَيْأَس ، وحكى سيبويه يَئِس يَيْأَس على فَعِل يفعَل ، ونظيره حَسِب يَحْسَب ونَعِم يَنْعَم ، ويَأَس يَيْئِس ؛ وبعضهم يقول : يَئِس يَئِس ؛ لا يعرف في الكلام إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت على فَعِل يفعِل ؛ وفي واحد منها ٱختلاف . وهو يَئِسٌ و « يؤوس » على التكسير كفخور للمبالغة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ ﴾ أي صحة ورخاء وسعة في الرزق . ﴿ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ أي بعد ضُرٍّ وفقر وشدّة . ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ أي الخطايا التي تسوء صاحبها من الضّرّ والفقر . ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أي يفرح ويفخر بما ناله من السَّعَة وينسى شكر الله عليه ؛ يقال : رجل فاخر إذا افتخر — ونخور للمبالغة — قال يعقوب القارئ : وقرأ بعض أهل المدينة « لَفَرُحٌ » بضم الراء كما يقال : رجل فَطُن وحَذُرٌ ونَدُسٌ . ويجوز في كلتا اللغتين الإسكان لثقل الضمة والكسرة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ يعني المؤمنين ، مدحهم بالصبر على الشدائد . وهو في موضع نصب . قال الأخفش : هو ٱستثناء ليس من الأوّل ؛ أي لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والمحنة . وقال الفراء : هو ٱستثناء من « وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ » أي من الإنسان ، فإن الإنسان بمعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ؛ فهو ٱستثناء متصل وهو حسن . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ ٱبتداء وخبر . ﴿ وَأَجْرٌ ﴾ معطوف . ﴿ كَبِيرٌ ﴾ صفة .

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أى فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه . وقيل : إنهم لمـا قالوا « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » همّ أن يدع سبّ آلهتهم فنزلت هذه الآية ؛ فالكلام معناه الاستفهام ؛ أى هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك ؟ وتأكد عليه الأمر فى الإبلاغ ؛ كقوله : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ » . وقيـل : معنى الكلام النفى مع آستبعاد ؛ أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك ؛ وذلك أن مشركى مكة قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك ، فهمّ النبى صلى الله عليه وسلم أن يدع سبّ آلهتهم ؛ فنزلت .

قوله تعـالى : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تارك » و « صدرك » مرفوع به ، والهاء فى « به » تعود على « ما » أو على بعض ، أو على التبليغ ، أو التكذيب . وقال : « ضائق » ولم يقل ضيّق ليشاكل « تارك » الذى قبله ؛ ولأن الضّائق عارض ، والضيّق ألزم منه . ﴿ أَن يَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب ؛ أى كراهية أن يقولوا ، كقوله : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا » أى لئلا تضلّوا . أو لأن يقولوا . ﴿لَوْلَا﴾ أى هلّا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه ؛ قاله عبد الله بن أبى أميّة بن المغيرة المخزومىّ ؛ فقال الله تعالى : يامحمد ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليك أن تنذرهم ، لا بأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات . ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى حافظ وشهيد .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ « أم » بمعنى بل ، وقد تقدّم فى « يونس »(١) أى قد أزحت عِلّتهم وإشكالهم فى نبوّتك بهذا القـرآن ، وحججتهم به ؛ فإن قالوا : افتريته — أى آختلقته — فليأتوا بمثله مفترًى بزعمهم . ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أى من لا ينفعهم من دون الله من الكهنة والأعوان .

قوله تعـالى : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

(١) فى تفسير قوله تعالى : « أم يقولون افتراه ... » آية ٣٨ .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى فى المعارضة ولم تتهيأ لهم فقد قامت عليهم الحجة؛ إذ هم اللُّسْن البلغاء، وأصحاب الألسن الفصحاء . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ واعلموا صدق محمد، واعلموا ﴿ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ استفهام معناه الأمر . وقد تقدّم القول فى معنى هذه الآية، وأن القرآن معجز فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وقال : « قُلْ فَأْتُوا » وبعده « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ » ولم يقل لك ؛ فقيل : هو على تحويل المخاطبة من الإفراد ، إلى الجمع تعظيما وتفخيما ؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة . وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للجميع ؛ أى فليعلم الجميع « أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ؛ قاله مجاهد . وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للشركين ؛ والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة، ولاتهيأت لكم المعارضة « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » . وقيل : الضمير فى « لكم » للنبي صلى الله عليه وسلم وللؤمنين ، وفى « فاعلموا » للشركين .

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ كان زائدة[1] ، ولهذا جزم الجواب فقال : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ قاله الفراء . وقال الزجاج : « مَنْ كَانَ » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه « نُوَفِّ إِلَيْهِمْ » أى من يكن يريد ؛ والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل ، كما قال زهير :

وَمَنْ هابَ أسبابَ المنيةِ يَلْقَها * ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : نزلت فى الكفار ؛ قاله الضحاك ، واختاره النحاس ؛ بدليل الآية التى بعدها « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » أى من أتى منهم بصلة رَحِمٍ أو صدقة نكافئه بها فى الدنيا ، بصحة الجسم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة

(١) قال فى البحر : ولعله لا يصح إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط « يريد » ، وكان يكون مجزوما .

له فى الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى فى « براءة »(١) مستوفى . وقيل المراد بالآية المؤمنون ؛ أى من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجّل له الثواب ولم يُنقص شيئا فى الدنيا ، وله فى الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده ، و بحكم ضميره ؛ وهذا أمر متفق عليه فى الأمم بين كل مِلّة . وقيل : هو لأهل الرياء ؛ وفى الخبر أنه يقال لأهل الرياء " صُمتم وصلّيتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك " ثم قال : " إنّ هؤلاء أولُ مَن تُسْعَر بهم النارُ " . رواه أبو هريرة ، ثم بكى بكاء شديدا وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا » وقرأ الآيتين ، خرّجه مسلم بمعناه والترّمذىّ أيضا . وقيل : الآية عامة فى كل من ينوى بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ قاله مجاهد وميمون بن مِهْران ، و إليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميمون بن مِهران : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفّى ثوابها ؛ فإن كان مسلما مخلصا وُفّى فى الدنيا والآخرة ، و إن كان كافرا وُفّى فى الدنيا . وقيل : من كان يريد [الدنيا] بغزوه مع النبى صلى الله عليه وسلم وُفّيها ، أى وُفّى أجر الغَزاة ولم يُنقص منها ؛ وهذا خصوص والصحيح العموم .

الثانية — قال بعض العلماء : معنى هذه الآية قوله عليه السلام : "إنما الأعمال بالنيات" . وتدلك هذه الآية على أن من صام فى رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان ، وتدل على أن من توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة ، وهكذا كل ما كان فى معناه .

الثالثة — ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ؛ وكذلك الآية التى فى « الشورى » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » الآية . وكذلك « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » قيدها وفسرها التى فى « سبحان » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » إلى قوله : « محظورا » فأخبر سبحانه أن العبد ينوى و يريد والله سبحانه يحكم ما يريد ، وروى الضّحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما

(١) راجع المسئلة الثانية من تفسير قوله تعالى : « قل أنفقوا طوعا أو كرها » . آية ٥٤ .

فى قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها منسوخة بقوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ » . والصحيح ما ذكرناه ، وأنه من باب الإطلاق والتقييد ، ومثله قوله : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داعٍ دائما على كل حال ، وليس كذلك ، لقوله تعالى : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » . والنسخ فى الأخبار لا يجوز ، لاستحالة تبدّل الواجبات العقلية ، ولاستحالة الكذب على الله تعالى ؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه ، على ما هو مذكور فى الأصول ، ويأتى فى « النحل »[1] بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ إشارة إلى التخليد ، والمؤمن لا يُخلّد ، لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ » الآية . فهو محمول على ما لو كانت موافاة هذا المرائى على الكفر . وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار فى أيام معلومة ثم يخرج ، إما بالشفاعة ، وإما بالقبضة . والآية تقتضى الوعيد بسلب الإيمان ؛ وفى الحديث [الماضى][2] يريد الكفر وخاصة الرياء ، إذ هو شرك على ما تقدّم بيانه فى « النساء »[3] ويأتى فى آخر « الكهف »[4] . ﴿ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ابتداء وخبر ؛ قال أبو حاتم : وحذف الهاء ، قال النحاس : هذا لا يحتاج إلى حذف ، لأنه بمعنى المصدر ، أى وباطل عمله . وفى حرف أُبىّ وعبد الله « وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وتكون « ما » زائدة ؛ أى وكانوا يعملون باطلا .

---

(١) فى المسئلة الثانية من تفسير قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ... » آية ٦٧ .
(٢) فى الأصل (المعاصى) وهو تحريف ، والمراد بالحديث الماضى حديث أبى هريرة المتقدم فى عمل المرائى "صمتم وصليتم ..." . (٣) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٤) فى تفسير قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ... » آية ١١٠ .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ آبتداء والخبر محذوف ؛ أى أفمن كان على بينة من ربه فى آتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومعه من الفضل ما تبيَّن به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ ! عن على بن الحسين والحسن بن أبى الحسن . وكذلك قال آبن زيد: إن الذى على بيّنة من آتبع النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ من الله ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد بقوله : « أفمن كان على بيّنة من ربه » النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والكلام راجع إلى قوله : « وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ » ؛ أى أفمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل — على ما يأتى — وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ ، وهو يعلم أن الله لا يُسْلِمه . والهاء فى « ربّه » تعود عليه . وقوله : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » روى عِكرمة عن آبن عباس أنه جبريل ؛ وهو قول مجاهد والنخعيّ . والهاء فى « منه » لله عز وجل ؛ أى ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل . وقال مجاهد: الشاهد ملَك من الله عزّ وجلّ يحفظه ويُسدّده . وقال الحسن البصرى وقَتَادة: الشاهد لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن على بن الحنفية : قلت لأبى أنت الشاهد ؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو على بن أبى طالب ؛ روى عن آبن عباس أنه قال : هو على بن أبى طالب ؛ وروى عن علىّ أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان ؛ فقال له رجل : أى شىء نزل فيك ؟ فقال علىّ : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » . وقيل : الشاهد هى صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخائله ؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى

النبيّ صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن فى نظمه وبلاغته، والمعانى الكثيرة منه فى اللفظ الواحد ؛ قاله الحسين بن الفضل، فالهاء فى « منه » للقرآن . وقال الفرّاء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن فى التصديق ؛ والهاء فى « منه » لله عزّ وجلّ . وقيل : البيّنة معرفة الله التى أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذى يتلوه العقل الذى رُكّب فى دماغه وأشرق صدره بنوره . ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل الإنجيل . ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحق الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم موصوف فى كتاب موسى « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ » . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابَ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدوىّ عن الكلبيّ ؛ يكون معطوفا على الهاء فى « يتلوه » والمعنى : ويتلو كتابَ موسى جبريلُ عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضا من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أى تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . ﴿ إِمَامًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ معطوف . ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إشارة إلى بنى إسرائيل، أى يؤمنون بما فى التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار؛ حكاه القشيرىّ . والهاء فى « به » يجوز أن تكون للقرآن، ويجوز أن تكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بالنبيّ عليه السلام . ﴿ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ يعنى من الملل كلها ؛ عن قَتَادة؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحازبون . وقيل : قريش وحلفاؤهم . ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أى هو من أهل النار ؛ وأنشد حسّان :

أوردتموها حياضَ الموتِ ضاحيةً * فالنارُ موعدُها والموتُ لاقيها

وفى صحيح مسلم من حديث أبى يونس عن النبى صلى الله عليه وسلم : " والذى نفس محمد بيده لا يَسمع بى أحدٌ من هذه الأمة يهودىٌّ ولا نصرانىٌّ [ثم يموت][1] ولم يؤمن بالذى أُرسلتُ به إلّا كان من أهل النار " . ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِنْهُ ﴾ أى من القرآن . ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى القرآن من الله ؛ قاله مقاتل . وقال الكلبىّ : المعنى فلا تك فى مرية فى أن الكافر فى النار . « إِنَّهُ الْحَقُّ » أى القول الحق الكائن؛ والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم، والمراد جميع المكلفين .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُولَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم آفتروا على الله كذبا ، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعموا أن له شريكا وولدا، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله . ﴿ أُولَـٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أى يحاسبهم على أعمالهم . ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى الملائكة الحفظة؛ عن مجاهد وغيره؛ وقال سفيان : سألت الأعمش عن « الأشهاد » فقال: الملائكة. الضّحاك : هم الأنبياء والمرسلون؛ دليله قوله : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » . وقيل: الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلّغوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلائق أجمع . وفى صحيح مسلم من حديث صفوان بن مُحرز عن آبن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : " وأما الكفار والمنافقون فينادَى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذَبوا على الله " . ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾، أى بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها .

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يجوز أن تكون «الذين» في موضع خفض نعتا للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين . وقيل : هو ٱبتداء خطاب من الله تعالى؛ أي الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة. ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك . ﴿ وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أعاد لفظ « هم » تأكيدا.

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فائتين من عذاب الله . وقال ٱبن عباس : لم يُعجزوني أن آمر الأرض فتنخسف بهم . ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعني أنصارا، و « مِنْ » زائدة . وقيل : « ما » بمعنى الذي تقديره : أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ؛ وهو قول ٱبن عباس رضي الله عنهما . ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي على قدر كفرهم ومعاصيهم . ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ « ما » في موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع. ﴿ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره . والعرب تقول : جزيته ما فعل وبما فعل؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى؛ وأنشد سيبويه [1] :

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرتَ بهِ * فقــد تركْتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

ويجوز أن تكون « ما » ظرفا، والمعنى : يضاعف لهم أبدا، أي وقت ٱستطاعتهم السمع والبصر، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبدا . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لهـا ؛ إذ الكلام قد تمّ قبلها ، والوقف على العـذاب كافٍ ؛ والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لعمرو بن معدى كرب الزُّبيديّ . أراد (بالخير) فحذف ووصل الفعل ونصب . والنشب : المال الثابت كالضياع ونحوها . وقيل : النشب جميع المال؛ فيكون عطفه على الأوّل مبالغة وتأكيدا . (شواهد سيبويه).

يستطيعون فى الدنيا أن يسمعوا سمعا ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصار مهتد . قال الفرّاء : ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلّهم فى اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه . قال النحاس : وهـذا معروف فى كلام العرب ؛ يقال : فلان لا يسـتطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلا عليه .

قوله تعـالى : أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِـكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ٱبتـداء وخبر . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى ضاع عنهم ٱفتراؤهم وتَلِف .

قوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ للعلماء فيها أقوال ؛ فقال الخليل وسيبويه : « لَا جَرَمَ » بمعنى حَقَّ ، « فلا » و « جَرَم » عندهما كلمة واحدة ، و « أنّ » عندهما فى موضع رفع ؛ وهذا قول الفرّاء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس . قال المهدوىّ : وعن الخليل أيضا أن معناها لا بدّ ولا محالة ، وهو قول الفرّاء أيضا ، ذكره الثعلبيّ . وقال الزّجاج : « لا » هاهنا نفى ؛ وهو ردّ لقولهم : إن الأصنام تنفعهم؛ كأنّ المعنى لا ينفعهم ذلك، وجَرَم بمعنى كَسَب؛ أى كَسَب ذلك الفعلُ لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، و « أنّ » منصوبة بجرم، كما تقول : كَسَب جفاؤُك زيدا غضبه عليك؛ وقال الشاعر :

نَصبنا رأسَه فى جِذْع نَخْلٍ * بما جَرَمتْ يداه وما ٱعتدينا

أى بمـا كَسَبت . وقال الكسائىّ : معنى « لَا جَرَمَ » لا صَـدّ ولا مَنْع عن أنهم . وقيـل : المعنى لا قَطْعَ قاطعٌ ، فحـذف الفاعل حين كثر استعماله ؛ والجَـرْم القَطْع ؛ وقد جَرَم النَّخلَ وٱجترَمه أى صَرَمه فهو جارِمٌ، وقومٌ جُرَّمٌ وجُرَّامٌ وهذا زمن الجَرَام والجِرام، وجَرَمتُ صوف الشاة أى جززتُه، وقد جَرَمتُ منه أى أخذتُ منه؛ مثـل جَلَمْت الشىء جَلْمًا أى قطعتُ،

وجَلمت الجزورَ أجلِمها جَلْما إذا أخذتَ ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجَلْمته — ساكنة اللام — إذا أخذته أجمع، وهــذه جَلَمة الجزور — بالتحريك — أى لحمها أجمع؛ قاله الجوهرى. قال النحاس: وزعم الكسائىّ أن فيها أربع لغات: لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَمَ، ولا أَنْ ذا جَرَمَ، قال: وناس من فَزَارة يقولون: لا جَرَ أنّهم بغـير ميم. وحكى الفـرّاء فيه لغتين أخريين قال: بنو عامر يقولون لا ذا جَرَمَ، قال: وناس من العرب يقولون: لا جُرْمَ بضم الجيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «الذين» اسم «إنّ» و«آمنوا» صلة، أى صدّقوا. ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عطف على الصلة. قال ابن عباس: أخبتوا أنابوا. مجاهد: أطاعوا. قَتَادة: خشعوا وخضعوا. مقاتل: أخلصوا. الحسن: الإخبات الخشوع للمخافة الثابتة فى القلب؛ وأصـل الإخبات الاسـتواء، من الخَبْت وهو الأرض المسـتوية الواسعة؛ فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإنابة إلى الله عزّ وجلّ المستمرة ذلك على استواء. «إِلَىٰ رَبِّهِمْ» قال الفرّاء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى: وجهوا إخباتهم إلى ربهم. ﴿أُولَئِكَ﴾ خبر «إِنَّ».

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ ابتداء، والخبر ﴿كَالْأَعْمَىٰ﴾ وما بعده. قال الأخفش: أى كمثل الأعمى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر [كالأعمى][1] والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَسْـتَوِيَانِ﴾ فرد إلى الفريقين وهمـا اثنان؛

(١) الزيادة عن النحاس.

روى معناه عن قتادة وغيره. قال الضّحّاك : الأعمى والأصمّ مثلٌ للكافر . والسميع والبصير مثل للؤمن . وقيل : المعنى هل يستوى الأعمى والبصير ، وهل يستوى الأصمّ والسميع .
﴿ مَثَلًا ﴾ منصوب على التميز . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فى الوصفين وتنظرون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم .
﴿ إِنِّي ﴾ أى فقال : إنى ؛ لأن فى الإرسال معنى القول . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائىّ «أَنِّى» بفتح الهمزة ؛ أى أرسلناه بأنى لكم نذير مبين . ولم يقل «إنه» لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه ؛ كما قال :(١) «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ» ثم قال : «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ» .

قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى اتركوا الأصنام فلا تعبدوها ، وأطيعوا الله وحده . ومن قرأ « إنّى » بالكسر جعله معترضا فى الكلام ، والمعنى أرسلناه بألا تعبدوا [إلا الله] . ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قوله تعالى : فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الملأ الرؤساء ؛ أى هم مليئون بما يقولون . وقد تقدّم هذا فى « البقرة »(٢) وغيرها . ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا ﴾ أى

(١) قال ابن عطية : وفى هذا نظر ، وإنما هى حكاية مخاطبة لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى مخاطبة ، ولو كان الكلام أن أنذرهم أو نحوه لصح ذلك .
(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

آدميًّا. ﴿ مِثْلَنَا ﴾ نصب على الحال. و « مثلنا » مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين؛ كما قال الشاعر :(١)

* يارُبَّ مِثْلِكِ في النِّساءِ غَرِيرَةٍ *

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أَرَاذل جمع أَرْذُل وأَرْذُل جمع رَذْل ؛ مثل كَلْب وأَكْلُب وأَكالب . وقيل : الأراذل جمع الأَرْذل ، كأَسَاود جمع الأَسْوَد من الحيّات . والرَّذْل النّذْل ؛ أرادوا ٱتبعك أَخِسّاؤنا وسَقَطُنا وسفلتنا . قال الزجاج : نسبوهم إلى الحِياكة؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانة . قال النحاس : الأراذل هم الفقراء، والذين لا حسب لهم، والخسيسو الصناعات . وفي الحديث "إنهم كانوا حاكَة وحَجَّامين" . وكان هذا جهلا منهم؛ لأنهم عابوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بما لا عيب فيــه؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، إنمـا عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات ، وهم يرسلون إلى الناس جميعا ، فإذا أسلم منهــم الدنيء لم يلحقهم من ذلك نقصان؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء ؛ كما قال هِرَقْل لأبي سفيان : أشراف الناس ٱتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ؛ فقال : هم أتباع الرسل . قال علماؤنا : إنمـا كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف ، وصعوبة الانفكاك عنهـا ، والأَنَفة من الانقياد للغير؛ والفقير خَلِيٌّ عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيـا .

الثالثــة ــ اختلف العلماء في تعيين السّفلة على أقوال ؛ فذكر ابن المبارك عن سفيان أن السّــفلة هم الذين يَتَقلّسون(٢) ، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبــون الشهادات .

---

(١) هو أبو مِحْجَن الثَّقفي ، وتمام البيت :

* بيضاءَ قد مَتَّعتُها بطلاق *

الغريرة : المغترة بلين العيش . ومَتَّعها : أعطاها ما تستمتع به عند طلاقها .

(٢) التقليس : استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو .

وقال ثعلب عن آبن الأعرابى: السّفلة الذى يأكل الدنيا بدينه؛ قيل له: فمن سفلة السّفلة؟ قال: الذى يُصلح دنيا غيره بفساد دينه. وسئل على رضى الله عنه عن السّفلة فقال: الذين إذا آجتمعوا غَلَبوا، و إذا تفرقوا لم يعرفوا. وقيل لمالك بن أنس رضى الله عنه: مَن السّفلة؟ قال: الذى يسبّ الصحابة. وروى عن آبن عباس رضى الله عنهما: الأرذلون الحاكة والحجّامون. يحيي بن أَكْثَم: الدّبّاغ والكنّاس إذا كان من غير العرب.

الرابعـــة — إذا قالت المرأة لزوجها: يا سَفِلة، فقال: إن كنتُ منهم فأنتِ طالق؛ فحكى النقاش أن رجلا جاء إلى التّرمذى فقال: إن آمرأتى قالت لى يا سَفِلة، فقلت: إن كنتُ سَفِلة فأنت طالق؛ قال التّرمذىّ: ما صناعتك؟ قال: سمّاك؛ قال: سَفِلة واللهِ، سَفِلة والله.

قلت: وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلق، وكذلك على قول مالك وابن الأعرابى لا يلزمه شىء.

قوله تعالى: ﴿ بَادِىَ الرَّأْيِ ﴾. أى ظاهر الرأى، و باطنهم على خلاف ذلك. يقال: بدا يبدو إذا ظهر؛ كما قال:

* فاليوم حين بَدَوْن للنُّظار *

و يقال للبرّية بادية لظهورها. وبدا لى أن أفعل كذا، أى ظهر لى رأى غير الأول. وقال الأزهرى: معناه فيما يبـدو لنا من الرأى. ويجوز أن يكون « بَادِىَ الرَّأْيِ » من بدأ يبدأ وحذف الهمزة. وحقّق أبو عمرو الهمزة فقرأ « بَادِئَ الرأى » أى أوّل الرأى؛ أى آتبعوك حين آبتـدءوا ينظرون، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك؛ ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز. وانتصب على حذف « فى » كما قال عز وجل: « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ». ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ أى فى آتباعه؛ وهذا جحد منهم لنبوّته. ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه.

قوله تعالى : قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أى على يقين ؛ قاله أبو عمران الجُونى . وقيل : على معجزة ؛ وقد تقدّم فى « الأنعام »[1] هذا المعنى . ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ أى نبوّة ورسالة ؛ عن ابن عباس ؛ وهى رحمة على الخلق . وقيل : الهداية إلى الله بالبراهين . وقيل : الإيمان والإسلام . ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أى عَميت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها . يقال : عَميتُ عن كذا ، وعَمِى علىّ كذا أى لم أفهمه . والمعنى : فعَميت الرحمةُ ؛ فقيل : هو مقلوب ؛ لأن الرحمة لا تَعمَى إنما يُعمَى عنها ؛ فهو كقولك : أدخلت فى القَلَنْسُوة رأسى ، ودخل الخفُّ فى رجلى . وقرأها الأعمش وحمزة والكسائى « فَعُمِّيَتْ » بضم العين وتشديد الميم على مالم يُسمَّ فاعله ؛ أى فعمّاها الله عليكم ؛ وكذا فى قراءة أُبَىّ « فعمّاها » ذكرها الماوردى . ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ قيل : شهادة أن لا اله إلا الله . وقيل : الهاء ترجع إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة ؛ أى أنلزمكم قبولها ، وأُوجبها عليكم ؟! وهو استفهام بمعنى الإنكار ؛ أى لا يمكننى أن أضطركم إلى المعرفة بها ؛ وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

أن يردّ عليهم . وحكى الكسائيّ والفرّاء «أَنُلْزِمْكُمُوهَا» بإسكان الميم الأولى تخفيفا ؛ وقد أجاز مثل هذا سيبويه ، وأنشد[1] :

فاليومَ أشربْ غيرَ مُستحْقِبٍ * إثمًا مِنَ اللهِ ولَا واغِلِ

وقال النحاس : ويجوز على قول يونس [في غير[2] القرآن] أنلزمكمها يجرى المضمر مجرى المظهر ؛ كما تقول : أنلزمكم ذلك . ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أى لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها . قال قتادة : والله لو آستطاع نبيّ الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ، ولكنه لم يملك ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على التبليغ ، والدعاء إلى الله ، والإيمان به ﴿ مَالًا ﴾ فيثقـل عليكم . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ﴾ أى ثوابى فى تبليغ الرسالة . ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به ، كما سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد الموالى والفقراء ، حسب ما تقدّم « فى الأنعام[3] » بيانه ؛ فأجابهم بقوله : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عزّ وجلّ ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الآختصام ؛ أى لو فعلت ذلك لخاصمونى عند الله ، فيجازيهم على إيمانهم ، ويجازى من طردهم . ﴿ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فى آسترذالكم لهم ، وسؤالكم طردهم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ ﴾ قال الفرّاء : أى يمنعنى من عذابه . ﴿ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾ أى لأجل إيمانهم . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أدغمت التـاء فى الذّال . ويجـوز حذفها فتقول : تذكرون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أخبر بتذلّله وتواضعه لله عزّ وجلّ ، وأنه لا يدّعى ما ليس له من خزائن الله ؛ وهى إنعامه على من يشاء من عباده ؛

---

(١) البيت لامرىء القيس ، والشاهد فيه تسكين الباء من قوله (أشرب) فى حال الرفع والوصل . احتقب الإثم واستحقبه احتمله . والواغل الداخل على الشراب ولم يدع له . يقول : حلت لى الخمر فلا آثم بشربها إذ قد وفيت بنذرى فيها . وكان قد نذر ألا يشربها حتى يدرك ثأر أبيه .

(٢) الزيادة عن النحاس . (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٣١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وأنه لا يعلم الغيب ؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ . ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ أى لا أقول إن منزلتى عند الناس منزلة الملائكة . وقد قالت العلماء : الفائدة فى الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، لدوامهم على الطاعة، واتصال عباداتهم إلى يوم القيامة، صلوات الله عليهم أجمعين . وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة »[(١)] . ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ ﴾ أى تستثقل وتحتقر أعينكم ؛ والأصل تزدريهم حذفت الهاء والميم لطول الاسم . والدّال مبدلة من تاء؛ لأن الأصل فى تزدرى تَزْتَرِى، ولكن التّاء تبدل بعد الزّاى دالا ؛ لأن الزّاى مجهورة والتّاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها . و يقال : أَزْرَيْتُ عليه إذا عِبتَه . وزَرَيتُ عليه إذا حقَّرته . وأنشد الفرّاء :

يُباعدُه الصديقُ وتَزْدَريه * حَليلتُــهُ ويَنْهَرُه الصَّــغيرُ

﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا ﴾ أى ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم ، أو ينقص ثوابهــم . ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ ﴾ فيجازيهم عليــه و يؤاخذهم به . ﴿ إِنِّى إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى إن قلت هذا الذى تقدم ذكره . « وإذًا » ملغاة ؛ لأنها متوسطة .

قوله تعالى : قَالُوا يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أى خاصمتنا فأكثرت خصومتنا و بالغت فيها . والجَدَل فى كلام العرب المبالغة فى الخصومة ؛ مشتق من الجَدْل

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

وهو شدّة القتل ؛ و يقال للصّقر أيضا أَجْدَل لشدّته فى الطّير ؛ وقد مضى هذا المعنى فى «الأنعام»[(١)] بأشبع من هـذا . وقرأ ابن عبـاس « فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا » ذكره النحاس . والجَدَل فى الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبيـاء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قَبِله نجح وأفلح، ومن ردّه خاب وخَسِر . وأما الجِدال لغير الحقّ حتى يظهر الباطل فى صورة الحقّ فمذموم، وصاحبـه فى الدّارين ملوم. ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أى من العذاب. ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى قولك .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ ﴾ أى إن أراد إهلاككم عذّبكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى بفائتين . وقيل : بغـالبين بكثرتكم، لأنهـم أعجبوا بذلك؛ كانوا ملئوا الأرض سهلا وجبلا على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى ﴾ أى إبلاغى واجتهادى فى إيمـانكم . ﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ أى لأنكم لا تقبلون نصحا؛ وقد تقدّم فى «براءة»[(٢)] معنى النصح لغة. ﴿ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أى يضلّكم . وهذا مما يدلّ على بطلان مذهب المعتزلة والقَدَرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعـالى لا يريد أن يَعصى العاصى ، ولا يَكفر الكافر، ولا يَغوى الغاوى؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فردّ الله عليهم بقوله : « إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » . وقد مضى هذا المعنى فى «الفاتحة»[(٣)] وغيرها . وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيّنّاه فى « الأعراف » فى إغواء الله تعالى إياه حيث قال : « فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي » ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام : « إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادى المضلّ؛ سبحانه عمـا يقول الجاحدون والظالمون عُلُوًّا كبيرا . وقيل : « أَنْ يُغْوِيَكُمْ » يهلككم؛ لأن الإضلال يُفضى إلى الهلاك . الطّبرى : « يغويكم » يهلككم بعذابه؛ حكى عن طىء : أصبح فلان غاويا أى مريضا، وأغويتـه أهلكته؛ ومنه « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ فإليه الإغواء ، و إليه الهداية . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٧٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى تفسير قوله تعالى : «ليس على الضعفاء ... ...» آية ٩١ (٣) راجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة ، جـ ٤ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم . آفترى افتعل ؛ أى اختلق القرآن من قِبل نفسه ، وما أخبر به عن نوح وقومه ؛ قاله مقاتل . وقال آبن عباس : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه؛ فالخطاب منهم ولهم . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ أى اختلقته وافتعلته، يعنى الوحى والرسالة . ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ أى عقاب إجرامى ، وإن كنت محقًّا فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبي . والإجرام مصدر أجرم؛ وهو اقتراف السّيئة . وقيل : المعنى أى جزاء جُرْمى وكَسْبى . وجَرَم وأَجْرَم بمعنى ؛ عن النحاس وغيره . قال[1] :

طَرِيدُ عَشِيرةٍ ورَهِينُ جُرْمٍ * بما جَرَمتْ يَدِى وجَنَى لِسَانِى

ومن قرأ « وأَجْرَامِي » بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جُرْم ؛ وذكره النحاس أيضا . ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ « أنه » فى موضع رفع على أنه آسم ما لم يُسَمَّ فاعله . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، ويكون التقدير بأنه . و « آمن » فى موضع نصب « بيؤمن » ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم ، واستدامة كفرهم ، تحقيقا لنزول الوعيد بهم . قال الضَّحاك : فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » الآيتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح حمل آبنه على كتفه ، فلما رأى الصبيُّ نوحا قال لأبيه : أعطنى حجرا ؛ فأعطاه حجرا ، ورمى به نوحا عليه السلام فأدماه ؛ فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ

(١) البيت للهيردان السعدى أحد لصوص بنى سعد . (اللسان) .

آمن» . ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى فلا تغتم بهلاكهم حتى تكون بائسا؛ أى حزينا .
والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر :

وكم مِن خليلٍ أو حَميم رُزِئته * فلم أبتئسْ والرُّزءُ فيه جَليـل

يقال ابتأس الرجل إذا بلغه شىء يكرهه . والابتئاس حزن فى استكانة .

قوله تعالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أى اعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك . « بأعيننا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الرّبيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ من يَراك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا؛ والمعنى واحد؛ فعبّر عن الرؤية بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى : «فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ » « فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » . وقد يرجع معنى الأعين فى هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال : «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة، وهو سبحانه منزّه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف؛ لا ربّ غيره . وقيل : المعنى «بأعيننا» أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حِفظك ومعونتك؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه . وقيل : « بأعيننا » أى بعلمنا؛ قاله مقاتل : وقال الضّحاك وسفيان : « بأعيننا » بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بمعونتنا لك على صنعها . « ووحينا » أى على ما أوحينا إليك من صنعتها . ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أى لا تطلب إمهالهم فإنى مُغْـرقهم .

قوله تعالى : وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ أى وطفق يصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يَغرس الشّجر ويقطعها وييبسها، ومائة سنة يعملها . وروى آبن القاسم عن آبن أشرس عن مالك قال : بلغنى أن قوم نوح مَلَئوا الأرض، حتى مَلَئوا السّهل والجبل، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء، ولا هؤلاء أن يَصعدوا إلى هؤلاء؛ فمكث نوح يَغرس الشّجر مائة عام لعمل السّفينة ، ثم جمعها ييبسها مائة عام ، وقومه يسخرون ؛ وذلك لما رأوه يصنع من ذلك؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينته ببقاع دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان .
وقال القاضى أبو بكر بن العربى : لما آستنقذ الله سبحانه وتعالى مَن فى الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن فآصنع الفلك » قال : يارب ما أنا بنجّار، قال : « بلى فإن ذلك بعينى » فأخذ القدوم فجعله بيده ، وجعلت يده لا تُخطئ ، فجعلوا يَمرّون به ويقولون : هذا الذى يزعم أنه نبىّ صار نجّارا ؛ فعملها فى أربعين سنة .

وحكى الثعلبىّ وأبو نصر القشيرىّ عن آبن عباس قال: آتخذ نوح السّفينة فى سنتين. زاد الثّعلبىّ : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن آصنعها كجُؤْجُؤ الطائر . وقال كعب : بناها فى ثلاثين سنة، والله أعلم. المهدوىّ: وجاء فى الخبر أن الملائكة كانت تعلّمه كيف يصنعها، وآختلفوا فى طولها وعرضها ؛ فعن آبن عباس رضى الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسون، وسمكها ثلاثون ذراعا؛ وكانت من خشب السّاج . وكذا قال الكَلْبىّ وقَتَادة وعِكْرِمة كان طولها ثلثمائة ذراع . والذّراع إلى المَنْكِب قاله سلمان الفارسىّ . وقال الحسن البصرىّ : إن طول السّفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع. وحكاه الثعلبىّ فى كتاب العرائس . وروى علىّ بن زيد عن يوسف بن مِهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها، فآنطلق بهم حتى آنتهى إلى كَثِيب من تراب فأخذ كفًّا من ذلك التّراب، قال أتدرون ما هذا ؟

قالوا : الله ورسـوله أعلم . قال : [هـذا كعب[١] حام بن نوح] قال فضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسـه ، وقد شاب ؛ فقـال له عيسى : أهكذا هلكت؟ قال : لا بل متّ وأنا شاب ،ولكننى ظننت أنها الساعة فمن ثَمَّ شِبت . قال : أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدوابّ والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير. وذكر باقى الخبر[٢] على ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى . وقال الكَلْبىّ فيما حكاه النقاش : ودخل المـاء فيها أربعة أذرع ،وكان لها ثلاثة أبواب ؛ باب فيه السبّاع والطّير ،وباب فيه الوحش ، وباب فيه الرجال والنساء . ابن عبـاس : جعلها ثلاث بطون ؛ البطن الأسـفل للوحوش والسباع والدواب ، والأوسـط للطعام والشراب ، وركب هو فى البطن الأعلى ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام معترضا بين الرجال والنساء ، ثم دفنه بعدُ ببيت المقدس ؛ وكان إبليس معهـم فى الكَوْثَل[٣] . وقيل : جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة فقال نوح : لا أحملكما ؛ لأنكما سبب الضرر والبـلاء ، فقالتا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضرّ أحدا ذَكَرك ؛ فمن قـرأ حين يخاف مَضَرّتهما « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ » لم تضرّاه ؛ ذكره القشيرىّ وغيره. وذكر الحافظ بن عساكر فى التاريخ له مرفوعا من حديث أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " من قال حين يمسى صلى الله على نوح وعلى نوح السـلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة " . قوله تعـالى : ﴿ وَكُلَّمَا ﴾ ظرف. ﴿ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ . قال الأخفش والكِسائى يقال : سَخِرتُ به ومنه . وفى سخريتهم منه قولان : أحدهما — أنهم كانوا يرونه يبنى سفينته فى البر، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون : يانوح صرت بعد النبوّة نجارا . الثـانى — لمـا رأوه يبنى السـفينة ولم يشاهـدوا قبلها سفينة بنيت قالوا : يانوح

---

(١) كذا فى الطبرى والدر المنثور والـكشاف ، وفى الأصل (قبر سام بن نوح) .

(٢) جاء فى البحر : وآختلفوا فى هيئتها من التربيع والطول ، وفى مقـدار مدّة عملها ، وفى المكان الذى عملت فيه ، ومقدار طولها وعرضها على أقوال متعارضة لم يصح منها شىء .

وقال الفخر الرازى : اعلم أن هذه المباحث لا تعجبنى ، لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا .

(٣) الكوثل : مؤخر السفينة وفيه يكون الملاحون ومتاعهم . وقيل : هو السكان .

ما تصنع ؟ قال : أبنى بيتا يمشى على الماء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه . قال آبن عباس : ولم يكن فى الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه؛ ومياه البحار هى بقية الطوفان . ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا ﴾ أى من فعلنا اليوم عند بناء السفينة . ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ ﴾ غدا عند الغرق . والمراد بالسخرية هنا الآستجهال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ تهديد، و « مَن » متصلة بـ« سوف تعلمون » و « تعلمون » هنا من باب التعدية إلى مفعول ؛ أى فسوف تعلمون الذى يأتيه العذاب . ويجوز أن تكون « مَن » آستفهامية ؛ أى أينا يأتيه العذاب ؟ . وقيل : « مَن » فى موضع رفع بالآبتدا و « يأتيه » الخبر ، و « يخزيه » صفة لعذاب . حكى الكسائى أن أناسا من أهل الحجاز يقولون : سوف تعلمون، وقال من قال : « ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا . وحكى الكوفيون : سَفْ تعلمون[(١)] ؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل ، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى . ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أى يجب عليه وينزل به . ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أى دائم، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ آختلف فى التّنور على أقوال سبعة : الأول — أنه وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا ؛ قاله آبن عباس وعِكرمة والزّهرى وآبن عُيينة ؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فآركب أنت ومن معك . الثانى — أنه تنّور الخبز الذى يخبز فيه؛ وكان تنّورا من حجارة؛ وكان لحوّاء حتى صار لنوح ؛ فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فآركب أنت وأصحابك . وأنبع الله الماء من التنّور ، فعلمت به آمرأته فقالت : يانوح فار الماء من التنّور؛ فقال : جاء وعد ربى حقا . هذا قول الحسن ؛ وقاله مجاهد وعطية عن آبن عباس . الثالث — أنه

(١) ورد فى اللسان : قد قالوا سو يكون فحذفوا اللام ، وسايكون فحذفوا اللام وأبدلوا العين طلب الخفة ، وسف يكون فحذفوا العين .

موضع ٱجتماع المـاء فى السـفينة ؛ عن الحسن أيضـا . الرابع — أنه طلوع الفجر، ونور الصبح ؛ من قولهم نوّر الفجر تنويرا؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الخـامس — أنه مسجد الكوفة ؛ قاله علىّ بن أبى طالب أيضا، وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحيـة التّنور بالكوفة . وقال : ٱتخـذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة، وكان التّنور على يمين الداخل مما يلى كـندة . وكان فوران المـاء منه علما لنوح، ودليلا على هلاك قومه . قال الشاعر وهو أمية :

فار تنورُهم وجَاشَ بماءٍ * صار فوق الجبالِ حتّى عَلاهَا

السادس — أنه أعالى الأرض، والمواضع المرتفعة منها؛ قاله قتادة .

السـابع — أنه العين التى بالجـزيرة « عين الوردة » رواه عكرمة . وقال مقاتل : كان ذلك تنور آدم، و إنمـا كان بالشام بموضع يقال له « عين وَرْدة » . وقال ٱبن عباس أيضا : فار تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن المـاء جاء من السماء والأرض؛ قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا» . فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة . والفَوَران الغَلَيان . والتّنور ٱسم أعجمىّ عربته العرب، وهو على بناء فَعّـل ؛ لأنّ أصل بنائه تَنَر ، وليس فى كلام العرب نون قبل راء . وقيل : معنى « فار التنور » التمثيل لحضور العـذاب ؛ كقولهم حَمِيَ الوَطيسُ إذا ٱشتد الحرب . والوطيس التّنور . ويقال : فارت قِدر القوم إذا ٱشتد حربهم؛ قال شاعرهم :

تركتم قِدْرَكم لا شىء فيها * وقِدْرُ القوم حاميـةٌ تَفورُ

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ يعنى ذكرا وأنثى؛ لبقاء أصل النّسل بعد الطّوفان . وقرأ حفص «مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ » بتنوين « كلّ» أى من كل شىء زوجين . والقراءتان ترجعان إلى معنًى واحدٍ معه آخر لا يستغنى عنـه . ويقال للاثنين : هما زوجان ، فى كل ٱثنين لا يَستغنى أحدهما عن صاحبـه ؛ فإن العرب تسمى كل واحد منهما زوجا . يقال : له زوجا نعلٍ إذا كان له نعلان . وكذلك عنده زوجا حمامٍ ، وعليـه زوجا

قيود ؛ قال الله تعالى : « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » . ويقال للمرأة هى زوج الرجل ، وللرجل هو زوجها . وقد يقال للاثنين هما زوج ، وقد يكون الزوجان بمعنى الضّربين والصّنفين ، وكل ضرب يدعى زوجا ؛ قال الله تعالى : « وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » أى من كل لون وصنف . وقال الأعشى :

وكُلُّ زوجٍ من الدّيباج يَلْبَسه * أبو قُدامةَ مَحْبوٌّ بذاك مَعا

أراد كل ضرب ولون . و « مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ » فى موضع نصب بـ « آحمل » . « آثنين » تأكيد . ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أى وآحمل أهلك . ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ ﴾ . « مَن » فى موضع نصب بالآستثناء . ﴿ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ منهم أى بالهلاك ؛ وهو آبنه كنعان وآمرأته واعلة كانا كافرين . ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ قال الضحاك وآبن جريج : أى آحمل من آمن بى ، أى من صدّقك ؛ فـ « مَن » فى موضع نصب بـ « ٱحمل » . ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال آبن عباس رضى الله عنهما : آمن مِن قومه ثمانون إنسانا ، منهم ثلاثة من بنيه ؛ سام وحام ويافث ، وثلاث كَنائِن[1] له . ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهى اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل . وورد فى خبر أنه كان فى السفينة ثمانية أنفس ؛ نوح وزوجته غير التى عوقبت ، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم ؛ وهو قول قَتَادة والحكم بن عُيينة وابن جُريج ومحمد بن كعب ؛ فأصاب حام آمرأته فى السفينة ، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم ، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . وقال الأعمش : كانوا سبعة ؛ نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين ؛ وأسقط امرأة نوح . وقال آبن إسحق : كانوا عشرة سوى نسائهم ؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث ، وستة أناس ممن كان آمن به ، وأزواجهم جميعا . و « قَلِيلٌ » رفع بآمن ، ولا يجوز نصبه على الآستثناء ؛ لأن الكلام قبله لم يتم ، إلا أن الفائدة فى دخول « إلا » و « ما » أنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن ؛ فإذا جئت بما و إلا ، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم .

---

(١) الكَنّة (بالفتح) : آمرأة الابن أو الأخ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا ﴾ أمرٌ بالركوب ؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه . والركوب العلو على ظهر الشيء . ويقال : ركبه الدين . وفى الكلام حذف؛ أى آركبوا الماء فى السفينة . وقيل : المعنى آركبوها . و « فى » للتأكيد كقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وفائدة « فى » أنهم أمروا أن يكونوا فى جوفها لا على ظهرها . قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام فى الفلك لعشر خلون من رجب ، وآستوت على الجُودىّ لعشر خلون من المحرم؛ فذلك ستة أشهر؛ وقاله قتَادة وزاد؛ وهو يوم عاشوراء؛ فقال لمن كان معه : من كان صائما فليتم صومه، ومن لم يكن صائما فليصمه . وذكر الطَّبَرى فى هذا حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب فى السفينة أول يوم فى رجب ، وصام الشهر أجمع ،وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء، ففيه أَرست على الجُودىّ ، فصامه نوح ومن معه . وذكر الطَّبَرى عن آبن إسحق ما يقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة ، ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد رفعها الله عن الغرق فلم ينلها غرق، ثم مضت إلى اليمن ، ورجعت إلى الجُودىّ فاستوت عليه .

قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ، على معنى بسم الله إجراؤها و إرساؤها ؛ فمُجراها ومُرساها فى موضع رفع

بالابتداء؛ ويجوز أن تكون في موضع نصب ، ويكون التقدير : بسم الله وقت إجرائها ثم حذف وقت ، وأقيم « مجراها » مقامه . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي « بسم الله مَجرِيها » بفتح الميم و « مُرساها » بضم الميم . وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثاب « بِسمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا » بفتح الميم فيهما ؛ على المصدر من جَرت تَجرى جريا ومَجرى ، ورَست رُسوًّا ومَرْسى إذا ثبتت . وقرأ مجاهد وسليمان بن جُنْدُب وعاصم الجَحْدَرِيّ وأبو رجاء العُطَارِدِيّ « بِسمِ اللهِ مُجْرِيها ومُرْسِيها » نعت لله عز وجل في موضع جر . ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ أي هو مُجريها ومُرسيها . ويجوز النصب على الحال . وقال الضّحاك : كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مَجراها جرت ، وإذا قال بسم الله مَرساها رَست . وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن الحسين بن عليّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أمانٌ لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » « بِسمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » ". وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل ؛ كما بيناه في البسملة[1] ، والحمد لله . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي لأهل السفينة . وروى عن ابن عباس قال : لما كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح اغمز ذنب الفيل ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ؛ فقال نوح : لو غمزت ذنب هذا الخنزير ! ففعل ، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها تقرضها ، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة ؛ فأوحى الله إلى نوح أن امسح جبهة الأسد فمسحها ، فخرج منها سِنّوران فأكلا الفئرة ، ولما حمل الأسد في السفينة قال : يارب من أين أطعمه ؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته الحُمَّى ؛ فهو الدهر محموم . قال ابن عباس : وأوّل ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الأوزّة ، وآخر ما حمل حمل الحمار ؛ قال : وتعلق إبليس بذنبه ، ويداه قد دخلتا في السفينة ، ورجلاه خارجة بعد ، فجعل الحمار يضطرب

(١) راجع جـ ١ ص ٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : آدخل ويلك ! فجعل يضطرب ؛ فقال : آدخل ويلك ! وإن كان معك الشيطان؛ كلمة زلّت على لسانه، فدخل ووثب الشيطان فدخل ، ثم إن نوحا رآه يغنى فى السفينة، فقال له : ياالعين ما أدخلك بيتى ؟! قال : أنت أذنت لى؛ فذكر له ؛ فقال له : قم فاخرج . قال : مالك بدّ فى أن تحملنى معك ؛ فكان فيما يزعمون فى ظهر الفلك . وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان، واحدة مكان الشمس، والأخرى مكان القمر . آبن عباس : إحداهما بيضاء كبياض النهار ، والأخرى سوداء كسواد الليل ؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه؛ على قدر الساعات .

قوله تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ الموج جمع موجة؛ وهى ما آرتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح . والكاف للتشبيه ، وهى فى موضع خفض نعت للموج . وجاء فى التفسير أن الماء جاوز كل شىء بخمسة عشر ذراعا . ﴿وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ﴾ قيل : كان كافرا وآسمه كنعان . وقيل : يام . ويجوز على قول سيبويه « ونادى نوح آبنه » بحذف الواو من « ابنه » فى اللفظ، وأنشد[1] :

* لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوتُ حادٍ *

فأما « وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَ وَكَانَ » فقراءة شاذة، وهى مروية عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد « ابنها » فحذف الألف كما تقول : «آبنه» ؛ فتحذف الواو . وقال النحاس : وهذا الذى قاله أبو حاتم لايجوز على مذهب سيبويه؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو ثقيلة يجوز حذفها . ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أى من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن آبنه كان كافرا ، وأنه

---

(١) البيت للشماخ ، والشاهد فى (كأنه) حيث حذف الواو ضرورة . وتمامه :

* إذا طلبَ الوسيقةَ أو زَميرُ *

يصف حمار وحش هائجا يطلب وسيقته ، وهى أتنه التى يضمها ويجمعها ؛ من وسقت الشىء أى جمعته . (شواهد سيبويه) .

ظن أنه مؤمن؛ ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ وسيأتى. وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق، وقبل رؤية اليأس، بل كان فى أوّل ما فار التنور، وظهرت العلامة لنوح. وقرأ عاصم ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ بفتح الياء، والباقون بكسرها. وأصل «يا بنىّ» أن تكون بثلاث ياءات؛ ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافة؛ فأدغمت ياء التصغير فى لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء فى هذا الموضع؛ هذا أصل قراءة من كسر الياء، وهو أيضا أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الاضافة ألفا لخفة الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضا من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الراء. قال النحاس: أما قراءة عاصم فمشكلة؛ قال أبو حاتم: يريد يا بُنَيَّاه ثم يَحذف؛ قال النحاس: رأيت علىّ بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة. قال أبو جعفر النحاس: ما علمت أن أحدا من النحويين جوز الكلام فى هذا إلا أبا إسحق؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على انه يبدل من الياء ألفا؛ قال الله عز وجل إخبارا: «يا ويلتا» وكما قال الشاعر:

* فياعجبا من رَحْلها المتحمَّلِ *

فيريد يا بنيّا، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول جاءنى عبدا الله فى التثنية. والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف. والكسر على أن تحذف الياء للنداء. والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِي﴾ أى أرجع وأنضم. ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي﴾ أى يمنعنى من الماء فلا أغرق. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى لا مانع؛ فإنه يوم حقّ فيه العذاب على الكفار. وانتصب «عاصم» على التبرئة. ويجوز «لا عاصمُ اليوم» تكون لا بمعنى ليس. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ فى موضع نصب استثناء ليس من الأول؛ أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج. ويجوز أن يكون فى موضع رفع، على أن عاصما بمعنى معصوم؛ مثل «ماء دافق» أى مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر:

بطىءُ القيامِ رخيمُ الكلا * مِ أَمْسَى فؤادِى بِهِ فَاتِنَـا

أى مفتونا . وقال آخر[(١)]:

دَعِ المكارِمَ لا تَنهض لبغيتها * وٱقعدْ فإنَّكَ أنتَ الطاعمُ الكَاسِى

أى المطعوم المكسو . قال النحاس : ومن أحسن ماقيل فيه أن تكون «مَن» فى موضع رفع؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم؛ أى إلا الله . وهـذا اختيار الطَّـبَرِىّ . ويُحسِّن هذا أنك لم تجعل عاصما بمعنى معصوم فتخرجه من بابه، ولا «إلّا» بمعنى «لكن» . ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ يعنى بين نوح وٱبنه . ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ قيل : إنه كان راكبا على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها؛ فلما رأى المـاء جاء قال : يا أبت فار التنور؛ فقال له أبوه : «يا بنى اركب معنا» فما ٱستتمّ المراجعة حتى جاءت مَوْجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه و بين نوح فغرق . وقيل : إنه اتخذ لنفسه بيتا من زجاج يتحصّن فيه من المـاء، فلما فار التنّور دخل فيه وأقفله عليه من داخل، فلم يزل يتغوط فيه و يبول حتى غرق بذلك . وقيل : إن الجبل الذى آوى إليه «طورسيناء» .

قوله تعـالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى﴾ هـذا مجاز لأنها موات . وقيل : جعل فيها ما تُميِّز به . والذى قال إنه مجاز قال : لو فُتِّش كلام العرب والعجم ماوجد فيه مثل هـذه الآية على حسن نظمها، و بلاغة رصفها، واشتمال المعانى فيهـا . وفى الأثر : أن الله تعالى لا يخلى الأرض من مطر فى عام أو عامين، وأنه مانزل من السماء ماء قطّ إلا بحفظ مَلك موكّل به إلا ما كان من ماء الطوفان؛ فإنه خرج منـه ما لا يحفظه المَلك . وذلك قوله تعالى : «إِنَّا لَمَّـا طَغَى الْمَـاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ» فجرت بهم السفينة إلى أن تناهى الأمر؛ فأمر الله المـاء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع . يقال : بلَع المـاء يبلَعه مثل منـع يمنع وبَلِـع يبلَع مثل حمِد يحمَد؛ لغتان حكاهما الكسائىّ والفرّاء . والبالُوعة

---

(١) البيت للحطيئة يهجو الزِّبرقان .

الموضع الذى يشرب الماء . قال ابن العربى : التقى الماءان على أمر قد قدر ، ما كان فى الأرض وما نزل من السماء؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع ، فلم تمتص الأرض منه قطرة ، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ » . وقيل : ميّز الله بين الماءين، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته ، وصار ماء السماء بحارا .

قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَاءُ ﴾ أى نقص ؛ يقال : غاض الشىءُ وغضته أنا ؛ كما يقال : نَقَص بنفسه ونَقَصه غيره ، ويجوز « غيض » بضم الغين[1] . ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أى أحكم وفرغ منه ؛ يعنى أهلك قوم نوح على تمام وإحكام . ويقال : إن الله تعالى أعقم أرحامهم أى أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة ، فلم يكن فيمن هلك صغير . والصحيح أنه أهلك الولدان بالطّوفان ، كما هلكت الطير والسباع ، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير ، بل ماتوا بآجالهم . وحكى أنه لما كثر الماء فى السّكك خشيت أمّ صبىّ عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت به إلى الجبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه ، فلما بلغها الماء آستوت على الجبل ؛ فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بآبنها حتى ذهب بها الماء ؛ فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أمّ الصبى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أى هلاكا لهم . الجُودىّ جبل بقرب المَوْصل ؛ استوت عليه فى العاشر من المحرّم يوم عاشوراء ؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه ، شكرا لله تعالى ؛ وقد تقدّم هذا المعنى . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسى على واحد منها فتطاولت ، وبقى الجُودىّ لم يتطاول تواضعا لله ، فاستوت السفينة عليه ، وبقيت عليه أعوادها . وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لقد بقى منها شىء أدركه أوائل هذه الأمة " . وقال مجاهد : شامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق ، فعلا

---

(١) أى باشمام الكسرة الضم .

الماء فوقها خمسة عشر ذراعا، وتطامن الجودىّ، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورست السفينة عليه. وقد قيل: إن الجودىّ اسم لكل جبل؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل[1]:

سُبحانه ثم سُبحانًا يعودُ له * وقَبْلنا سَبَّحَ الجُودىُّ والجُمُدُ

ويقال: إن الجُودىّ من جبال الجنة؛ فلهذا استوت عليه. ويقال: أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر، الجودىّ بنوح، وطورسيناء بموسى، وحِراء بمحمد صلى الله عليه وسلم.

قلت: لما تواضع الجودىّ وخضع عزّ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذلّ، وهذه سنّة الله فى خلقه، يرفع من يخشع، ويضع من ترفّع، ولقد أحسن القائل:

وإذا تذلَّلت الرِّقابُ تَخضُّعـًا * مِنّـا إليكَ فعِـزُّها فى ذلِّهـا

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال: كانت ناقة للنبى صلى الله عليه وسلم تُسمّى العَضْباء، وكانت لا تُسبق؛ فجاء أعرابىّ على قعودٍ له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين؛ وقالوا: سُبِقت العضباءُ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن حقّا على الله ألا يَرفع شيئا من الدنيا إلا وَضعه". وخرج مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما نَقَصت صدقةٌ من مالٍ وما زاد الله عبدا بعفوٍ إلا عزًّا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله". وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يَبغِى أحد على أحد ولا يَفخر أحد على أحد". خرجه البخارىّ.

مسئلة: — نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة. ذكر الحافظ ابن عساكر فى التاريخ له عن الحسن أن نوحا أوّل رسول بعثه الله إلى الأرض؛ فذلك قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا». وكان قد كثرت فيهم المعاصى، وكثرت الجبابرة وعَتَوا عُتُوّا كبيرا، وكان نوح يدعوهم ليلا ونهارا، سرّا وعلانية، وكان صبورا حليما، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدّ مما لقى نوح؛ فكانوا يدخلون عليه

(١) نسبه اللسان لأمية بن أبى الصلت؛ وفى (معجم ياقوت): هو لزيد بن عمرو، وقيل لورقة بن نوفل. والجمد كعنق: جبل لبنى نصر بنجد.

فيخنقونه حتى يترك وَقِيذًا، ويضربونه فى المجالس ويطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول: «رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» فكان لايزيدهم ذلك إلا فرارا منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه فى أذنيه لكيلا يسمع شيئا من كلامه، فذلك قوله تعالى: «وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ». وقال مجاهد وعُبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: «رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». وقال ٱبن عباس: إن نوحا كان يضرب ثم يُلَفّ فى لِبد فيلقى فى بيتـه يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يئِس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ٱبنه وهو يتوكأ على عصا؛ فقال: يابُنَيّ ٱنظر هـذا الشيخ لا يغرّنك، قال: يا أبت أمكنّى من العصا، فأخذ العصا ثم قال: ضعنى فى الأرض فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة مُوضِحة فى رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح: «ربّ قد ترى مايفعل بى عبادك فإن يك لك فى عبادك خيرية فآهدهم وإن يك غير ذلك فصبّرنى إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين» فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال، ولا فى أرحام النساء مؤمن؛ قال: «وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»؛ أى لا تحزن عليهم؛ «وَٱصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا» قال: يارب وأين الخشب؟ قال: ٱغرس الشجر. قال: فغرس السّاج عشرين سنة، وكفّ عن الدعاء، وكفّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجرُ أمره ربه فقطعها وجفّفها، فقال: يارب كيف أتخذ هـذا البيت؟ قال: ٱجعله على ثلاثة صور؛ رأسه كرأس الدّيك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذَنَبه كذَنَب الديك؛ وٱجعلها مطبقة وٱجعل لها أبوابا فى جنبها، وشدّها بدُسُر، يعنى مسامير الحديد. وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تخطئ. قال ٱبن عباس: كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينة من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب فى الباب الأول، وجعل الوحش والطير فى الباب الثانى، وأطبق عليهما،

وجعل أولاد آدم أربعين رجلا وأربعين امرأة فى الباب الأعلى وأطبق عليهـم، وجعل الذّر معه فى الباب الأعلى لضعفها ألا يطأها الدوابّ .

قال الزُّهرىّ : إن الله عز وجل بعث ريحـا فحمل إليـه من كل زوجين آثنين؛ من السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمـد : بعث الله جبريل فحشرهم ، فجعل يضرب بيـديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى، فيدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت: استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة، فدفعها بيده فى ذنبها؛ فمن ثم انكسر ذنبها فصار معْقوفا وبدا حَياؤها . ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبهـا فستر حياءها ؛ قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهـل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين آثنين، وحمـل من الهدهد زوجين، فماتت الهدهدة فى السفينة قبـل أن تظهر الأرض، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا، فلم يجد طينا ولا ترابا، فرحمه ربه فحفر لها فى قفاه قبرا فدفنها فيه، فذلك الريش الناتئ فى قفا الهدهد موضع القبر؛ فلذلك نتأت أقفية الهداهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان حمل نوح معه فى السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح فى السفينة". وذكر صاحب كتاب «العروس» وغيره أن نوحا عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدّجاج: أنا؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت مختومة بخاتمى لا تطيرى أبدا، أنت ينتفع بك أمتى؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه ، ولذلك يقتل فى الحَرَم، ودعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت . وبعث الحمامة فلم تجـد قرارا فوقعت على شجرة بأرض سبأ فحملت ورقة زيتونة، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادى الحرم، فإذا المـاء قـد نضب من مواضع الكعبة، وكانت طينتها حمراء، فاختضبت رجلاها ، ثم جاءت إلى نوح عليـه السـلام فقالت : بشراى منكَ أن تهب لى الطوق فى عنق ، والخِضاب فى رجلى ، وأسكنُ الحَرَم؛ فمسح يده على عنقها وطوقها، ووهب لها الحمرة فى رجليها، ودعا لهـا ولذريتها بالبركة . وذكر الثعلبىّ أنه بعث بعد الغراب

التَّـدْرُج[١] وكان من جنس الدّجاج ؛ وقال : إياك أن تعتـذر ، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع ، وأخذ أولاده عنده رهنا إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٤٧)﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ أى دعاه . ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أى من أهلى الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق ؛ ففى الكلام حذف . ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يعنى الصدق . وقال علماؤنا : وإنما سأل نوح ربه آبنـه لقوله : « وأهلك » وترك قوله : « إلا من سبق عليه القول » فلما كان عنده من أهـله قال : « رب إن آبنى من أهلى » يدل على ذلك قوله : « ولا تكن مع الكافرين » أى لا تكن ممن لست منهم ؛ لأنه كان عنده مؤمنا فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : « إن آبنى من أهلى » إلا وذلك عنـده كذلك ؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم ؛ وكان آبنه يُسرّ الكفر ويظهر الإيمان ؛ فأخبر الله تعالى نوحا بمـا هو منفرد به من علم الغيوب ؛ أى علمت من حال آبنك ما لم تعلمه أنت . وقال الحسن : كان منافقا ؛ ولذلك آستحل نوح أن ينـاديه . وعنـه أيضا : كان آبن آمرأته . دليله قراءة علىّ « ونادى نوح ابنها » . ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ابتداء وخبر. أى حكمت على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالغرق .

---

(١) التدرج كخبرج : طائر يغرد فى البساتين بأصوات طيبة ؛ وموطنه بلاد فارس . (حياة الحيوان) .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الذين وعدتهم أن أنجيهم ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ؛ فهو على حذف مضاف ؛ وهذا يدل على أن حكم الاتفاق فى الدّين أقوى من النّسب . ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ قرأ ٱبن عباس وعُروة وعِكرمة و يعقوب والكسائى « إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ » أى من الكفر والتكذيب ، وٱختاره أبو عُبيد . وقرأ الباقون « عَمَلٌ » أى ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف ؛ قاله الزجاج وغيره . قال[1] :

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتى إذا ادَّكَرتْ * فإنما هى إقبالٌ وإدبار

أى ذات إقبال و إدبار . وهــذا القول والذى قبلـه يرجع إلى معنى واحد . ويجـوز أن تكون الهاء للسؤال ؛ أى إن سؤالك إياى أن أنجيه عمل غير صالح . قاله قتادة . وقال الحسن : معنى عمـل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ٱبنه . وكان لغير رشـدة ؛ وقاله أيضا مجاهد . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ٱبنه ؛ قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال : « إن ٱبنى من أهلى » فقال : لم يقـل منى ، وهـذه إشارة إلى أنه كان ٱبن ٱمرأته من زوج آخر ؛ فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : «إن ٱبنى من أهلى» « ونادى نوح ٱبنه » ولا يختلف أهـل الكتابين أنه ٱبنه ؛ فقال الحسن : ومن يأخذ دينـه عن أهل الكتاب ! إنهـم يكذبون . وقرأ « فخانتاهمـا » . وقال ٱبن جريج : ناداه وهو يحسب أنه ٱبنه ، وكان ولد على فراشه ، وكانت ٱمرأته خانته فيه ؛ ولهذا قال : «فخانتاهما» . وقال ٱبن عباس : ما بغت ٱمرأة نبىّ قطّ ، وأنه كان ٱبنه لصُلْبه . وكذلك قال الضّحاك وعِكرمة وسعيد ٱبن جُبير وميمون بن مِهران وغيرهم ، وأنه كان ٱبنه لصُلْبه . وقيل لسعيد بن جُبير يقول نوح : « إن ٱبنى من أهلى » أكان من أهله ؟ أكان ٱبنه ؟ فسبّح الله طو يلا ثم قال : لا إله إلا الله ! يحدّث الله محمدا صلى الله عليه وسـلم أنه ٱبنه ، وتقول إنه ليس ٱبنه ! نعم كان ٱبنه ؛ ولكن كان مخالفا فى النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : « إنه ليس من أهلك » ؛ وهذا

(١) البيت للخنساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها ؛ وهو من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا .

هو الصحيح فى الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به؛ وإن قوله : « إنه ليس من أهلك » ليس مما ينفى عنه أنه ٱبنه . وقوله : « فخانتاهما » يعنى فى الدِّين لا فى الفراش، وذلك أن هـذه كانت تخبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لها : نعم . قالت : فمتى ؟ قال : إذا فار التّنور؛ فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون ، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التّنور، فهذه خيانتها . وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف على ما سيأتى إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كَسْبا ، كما فى الخبر " أولادكم من كَسْبكم " . ذكره القشيرى .

الثالثـــة -- فى هـذه الآية تسلية للخلق فى فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . وروى أن ٱبن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطّاه، قال فعلم مالك أنه قد فهمه الناس؛ فقال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخـير خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الآبن من الأهل لغة وشرعا، ومن أهل البيت؛ فمن وصّى لأهـله دخل فى ذلك ٱبنه، ومن تضمنه منزلُه، وهو فى عياله . وقال تعالى فى آية أخرى . « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» فسمى جميع من ضمنه منزله من أهله .

الرابعـــة — ودلّت الآية على قول الحسن ومجاهـد وغيرهما أن الولد للفراش؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذا بظاهر الفراش . وقد روى سـفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسول الله صلى الله عليـه وسلم إنمـا قضى بالولد للفراش من أجل ٱبن نوح عليه السلام ؛ ذكره أبو عمر فى كتاب « التمهيد » . وفى الحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الولدُ للفراش وللعاهِر الحَجَر " يريد الخيبة . وقيل : الرّجم بالحجارة . وقرأ عُروة بن الزّبير « ونادى نوح ٱبنها » يريد ٱبن ٱمرأته، وهى تفسير القراءة المتقدّمة عنه وعن علىّ رضى الله عنه ، وهى حجة للحسن ومجاهد؛ إلا أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليها لهـا . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون، أو كراهية أن تكون من الجاهلين؛ أي الآثمين. ومنه قوله تعالى : « يَعِظُكُمُ اللهُ أن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا » أي يحذركم الله وينهاكم . وقيل : المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين؛ فقال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام، فشكر الله تذلله وتواضعه . ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط من السؤال. ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ أي بالتوبة . ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي أعمالا . فقال : « يا نوح اهبط بسلامٍ منا » .

قوله تعالى : قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ أي قالت الملائكة، أو قال الله تعالى له : اهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض؛ فقد ابتلعت الماءَ وجفّت . « بسلام منا » أي بسلامة وأمن . وقيل : بتحية . ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أي نعم ثابتة ؛ مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته وإقامته . ومنه البِركة لثبوت الماء فيها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نوح آدم الأصغر، بجميع الخلائق الآن من نسله ، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته؛ على قول قَتَادة وغيره، حسب ما تقدّم؛ وفي التنزيل « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ قيل : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة . ودخل في قوله : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كل كافر إلى يوم القيامة؛ روى ذلك عن محمد بن كعب . والتقدير على هذا : وعلى ذرية أمم ممن معك ، وذرية أمم سنمتعهم . وقيل : « مِن » للتبعيض، وتكون لبيان الجنس . « وأمم سنمتعهم » ارتفع « وأمم » على معنى وتكون أمم . قال الأخفش سعيد كما تقول : كلمت زيدا وعمرو جالس . وأجاز الفراء في غير القراءة وأمما ، وتقديره : ونمتّع أمما . وأعيدت « على » مع

« أمم » لأنه معطوف على الكاف من « عليك » وهي ضمير المجرور ، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره . وقد تقدم في « النساء »(١) بيان هذا مستوفى في قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ » بالخفض . والباء في قوله : « بسلام » متعلقة بمحذوف؛ لأنها في موضع الحال؛ أي اهبط مسلَّما عليك . و « منّا » في موضع جر متعلق بمحذوف؛ لأنه نعت للبركات . «وعلى أمم» متعلق بما تعلق به «عليك»؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف . و « من » في قوله « ممن معك » متعلق بمحذوف؛ لأنه في موضع جر نعت للأمم . و « معك » متعلق بفعل محذوف؛ لأنه صلة « لمن » أي ممن استقر معك ، أو آمن معك ، أو ركب معك .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أي تلك الأنباء؛ وفي موضع آخر « ذلك » أي ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك . ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ أي لتقف عليها . ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ ﴾ أي كانوا غير عارفين بأمر الطوفان؛ والمجوس الآن ينكرونه . وقيل: أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان على الجملة . ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أي اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار، كما صبر نوح على قومه . ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ ﴾ في الدنيا بالظفر ، وفي الآخرة بالفوز . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أى وأرسلنا ؛ فهو معطوف على « أرسلنا نوحا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم، وكانت القبيلة تجمعهم؛ كما تقول : ياأخاتميم . وقيل : إنما قيل له أخوهم لأنه من بنى آدم كما أنهم من بنى آدم ؛ وقد تقدّم هذا فى « الأعراف »[1] وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم عادان، عاد الأولى وعاد الأخرى، فهؤلاء هم الأولى ؛ وأما الأخرى فهو شدّاد ولقمان المذكوران فى قوله تعالى : « إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » . وعاد آسم

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

رجل ثم آستمر على قوم آنتسبوا إليه . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ ﴾ بالخفض على اللفظ، و « غيرُه » بالرفع على الموضع، و « غيرَه » بالنصب على الآستثناء . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ أى ما أنتم فى اتخاذكم إلهـا غيره إلا كاذبون عليه جل وعز .

قوله تعـالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ تقدّم معناه . والفِطرة آبتداء الخلق . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما جرى على قوم نوح لمـا كذّبوا الرسل .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ آسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدم أوّل السورة . ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة . ﴿ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير ؛ أى يرسل السماء بالمطر متتابعا يتلو بعضه بعضا؛ والعرب تحذف الهاء فى مِفعال على النسب ، وأكثر ما يأتى مِفعال من أَفعل، وقد جاء هاهنـا من فَعَل ؛ لأنه من درّت السماء تَدِر وتَدُر فهو مدرار . وكان قوم هود أعنى عادا أهـل بساتين وزروع وعمـارة، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقـدّم فى « الأعراف » (١) . ﴿ وَيَزِدْكُمْ ﴾ عطف على يرسل . ﴿ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ قال مجاهد : شدّة على شدّتكم . الضّحاك : خصبا إلى خصبكم . على بن عيسى : عزّا على عزّكم . عِكرمة : ولدا إلى ولدكم . وقيل : إن الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد؛ فقال لهم هود : إن آمنتم أحيي الله بلادكم ورزقكم المـال والولد ؛ فتلك القـوّة . وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النِّعم . ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أى لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أى حجة واضحة .﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إصرار منهم على الكفر .

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾ أى أصابك . ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا ﴾ أى أصنامنا . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ أى بجنون لسبِّك إياها، عن آبن عباس وغيره . يقـال : عراه الأمر واعتراه إذا ألَمّ به . ومنـه « وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْـتَرَّ » . ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِـدُ اللَّهَ ﴾ أى على نفسى .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

﴿ وَٱشْهَدُوا ﴾ أى وأشهدكم؛ لا أنهم كانوا أهـل شهادة، ولكنـه نهاية للتقرير؛ أى لتعرفوا ﴿ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أى من عبادة الأصنام التى تعبدونها . ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ أى أنتم وأوثانكم فى عداوتى وضرّى . ﴿ ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ أى لا تؤخرون . وهـذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى ، وهو من أعلام النبوّة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : « فَكِيدُونِي جَمِيعًا » . وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش، وقال نوح صلى الله عليه وسلم : « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » الآية .

قوله تعالى: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أى رضيت بحكمه، ووثقت بنصره. ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى نفس تدبّ على الأرض؛ وهو فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أى يصرفها كيف يشاء، ويمنعها مما يشاء؛ أى فلا تصلون إلى ضرّى . وكل ما فيه رُوح يقـال له دابّ ودابّة؛ والهـاء للمبالغة . وقال الفراء : مالكها ، والقادر عليها . وقال القتبىّ : قاهرها ؛ لأن من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه . وقال الضحاك : يحييهـا ثم يميتها ؛ والمعنى متقارب . والناصية قُصاص الشّعر فى مقـدم الرأس . ونَصوتُ الرجل أَنصوه نَصْوًا أى مددت ناصيته . قال ابن جريج : إنمـا خص الناصية ؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانا بالذّلة والخضوع؛ فيقولون : ما ناصية فلان إلا بيـد فلان؛ أى أنه مطيع له يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه والمنّ عليـه جزّوا ناصيته ليعرف بذلك فخرا عليه؛ فخاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم. وقال الترمذىّ الحكيم فى « نوادر الأصول» قوله تعالى : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » وجهه عندنا أن الله تعالى قدّر مقادير أعمال العبـاد ، ثم نظر إليها ، ثم خلق خلقه ، وقد نفذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن يخلقهم، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيهم؛ فذلك النور آخذ بنواصيهم، يجريهم إلى أعمالهم المقدّرة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سـنة " . ولهذا

قويت الرسل وصاروا من أولى العزم لأنهــم لاحظوا نور النواصى ، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال، فأوفرهم حظا من الملاحظة أقواهم فى العزم، ولذلك ما قوِى هود النبي صلى الله عليــه وسلم حتى قال : « فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » . وإنما سميت ناصية لأن الأعمال قد نصّت و برزت من غيب الغيب فصارت منصوصة فى المقادير، قد نفذ بصر الخــالق فى جميع حركات الخلق بقــدرة ، ثم وضعت حركات كل من دبّ على الأرض حيا فى جبهته بين عينيه، فسمى ذلك الموضع منه ناصية ؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدّر ؛ فالنــاصية مأخوذة بمنصوص الحركات التى نظر الله تعــالى إليها قبل أن يخلقهــا . ووصف ناصــية أبى جهل فقــال : « نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ » يخبر أن النواصى فيهــا كاذبة خاطئة؛ فعلى سبيل ما تأوّلوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ . ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال النحاس : الصّراط فى اللغة المنهاج الواضح ؛ والمعنى أن الله جلّ ثنــاؤه وإن كان يقدر على كل شى فإنه لا يأخذهم إلا بالحق . وقيــل : معناه لا خلل فى تدبيره، ولا تفاوت فى خلقه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فى موضع جزم؛ فلذلك حذفت منه النون، والأصل تتولوا، فحذفت التــاء لاجتماع تاءين . ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بمعنى قد بيّنت لكم . ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ أى يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه . «ويستخلِفُ» مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع ؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله : « فقد أبلغتكم » . وروى عن حفص عن عاصم « ويَستخلِفْ » بالجــزم حملا على موضع الفاء وما بعدها؛ مثل « ويَذَرْهُمْ[1] فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ أى بتــوليكم وإعراضكم . ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى لكل شىء حافظ . « على » بمعنى اللام؛ فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء .

---

(١) بالياء وسكون الراء قراءة؛ كما فى (فتح المقفلات) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا بهلاك عاد . ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى، و إن كانت له أعمال صالحة . وفى صحيح مسلم والبخارى وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وسلم " لن يُنجى أحدًا منكم عملُه " قالوا ولا أنت يارسول الله ؟! قال : " ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته " . وقيل : معنى « برحمة منا » بأن بيّنا لهم الهدى الذى هو رحمة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : ثلاثة آلاف . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى عذاب يوم القيامة . وقيل : هو الريح العقيم كما ذكر الله فى « الذاريات » وغيرها وسيأتى . قال القُشيرى أبو نصر : والعذاب الذى يتوعد به النبى أمته إذا حضر ينجى الله منه النبى والمؤمنين معه؛ نعم ! لا يبعد أن يبتلى الله نبيا وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصا للؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبى به .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ ابتداء وخبر . وحكى الكسائى أن من العرب من لا يصرف « عادا » فيجعله آسما للقبيلة . ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى كذّبوا بالمعجزات وأنكروها . ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ يعنى هودا وحده ؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه . ونظيره قوله تعالى : « يأيها الرسل كلوا من الطيباتِ » يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وحده؛ لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه ؛ و إنما جمع هذا لأن من كذّب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هودا والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أى آتبع سقاطُهم رؤساءهم . والجبار المتكبر . والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيد : العنِيد والعَنود والعانِد والمعانِد المعارض بالخلاف . ومنه قيل للعِرْق الذى ينفجر بالدم عانِد . قال الراجز :

* إنِّى كبيرٌ لا أطيقُ العُنَّدَا[1] *

قوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى أُلحقوها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمام على قوله : « ويوم القيامة » . ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا

---

(١) صدر البيت : * إذا رحلتُ فاجعلونى وَسَطَا *

رَبَّهُمْ ﴾ قال الفرّاء : أى كفروا نعمة ربهم ؛ قال : ويقال كَفَرته وكَفَرت به ، مثل شكرته وشكرت له . ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أى لا زالوا مبعدين عن رحمة الله . والبعد الهلاك . والبُعد التّباعد من الخير. يقال : بَعُد يَبعُد بُعْدا إذا تأخر وتباعد . وبَعِد يبعَد بَعَدًا إذا هلك ؛ قال :[1]

لا يَبعَدَنْ قومى الذين هُمُ * سَمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزُرِ

وقال النابغة :

فلا تَبعَدَنْ إنّ المنيةَ مَنْهَلٌ * وكلُّ آمرىء يومًا به الحالُ زائلُ

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أى أرسلنا إلى ثمود ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ أى فى النسب . ﴿ صَالِحًا ﴾. وقرأ يحيى بن وثاب « وَإِلَى ثَمُودٍ » بالتنوين فى كل القرآن؛ وكذلك روى عن الحسن . وآختلف سائر القرّاء فيه فصرفوه فى موضع ولم يصرفوه فى موضع . وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث . قال النحاس : الذى قال أبو عبيدة — رحمه الله — من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود؛ لأن ثمودا يقال له حىّ؛ ويقال له قبيلة، وليس الغالب عليه القبيلة، بل الأمر على ضدّ ما قال عند سيبويه . والأجود عند سيبويه فيما لم يُقل فيه بنو فلان الصّرف؛ نحو قريش وثقيف وما أشبههما، وكذلك ثمود، والعلة فى ذلك أنه لما كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى . والتأنيث جيد بالغ حسن . وأنشد سيبويه[2] فى التأنيث :

غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سَماحةً * وكَفَى قريشَ المعضلاتِ وسادَها

(١) تقدّم شرح البيت فى هامش ج ٦ ص ١٤ .

(٢) البيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك ؛ والشاهد فيه ترك صرف قريش حملا على معنى القبيلة ؛ والصرف فيها أكثر وأعرف لأنهم قصدوا بها قصد الحى ، وغلب ذلك عليها . (شواهد سيبويه) .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقـدّم .
﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى ابتدأ خلقكم من الأرض ، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدّم فى « البقرة »[1] و « الأنعام »[2] وهم منه . وقيل : أنشأكم فى الأرض . ولا يجوز إدغام الهاء من « غيره » فى الهـاء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو فى الإدراج .
﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى جعلكم عُمّارها وسكّانها . قال مجاهد : ومعنى « آستعمركم » أعمركم من قوله : أَعْمَـر فلان فلانا داره ؛ فهى له عُمْرى . وقال قَتَادة : أسكنكم فيها ؛ وعلى هذين القولين تكون آستفعل بمعنى أفعل ؛ مثـل آستجاب بمعنى أجاب . وقال الضّحاك : أطـال أعماركم، وكانت أعمـارهم من ثلثمائة إلى ألف . آبن عباس : أعاشكم فيها . زيد بن أسلم : أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بنـاء مساكن، وغرس أشجار . وقيل : المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثالثـة — قال آبن العربى: قال بعض علمـاء الشافعية : الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب؛ قال القاضى أبو بكر : تأتى كلمة استفعل فى لسان العرب على معان : منها؛ آستفعل بمعنى طلب الفعل كقوله : آستحملته أى طلبت منه حملانا؛ وبمعنى آعتقـد ، كقولهم : استسهلت هـذا الأمر آعتقدته سهلا، أو وجدته سهـلا ، وآستعظمته أى آعتقدته عظيما و وجدته ؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت، كقولهم : آستجدته أى أصبته جيـدا ؛ ومنهـا بمعنى فَعَـل ؛ كقوله : قرّ فى المكان وآستقرّ ؛ وقالوا وقوله : « يستهزئون » « ويستسخرون » منـه ؛ فقوله تعـالى : « استعمركم فيها » خلقكم لعمارتها، لا على معنى استجدته وآستسهلته ؛ أى أصبته جيدا وسهلا، وهذا يستحيل فى الخالق، فيرجع إلى أنه خلق ؛ لأنه الفائدة، وقد يعبر عن الشىء بفائدته مجازا ؛ ولا يصح أن يقال إنه طلبٌ من الله تعـالى لعمارتها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز فى حقه ، أما أنه يصح أن يقال أنه آستدعى

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عمارتها فإنه جاء بلفظ آستفعل، وهو آستدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمرا ، وطلب الفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة] [١] .

قلت : لم يذكر آستفعل بمعنى أفعل، مثل قوله : استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه [٢]؛ وهى :

الرابعة — ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول فى « البقرة » [٣] فى السُّكنى والرُّقْبى . وأما العُمْرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال : أحدها — أنها تمليك لمنافع الرقبة حياةَ المُعْمَر مدة عمره؛ فإن لم يذكر عقبا فمات المعمَر رجعت إلى الذى أعطاها أو لورثته؛ هذا قول القاسم بن محمد و يزيد بن قُسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد أقوال الشافعى ، وقد تقدّم فى «البقرة» حجة هذا القول . الثانى — أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهى هبة مبتولة [٤] ؛ وهو قول أبى حنيفة والشافعى وأصحابهما والثّورى والحسن بن حىّ وأحمد ابن حَنْبل وآبن شُبْرمة وأبى عُبيد ؛ قالوا : من أعمر رجلا شيئا حياته فهو له حياته، و بعد وفاته لورثته ؛ لأنه قد ملك رقبتها، وشرط المعطى الحياة والعمر باطل؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العمرى جائزة " و " العمرى لمن وُهبت له " . الثالث — إن قال عُمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأوّل ؛ و إن قال لعقبك كان كالقول الثانى ؛ و به قال الزهرىّ وأبو ثور وأبو سلَمة بن عبد الرحمن وابن أبى ذئب ، وقد روى عن مالك ؛ وهو ظاهر قوله فى الموطأ . والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعْمِر ؛ إذا انقرض عقب المُعْمَر ؛ إن كان المُعْمِر حيّا ، وإلا فإلى من كان حيّا من ورثته ، وأولى الناس بميراثه . ولا يملك المُعْمَر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شىء من الأشياء، وإنما يملك بلفظ العُمْرى المنفعة دون الرقبة . وقد قال مالك فى الحبس أيضا : إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه . و إن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه، وكذلك العُمْرى قياسا، وهو ظاهر الموطأ . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله

---

(١) الزيادة عن ابن العربى . (٢) راجع ج ١ ص ٢١٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع ج ١ ص ٢٩٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) مبتولة : ماضية غير راجعة إلى الواهب .

عليه وسلم قال : "أيّما رجلٍ أُعْمِر رجلًا عُمْرَى له ولعقبه فقال قد أعطيتُكَها وعقبَك ما بقى منكم أحد فإنها لمن أعطيها وأنها لا ترجع إلى صاحبها من أجلِ أنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث". وعنه قال : إن العمرى التى أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول: هى لك ولعقبك، فأما إذا قال: هى لك ما عِشتَ فإنها ترجع إلى صاحبها ؛ قال مَعْمَر : وبذلك كان الزّهرى يفتى .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثانى ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَٱستعمركم » بمعنى أعمركم ؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجميل والثناء الحسن ؛ وبالعكس الرجل الفاجر ؛ فالدنيا ظرف لهما حياة وموتا . وقد يقال : إن الثناء الحسن يجرى مجرى العقِب . وفى التنزيل : « وَٱجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلآخِرِينَ » أى ثناء حسنا . وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقال : «وجعلنا ذريته هم الباقين» وقال: «وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ» .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى سلوه المغفرة من عبادة الأصنام. ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أى ٱرجعوا إلى عبادته . ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ أى قريب الإجابة لمن دعاه. وقد مضى فى « البقرة »(1) عند قوله : « فإنى قريب أُجيب » القولُ فيه .

قوله تعالى : قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية .

بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ أى كنا نرجو أن تكون فينا سيّدا قبل هذا ؛ أى قبل دعوتك النبوّة . وقيل كان صالح يعيب آلهتهم ويشنؤها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجاؤنا منك . ﴿ أَتَنْهَانَا ﴾ استفهام معناه الإنكار . ﴿ أَنْ نَعْبُدَ ﴾ أى عن أن نعبد . ﴿ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فأن فى محل نصب بإسقاط حرف الجر . ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ ﴾ وفى سورة « إبراهيم » « وإنّا » والأصل وإنّنا ، فاستثقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا ﴾ الخطاب لصالح . وفى سورة « إبراهيم » « تدعوننا » لأن الخطاب للرسل . ﴿ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة . قال الهُذَلىّ (1) :

كنتُ إذا أتوتُه من غَيْبِ * يَشُمُّ عِطْفِى ويَبُزُّ ثَوْبِى (2)
* كأنّما أربتُه بِرَيْبِ *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ تقدّم معناه فى قول نوح . ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ استفهام معناه النفى ؛ أى لا ينصرنى منه إن عصيته أحد . ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أى تضليل وإبعاد من الخير ؛ قاله الفرّاء .

---

(1) هو خالد بن زهير الهذلىّ كما فى اللسان ؛ وصدر البيت الأوّل :

* يا قوم مالى وأبا ذؤيب *

(2) (يبز ثوبى) : يجذبه إليه .

والتخسير لهم لا له صلى الله عليه وسلم؛ كأنه قال : غير تخسير لكم لا لى . وقيل : المعنى ما تزيدوننى باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ نصب على الحال ، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه فى « هذه » . و إنما قيل ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل — على ما طلبوا — على أنهم يؤمنون . وقيل : أخرجها من صخرة صماء منفردة فى ناحيةِ الحِجْر يقال لها الكاثبة ، فلما خرجت الناقة — على ما طلبوا — قال لهم صالح : «هذه ناقة الله لكم آية» . ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ أمر وجوابه ؛ وحذفت النون من « فذروها » لأنه أمر . ولا يقال وذِرَ ولا وَاذِرٌ إلا شاذّ . وللنحويين فيه قولان ؛ قال سيبويه : استغنوا عنه بتَرَكَ . وقال غيره : لما كانت الواو ثقيلة وكان فى الكلام فِعل بمعناه لا واو فيه ألغوه ؛ قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز رفع « تأكل » على الحال والاستئناف . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا ﴾ جزم بالنهى . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ قال الفرّاء : بعَقر . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهى . ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أى قريب من عَقْرِها .

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ إنما عقرها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين . وقد تقدّم الكلام فى عقرها فى « الأعراف » (١) ويأتى أيضا . ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا ﴾ أى قال لهم صالح تمتعوا ؛ أى بنعم الله عز وجل قبل العذاب . ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ أى فى بلدكم، ولو أراد المنزل لقال فى دوركم . وقيل : أى يتمتع كل واحد منكم فى داره ومسكنه؛ كقوله : « يخرجكم طفلا » أى كل واحد طفلا . وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يتمتع بشىء؛ فعقرت يوم الأربعاء ، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد . و إنما أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثا على ما تقدّم فى « الأعراف » فاصفرّت ألوانهم فى اليوم الأوّل، ثم احمرّت فى الثانى ، ثم اسودّت فى الثالث، وهلكوا فى الرابع؛ وقد تقدّم فى « الأعراف » .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — استدل علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يُجمِع على إقامة أربع ليال قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة. وقد تقدّم في « النساء »[1] ما للعلماء فى هذا .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أى غير كذب . وقيل : غير مكذوب فيه .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ تقدّم . ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أى ونجيناهم من خزى يومئـذ ؛ أى من فضيحته وذلّته . وقيل : الواو زائدة ؛ أى نجيناهم من خزى يومئـذ . ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهـل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع « لما » و « حتى » لا غير . وقرأ نافع والكسائى « يَوْمَئِـذٍ » بالنصب . الباقون بالكسر على إضافة « يوم » إلى « إذ » . وقال أبو حاتم : حدّثنـا أبو زيد عن أبى عمـرو أنه قرأ « ومن خِزى يومئِذٍ » أدغم الياء فى الياء، وأضاف، وكسر الميم فى « يومئـذ » . قال النحاس : الذى يرويه النحويون — مثـل سيبويه ومن قاربه عن أبى عمرو فى مثل هذا — الإخفـاء؛ فأما الإدغام فلا يجوز ، لأنه يلتقى ساكنان، ولا يجوز ، كسر الزاى .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ أى فى اليوم الرابع صِـيح بهم فماتوا ؛ وذكّر لأن الصّيحة والصِّياح واحد . قيـل : صيحة جبريل . وقيل : صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شىء فى الأرض، فتقطعت قلوبهـم وماتوا . وقال هنا : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » وقال فى « الأعراف » « فأخذتهم الرجفة » وقد تقدّم بيانه هناك[2] . وفى التفسير : أنهم لمـا أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بغتـة ؟ ! قالوا : فمـا نصنع ؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعُدَدهم، وكانوا فيما يقال آثنى عشر ألف قبيـلة، فى كل قبيـلة آثنا عشر ألف مقاتل ، فوقفوا على الطرق والفِجاج ، زعموا يلاقون العـذاب؛ فأوحى الله تعـالى إلى الملَك الموكل بالشمس أن يعـذبهم بحرّها،

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٢ طبعة أولى أو ثانية .

فأدناها من رءوسهم فاشتوت أيديهم، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش، ومات كل ما كان معهم من البهائم . وجعـل المـاء يتفور من تلك العيون من غليـانه حتى يبلغ السماء، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدّة حره ، فمـا زالوا كذلك، وأوحى الله إلى ملك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيبا لهم إلى أن غربت الشمس ؛ فصيح بهم فأهلكوا . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أى ساقطين على وجوههم، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت . ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ هـذه قصة لوط عليه السلام، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام لَحًّا (١)، وكانت قرى لوط بنواحى الشام، و إبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنـده يحسن قِراه، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافا . وهم جبريل وميكائيل و إسرافيل عليهم السـلام؛ قاله ابن عباس . الضّحاك : كانوا تسعة . السّدى : أحد عشر مَلَكا على صورة الغلمان الحسان الوجوه، ذوو وضاءة و جمال بارع . ﴿ بِالْبُشْرَى ﴾ قيـل : بالولد . وقيـل : بإهلاك قوم لوط . وقيـل : بشروه بأنهـم رسـل الله عز وجل، وأنه لا خوف عليه . ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ نصب بوقوع الفعل عليه؛ كما تقول : قالوا خيرا . وهذا اختيار الطّبرىّ . وأما قوله : « سَيقولون ثلاثةٌ » فالثلاثة اسم غير مقول . ولو رفعا جميعا

(١) أى لازق النسب منه .

أو نصبا جميعا « قالوا سلاما قال سلام » جاز فى العربية . وقيل : آنتصب على المصدر . وقيل : «قالوا سلاما » أى فاتحوه بصواب من القول . كما قال : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » أى صوابا؛ فسلاما معنى قولهم لا لفظه؛ قال معناه آبن العربى" وآختاره . قال : ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبرا عن الملائكة : « سلام عليكم بما صبرتم » « سلام عليكم طِبتم » . وقيل : دَعَوا له ؛ والمعنى سَلِمت سَلاماً . ﴿ قال سلام ﴾ فى رفعه وجهان : أحدهما — على إضمار مبتدأ أى هو سلام ، وأمرِى سلام . والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر . وجاز سلام على التنكير لكثرة استعماله ، فحذف الألف واللام كما حذفت من لا هم فى قولك اللهم . وقرئ « سِلْمٌ » قال الفرّاء : السّلم والسّلام بمعنى؛ مثل الحِلّ والحلال .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فيه أربع عشرة مسئلة[1] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ ﴾ « أن » بمعنى حتى ، قاله كبراء النحويين ؛ حكاه آبن العربى" . التقدير : فما لبث حتى جاء . وقيل : « أن » فى موضع نصب بسقوط حرف الجر؛ التقدير : فما لبث عن أن جاء ؛ أى ما أبطأ عن مجيئه بعجل ؛ فلما حذف حرف الجر بقى « أن » فى محل النصب . وفى « لبث » ضمير آسم إبراهيم . و « ما » نافية ؛ قاله سيبويه . وقال الفراء : فما لبث مجيئه ؛ أى ما أبطأ مجيئه ؛ فأن فى موضع رفع ، ولا ضمير فى « لبث » ، و « ما » نافية؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذى ، وفى « لبث » ضمير إبراهيم و « أن جاء » خبر « ما » أى فالذى لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ . و « حنيذ » مشوى" . وقيل : هو المشوى بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النار . يقال : حنذت الشاة أحنِذها حنذا أى شويتها ، وجعلت فوقها حجارة مُحْمَاة لتنضجها فهى حنيذ . وحَنَذت الفرس أحنِذه حَنْذا ، وهو أن تُحضِره شوطا أو شوطين ثم تُظاهِر عليه الجلال فى الشمس ليعرَق ، فهو محنوذ وحنيذ ؛ فإن لم يعرق قيل كَبَا . وحَنَذٌ موضع قريب

(١) كذا فى الأصل والمسائل المذكورة هى فى آية ٧٠ و ٧١ أيضا لا فى هذه الآية فحسب .

من المدينـة (١) . وقيل : الحنيذ السّميط . ٱبن عباس وغيره : حنيذ نضيج . وحنيذ بمعنى محنوذ، و إنما جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .

الثانيــة — فى هـذه الآية من أدب الضّيف أن يُعجّل قِراه ، فيقدّم الموجود الميسّر فى الحـال، ثم يتبعه بغـيره إن كان له جِدَة ، ولا يتكلف ما يضرّ به . والضّيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيّين والصالحين . و إبراهيم أوّل من أضاف على ما تقدّم فى « البقرة » (٢) وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : ” الضّيافة ثلاثة أيامٍ وجائزته يوم وليلة فما كان و راء ذلك فهو صدقة “ . والجائزة العطية والصلة التى أصلها على النّدب . وقال صلى الله عليه وسلم : ” من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه “ . و إكرام الجار ليس بواجب إجماعا ، فالضيافة مثله . والله أعلم . وذهب الليث إلى وجوبها تمسكا بقوله صلى الله عليـه وسلم : ” ليـلة الضّيف حقّ “ إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيما أشرنا إليـه كفاية، والله الموفق للهداية . قال ٱبن العربىّ : وقد قال قوم : إن وجوب الضِّيافة كان فى صـدر الإسلام ثم نسخ ، وهـذا ضعيف؛ فإن الوجوب لم يثبت، والناسخ لم يرِد ؛ وذكَر حديث أبى سعيد الخـدرىّ خرجه الأئمة، وفيه : « فٱستضفناهم فأبوا أن يُضيِّفونا فلُدِغ سيّد ذلك الحىّ» الحديث . وقال هذا ظاهر فى أن الضيافة لو كانت حقا للاَمَ النبىّ صلى الله عليه وسلم القوم الذين أَبَوا، ولَبيَّن لهم ذلك .

الثالثــة — اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعى ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال سُحْنون : إنما الضّيافة على أهل القُرى ، وأما الحضر فالفُنْـدق ينزل فيه المسافر . واحتجوا بحديث ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”الضّيافة على أهل الوَبَر وليست على أهل المَدَر“ . وهذا حديث لا يصح، و إبراهيم ٱبن أخى عبد الرزاق متروك الحديث منسوب

---

(١) وحنذ موضع قريب من مكة أيضا .   (٢) راجع جـ ٢ ص ٩٨ طبعة ثانية .

إلى الكذب ، وهذا مما آنفرد به ، ونسب إلى وضعه ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . قال آبن العربي : الضّيافة حقيقة فرض على الكفاية ، ومن الناس من قال : إنها واجبة في القُرى حيث لا طعام ولا مأوى ، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات ؛ ولا شك أن الضّيف كريم ، والضيافة كرامة ؛ فإن كان غريبا فهي فريضة .

الرابعة — قال آبن العربي : قال بعض علمائنا : كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب ، وهذا حكم بالظن في موضع القطع ، وبالقياس في موضع النقل ؛ من أين علم أنه قليل ؟ ! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة ؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل صلى الله عليهم وسلم ؛ وعجل الثلاثة عظيم ؛ فما هذا التفسير لكتاب الله بالرأي ؟ ! هذا بأمانة الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه .

الخامسة — السنة إذا قُدِّم للضّيف الطعام أن يبادر المقدَّم إليه بالأكل ؛ فإن كرامة الضّيف تعجيل التقديم ، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول ؛ فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم ؛ لأنهم خرجوا عن العادة ، وخالفوا السنة ، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه . وروى أنهم كانوا ينكُتون بقِداح [1] كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم ، فلما رأى ذلك منهم « نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » أي أضمر . وقيل : أحسّ ؛ والوجوس الدخول ؛ قال الشاعر :

جاء البريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ بهِ * فأوجسَ القلبُ من قرطاسه جَزَعَا

« خيفة » خوفا ؛ أي فزعا . وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرا ؛ فقالت الملائكة ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

السادسة — من أدب الطعام أن لصاحب الضّيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا ؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر . روى أن أعرابيا أكل مع

(١) قداح (جمع قدح بالكسر) : السهم قبل أن ينصل ويراش .

سليمان بن عبد الملك ، فرأى سليمان فى لقمة الأعرابى شعرة فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك ؛ فقال له : أتنظر إلىّ نظر من يرى الشّعرة فى لقمتى ؟! والله لا أكلت معك .

قلت : وقد ذُكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان ،وأن الأعرابى خرج من عنده وهو يقول :

وَلَلموتُ خيرٌ من [زيارة](١) باخل * يُلاحظُ أطرافَ الأَكيلِ على عَمْدِ

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول أنكرهم ؛ تقول : نَكِرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته ؛ قال الشاعر(٢) :

وأَنكرتنى وما كان الذى نَكِرتْ * من الحوادثِ إلا الشّيبَ والصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين . ويقال : نَكِرت لما تراه بعينك . وأنكرت لما تراه بقلبك .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ ابتداء وخبر، أى قائمة بحيث ترى الملائكة . قيل : كانت من وراء الستر . وقيل : كانت تخدم الملائكة وهو جالس . وقال محمد بن إسحق : قائمة تصلى . وفى قراءة عبد الله بن مسعود « وآمرأته قائمة وهو قاعد » .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ قال مجاهد وعِكرمة : حاضت ، وكانت آيسة ؛ تحقيقا للبشارة ؛ وأنشد على ذلك اللغويون :

وإنى لآتى العِرسَ عند طُهورها * وأهجرُها يومًا إذا تكُ ضاحِكَا

وقال آخر :

وضِحكُ الأرانبِ فوق الصَّفَا * كمثلِ دمِ الجوفِ يوم اللِّقَا

والعرب تقول : ضحكت الأرنب إذا حاضت ؛ وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعِكرمة ؛ أخذ من قولهم : ضحِكت الكافورة — وهى قشرة الطلعة — إذا انشقّت . وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحِكت بمعنى حاضت . وقال الجمهور : هو الضحك المعروف ، واختلفوا فيه ؛ فقيل : هو ضحك التعجّب ؛ قال أبو ذؤيب :

---

(١) كذا فى العقد الفريد ، وفى الأصول (يسارة) . (٢) البيت للأعشى .

فجـاءَ بمزجٍ لم يَرَ الناسُ مثـلَه * هو الضَّحْكُ[(١)] إلا أنه عملُ النَّحْلِ

وقال مقاتل : ضحكت من خوف إبراهيم ، ورِعدته من ثلاثة نفر ، وإبراهيم فى حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقـوّم وحده بمـائة رجل . قال : وليس الضحك الحيض فى اللغـة بمستقيم . وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء : لم أسمعه من ثقة ؛ وإنمـا هو كناية . وروى أن الملائكة مسحت العجل، فقام من موضعه فلحق بأمه ، فضحكت سارة عنـد ذلك فبشّروها بإسحق . ويقال : كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله : « وٱمرأته قائِمة » أى قائمة فى خدمتهم . ويقال : « قائِمة » لروع إبراهيم « فضحِكت » لقـولهم : « لا تخف » سرورا بالأمن . وقال الفراء : فيه تقـديم وتأخير؛ المعنى : فبشرناها بإسحق فضحكت ؛ أى ضحكت سرورا بالولد ، وقد هرِمت ؛ والله أعلم أىّ ذلك كان . قال النحاس فيه أقوال : أحسنها — أنهم لمـا لم يأكلوا أنكرهم وخافهم؛ فلمـا قالوا لاتخف ، وأخبروه أنهم رُسُل، فرح بذلك، فضحكت ٱمرأته سرورا بفرحه . وقيل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سـينزل بهم عذاب فضم لوطا إليك ، فلما جاءت الرسـل بما قالته سرّت به فضحكت؛ قال النحاس : وهـذا إن صح إسناده فهو حسن . والضحك ٱنكشاف الأسنان . ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه ؛ تقول : رأيت فلانا ضاحكا؛ أى مشرقا ، وأتيت على رَوْضة تضحك؛ أى مشرقة . وفى الحديث "إن الله يبعث السّحاب فيضحك أحسنَ الضَّحِك" . جعل ٱنجلاءه عن البرق ضَحِكا؛ وهذا كلام مستعار . وروى عن رجل من قرّاء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابى «فضَحَكت» بفتح الحاء؛ قال المهدوى : وفتح «الحاء» من «فضحكت» غير معروف . وضَحِك يَضحَك ضَحْكا وضِحْكا وضِحِكا [وضَحِكا][(١)] أربع لغات . والضَّحْكة المرّة الواحدة، ومنه قول كُثيّر :

* غَلِقت لضَحْكتِه رقابُ المـالِ[(٢)] *

قاله الجوهرى :

(١) وفسر الضحك هنا بالعسل أو الشهد . راجع اللسان مادة (ضحك) .　　(١) الزيادة عن كتب اللغة .

(٢) صدر البيت : * غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا *

العـاشرة – روى مسلم عن سهل بن سعد قال : دعا أبو أُسَيد الساعدىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عُرْسه، فكانت آمرأته يومئذ خادمهم وهى العَروس . قال سهل : أتدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أنقعت له تمراتٍ من الليل فى تَوْرٍ(١)، فلما أكل ســقته إياه . وأخرجه البخارىّ وترجم له « باب قيام المرأة على الرجال فى العُرْس وخدمتهم بالنفس » . قال علماؤنا : فيـه جواز خدمة العَروس زوجها وأصحابه فى عُرْسها . وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه، ويسـتخدمهنّ لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحِجاب . والله أعلم .

الحـادية عشرة – ذكر الطبرىّ أن إبراهيم عليه السلام لـما قدّم العجل قالوا: لا نأكل طعاما إلا بثمن؛ فقال لهم : « ثمنه أن تذكروا الله فى أوله وتحمدوه فى آخره » فقـال جبريل لأصحابه : بحقٍّ آتخذ الله هذا خليلا . قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأنّ الملائكة لا تأكل . وقد كان من الجائز كما يَسَّر الله للملائكة أن يتشكّلوا فى صفة الآدمى جسدا وهيئـة أن ييسّر لهم أكل الطعام؛ إلا أنه فى قول العلماء أرسلهم فى صفة الآدمى وتكلّف إبراهيم عليه السلام الضيافة [حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى بغتة](٢) .

الثانيـــة عشرة – ودلّ هذا على أن التسمية فى أوّل الطعام، والحمد فى آخره مشروع فى الأمم قبلنا؛ وقد جاء فى الإسرائيليات أن إبرهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه، فلقى يوما رجلا، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم : سمّ آلله، قال الرجل لا أدرى ما آلله؟ فقال له : فاخرج عن طعامى، فلـما خرج نزل إليـه جبريل فقال له يقول الله : إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة؛ فخرج إبراهيم فزعا يجرّ رداءه ، وقال : آرجع، فقـال : لا أرجع حتى تخبرنى لم تردّنى لغير معنى؟ فأخبره بالأمر؛ فقال : هذا رب كريم، آمنت؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمنا .

---

(١) التور : إناء تشرب فيه العرب ، وقد يتوضأ منه ؛ ويصنع من صفر أو حجارة .

(٢) الزيادة عن ابن العربى .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ ﴾ لما ولد لإبراهيم إسمعيل من هاجر تمنّت سارّة أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبيا و يلد نبيا ، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر « يعقوبَ » بالنصب . ورفع الباقون ؛ فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراء إسحق يعقوبُ . ويجوز أن يرتفع بالفعل الذى يعمل فى « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراء إسحق يعقوبُ . ويجوز أن يرتفع بالابتداء، ويكون فى موضع الحال؛ أى بشّروها بإسحق مقابلا له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحق يعقوبَ . وأجاز الكسائى والأخفش وأبو حاتم أن يكون «يعقوب» فى موضع جرّ على معنى : وبشرناها من وراء إسحق بيعقوب . قال الفرّاء : ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض؛ قال سيبويه ولو قلت : مررت بزيد أول من أمس وأمس عمرٍو(١) كان قبيحا ؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو، كما تفرق بين الجار والمجرور ؛ لأن الجارّ لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ قال الزجاج : أصلها يا ويلتى؛ فأبدل من الياء ألف، لأنها أخفّ من الياء والكسرة؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه؛ وعجبت من ولادتها وكون بعلها شيخا لخروجه عن العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر . و﴿ أَأَلِدُ ﴾ استفهام معناه التعجب . ﴿ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ أى شيخة . ولقد عَجَزت تَعجِزُ عَجْزا وعجَّزت تعجيزا؛ أى طعنت فى السنّ .

(١) والوجه عنده (وأمس بعمرو) .

وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجِزت المرأة بكسر الجيم ؛ عظمت عجيزتها عُجْزا وعَجَزا بضم العين وفتحها . قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحق : كانت بنت تسعين. وقيل غير هذا .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي ﴾ أى زوجى . ﴿ شَيْخًا ﴾ نصب على الحال ، والعامل فيه التنبيه أو الأشارة . « وهـذا بعلى » ٱبتداء وخبر . وقال الأخفش : وفى قراءة ٱبن مسعود وأبىّ « وهذا بعلى شيخ » قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم؛ فزيد بدل من هذا ، وقائم خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدأ « وزيد قائم » خبرين؛ وحكى سيبويه : هذا حلوٌ حامضٌ . وقيل : كان إبراهيم ٱبن مائة وعشرين سنة. وقيل : ٱبن مائة؛ فكان يزيد عليها فى قول مجاهد سنة . وقيل: إنها عرّضت بقولها : « وهذا بعلى شيخا » أى عن ترك غِشْيانه لها . وسارّة هذه ٱمرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ ،وهى بنت عمّ إبراهيم . ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أى الذى بشرتمونى به لشىء عجيب .

قوله تعالى : قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ لما قالت : « وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » وتعجبت أنكرت الملائكة عليها تعجّبها من أمر الله ، أى من قضائه وقـدره ؛ أى لا عجب من أن يرزقكما الله الولد، وهو إسحق . وبهذه الآية ٱستدلّ كثير من العلماء على أن الذّبيح إسمعيل ، وأنه أسنّ من إسحق ؛ لأنها بشّرت بأن إسحق يعيش حتى يولد له يعقوب . وسيأتى الكلام فى هذا ؛ وبيانه فى « الصّافّات »(١) إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ معــه السعى » آية ١٠٢ إلى قوله تعالى : « ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » آية ١١٣ .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ . وحكى سيبويه « عليكم » بكسر الكاف لمجاورتها الياء . وهل هو خبر أو دعاء؟ وكونه إخبارا أشرف؛ لأن ذلك يقتضى حصول الرحمة والبركة لهم ؛ المعنى : أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت . وكونه دعاء إنما يقتضى أنه أمر يترجّى ولم يتحصّل بعد . ونصب « أهل البيت » على الاختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه . وقيل على النداء .

الثالثــة — هذه الآية تعطى أن زوجة الرجل من أهل البيت؛ فدل هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت ؛ فعائشة رضى الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم؛ ممن قال الله فيهم : « وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »[1] وسيأتى .

الرابعــة — ودلّت الآية أيضا على أنّ منتهى السلام « وبركاته » كما أخبر الله عن صالحى عباده « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » . والبركة النمو والزيادة؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة . وروى مالك عن وهب بن كَيْسان عن أبى نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالسا عند عبد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ثم زاد شيئا مع ذلك؛ فقال ابن عباس — وهو يومئذ قد ذهب بصره — مَن هذا ؟ فقالوا اليمانىّ الذى يغشاك؛ فعرّفوه أياه ، فقال : إن السلام انتهى إلى البركة . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : دخلت المسجد فإذا أنا بالنبى صلى الله عليه وسلم فى عصبة من أصحابه ، فقلت : السلام عليكم ؛ فقال : "وعليك السلام ورحمة الله عشرون لى وعشر لك" . قال : ودخلت الثانية؛ فقلت : السلام عليكم ورحمة الله فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وعشرون لك" . فدخلت الثالثة فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وثلاثون لك أنا وأنت فى السلام سواء" . ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أى محمود ماجد . وقد بيناهما فى « الأسماء » .

---

(١) فى آية ٣٣ من سورة « الأحزاب » .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أى الخوف؛ يقال : ٱرتاع من كذا إذا خاف؛ قال النابغة :

فارتاعَ من صَـوْتِ كَلّابٍ[1] فبـاتَ لهُ * طوعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

﴿ وَجَاءَتْهُ ٱلْبُشْرَى ﴾ أى بإسحق و يعقوب . وقال قَتَادة : بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط، وأنه لا يخاف . ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ أى يجادل رسلنا، وأضاف إلى نفسه، لأنهم نزلوا بأمره . وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جُنْدب عن حُذَيفة؛ وذلك أنهم لما قالوا : « إنا مهلكو أهل هـذه القرية » قال لهم : أرأيتم إن كان فيهـا خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا . قال : فأر بعون؟ قالوا : لا . قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا . قال : فعشرون؛ قالوا : لا . قال : فإن كان فيهـا عشرة — أو خمسة شك حميـد — قالوا : لا قال قتادة : نحوا منـه ؛ قال فقال يعنى إبراهيم : قوم ليس فيهـم عشرة من المسلمين لا خير فيهم . وقيل إن إبراهيم قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عنـد ذلك : « إنّ فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهـله إلا ٱمرأته كانت من الغابرين» . وقال عبد الرحمن بن سَمُرة : كانوا أر بعمائة ألف . ٱبن جريج : وكان فى قرى قوم لوط أر بعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكسائى أنّ «يجادلنا» فى موضع « جادلنا » . قال النحاس : لما كان جواب «لمّا» يجب أن يكون بالماضى جعل المستقبل مكانه؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل المـاضى مكانه . وفيه جواب آخر — أن يكون « يجادلنا » فى موضع الحال ؛ أى أقبل يجادلنا؛ وهذا قول الفراء . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

(١) الكلاب : صاحب الكلاب . يصف الشاعر ثورا وحشيا بأنه بات من الخوف الذى أدركه ، والبرد الذى أصابه مبيت سوء، ومبيته على ذلك الحال يسر أعداءه .

﴿أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ تقـدّم فى « براءة »(١) معنى « لأوّاه حليم » . والمنيب الراجع ؛ يقال : أناب إذا رجع . و إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان راجعا إلى الله تعالى فى أموره كلها . وقيل : الأوّاه المتأوّه أسفا على ما قد فات قوم لوط من الإيمان .

قوله تعـالى : ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ أى دع عنك الجدال فى قوم لوط . ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أى عذابه لهم . ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ﴾ أى نازل بهم . ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أى غير مصروف عنهم ولا مدفوع .

قوله تعـالى : وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

قوله تعـالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم ، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط — وهما تستقيان — بالملائكة

(١) تفسير آية ١١٤ .

ورأتا هيئة حسنة، فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية. قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش، فقالوا: أبها من يضيفنا؟ قالتا: نعم! هـذا الشيخ، وأشارتا إلى لوط، فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم. ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أى ساءه مجيئهم، يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساءه يسوءه فهو متعد أيضا، وإن شئت ضممت السين، لأن أصلها الضم، والأصل سُوِئَ بهم من السّوء، قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت: «سِيَ بِهِم» مخففا، ولغة شاذة بالتشديد. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أى ضاق صدره بمجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته. وأصله أن يَذْرَع البعيرُ بيديه فى سيره ذَرْعا على قدر سَعة خَطْوِه، فإذا حُمِل على أكثر من طَوْقه ضاق عن ذلك، وضعف ومدّ عنقــه، فضيق الذّرع عبارة عن ضيق الوُسع. وقيل هو من ذَرَعه القىء أى غلبه، أى ضاق عن حبسه المكروه فى نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم، وما يعلم من فسق قومه. وقال: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أى شديد فى الشر. وقال الشاعر:

وإنّكَ إلّا تُرضِ بكرَ بن وائلٍ * يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصِيبُ

وقال آخـــر:

يومٌ عصِيبٌ يَعصِبُ الأبطالَا * عَصْبَ القَــوِىّ السَّلَمَ الطّوالَا

ويقال: عصِيبٌ وعَصَبْصَبٌ على التكثير، أى مكروه مجتمع الشر وقد عصب، أى عصب بالشر عِصابة، ومنه قيل: عُصبة وعِصابة أى مجتمعو الكلمة، أى مجتمعون فى أنفسهم. وعَصَبة الرجل المتجمعون معه فى النسب، وتعصّبت لفلان صرت كعصبته، ورجل معصوب، أى مجتمع الخَلْق.

قوله تعـالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ فى موضع الحال. «يُهرعون» أى يسرعون. قال الكسائى والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رِعدة، يقال: أُهْرِع الرجل إهراعا أى أسرع فى رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمّى، وهو مُهرَع، قال مُهلهِل:

فجاءوا يُهرَعون وهُــمْ أسارَى * تَقودُهــمُ عــلى رَغْــمِ الأنوفِ

وقال آخــر :

* بمعجَلاتٍ نحْــوه مَهــارِع *

وهــذا مثل : أولِــع فلان بالأمر ، وأُرعِد زيد، وزُهِى فلان . وتجيء ولا تستعمل إلا على هذا الوجه . وقيل: أهرِع أى أهرعه حِرصُه؛ وعلى هذا « يُهرعون » أى يُستحثّون عليــه . ومن قال بالأول قال : لم يسمع إلا أهرِع الرجُل أى أسرع؛ على لفظ ما لم يسمّ فاعله . قال آبن القوطيّــة : هُرِع الإنسان هَرَعا ، وأُهرِع : سِيق وآستعجِل . وقال الهروىّ يقال : هُرِع الرجُل وأهرِع أى آستُحِثّ . قال آبن عباس وقتَادة والسدّىّ : « يُهرعون » يهرولون . الضّحاك : يَسعون . آبن عُيينة : كأنهم يدفعون . وقال شِمر بن غطية : هو مشى بين الهرولة والجَمَزى . وقال الحسن : مشىٌ بين مشيين؛ والمعنى متقارب . وكان سبب إسراعهم ماروى أن آمرأة لوط الكافرة،لما رأت الأضياف و جمالهم وهيئتهم، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلة فِتية ما رؤى مثلهم جمالا ، وكذا وكذا؛ فحينئذ جاءوا يهرعون إليه . و يذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطا فى حرث له . وقيــل : وجدوا آبنته تستقى ماء فى نهر سَدوم ؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط،وقالت لهم : مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته ؛ فخرج إليهم؛ فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة؛ فقال لهم : أوما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم فى الأرض — وقد كان الله عز وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات — فلما قال لوط هذه المقالة، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردّد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعالى : ﴿ ومِنْ قَبل ﴾ أى ومن قبل مجىء الرسل . وقيل : من قبل لوط . ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى كانت عادتهم إتيان الرجال . فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا أضيافه

قام إليهـم لوط مدافعا ، وقال : ﴿ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ ٱبتداء وخبر . وقد اختلف فى قوله : « هؤلاءِ بنـاتِى » فقيل : كان له ثلاث بنات من صُلبه . وقيل : بنتان ؛ رثيا و زعوراء ؛ فقيل : كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ٱبنتيه . وقيل : ندبهم فى هذه الحالة إلى النكاح ، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة ؛ وقد كان هذا فى أول الإسـلام جائزا ثم نسخ ؛ فزوج رسول الله صـلى الله عليه وسلم بِنتا له من عُتْبَة بن أبى لهب ، والأخرى من أبى العاص بن الربيع قبل الوحى ، وكانا كافرين . وقالت فرقة ـ منهم مجاهد وسعيد بن جُبير ـ أشار بقوله : « بناتِى » إلى النسـاء جملة ؛ إذ نبيّ القوم أب لهم ؛ و يقوى هذا أن فى قراءة ٱبن مسـعود « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسِهِم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » . وقالت طائفة : إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضـاءه ؛ روى هذا القول عن أبى عبيدة ؛ كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير : الخنزير أحل لك من هـذا . وقال عِكرمة : لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته ، و إنمـا قال لهم هذا لينصرفوا .

قوله تعـالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ٱبتداء وخبر ؛ أى أزوجكموهن ؛ فهو أطهر لكم مما تريدون ، أى أحلّ . والتطهّر التنزّه عما لا يحل . وقال ٱبن عباس : كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم ، وأراد ذلك اليوم أن يفدى أضيافه ببناته . وليس ألِف « أطهر » للتفضيل حتى يتوهم أن فى نكاح [الرجال][1] طهارة ، بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجل ، و إن لم يكن تفضيلا ؛ وهذا جائز شائع فى كلام العرب ، ولم يكابر الله تعالى أحد حتى يكون الله تعالى أكبر منه . وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أحد : ٱعْلُ هُبَلُ ٱعْلُ هُبَلَ[2] ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر : " قل الله أعلى وأجلّ ". وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا . وقرأ العامة برفـع الراء . وقرأ الحسـن وعيسى بن عمرو « هُنَّ أطهرَ » بالنصب على الحال . و « هن » عِماد . ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون « هن » هاهنا عمادا ، وإنما يكون عمادا فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ، لتدل بها على أن الأخ ليس بنعت .

(١) فى الأصل (النساء) وهو تحريف . (٢) أى أظهر دينك .

قال الزّجاج : ويدل بهـا على أن كان تحتاج إلى خبر . وقال غيره : يدل بهـا على أن الخبر معرفة أو ما قاربها .

قوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أى لا تهينونى ولا تذلّونى . ومنه قول حسان :

فأخزاكَ ربى يا عُتيبَ بن مالك * ولقّاك قبل الموت إحدى الصَّواعقِ

مددتَ يمينًا للنبىّ تعمُّدًا * ودَمَّيْتَ فاهُ قُطِّعتْ بالبَـوارق

ويجوز أن يكون من الخَزَاية؛ وهو الحياء ، والخجل ؛ قال ذو الرُّمة :

خَزَايةً [1] أَدركتْـهُ بعـدَ جَوْلَتِهِ * من جانبِ الحَبْلِ مخلوطًا بها الغضبُ

وقال آخــر :

من البيضِ لا تَخزَى إذا الريحُ أَلصقتْ * بهـا مِرْطَها أو زايلَ الحَلْىُ جِيدَهَا

وضيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد؛ لأنه فى الأصل مصدر ؛ قال الشاعر :

لا تَعـدمى الدهرَ شِـفار الجازِرِ * للضَّـيفِ والضـيفُ أحقّ زائر

ويجوز فيـه التثنية والجمع؛ والأول أكثر كقولك : رجالٌ صَوْمٍ وفِطر وزَوْرٍ . وخَزى الرجلُ خَزايةً ؛ أى ٱستحيا مثـل ذَلّ وهان . وخَزِى خِزْيًا إذا افتضح ؛ يَخْزَى فيهما جميعا . ثم وبخهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أى شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقيل : « رشيد » أى ذو رَشَـد . أو بمعنى راشـد أو مرشِد، أى صالح أو مصلِح . ٱبن عباس : مؤمن . أبو مالك : ناه عن المنكر. وقيل : الرشيد بمعنى الرّشَد؛ والرَّشَد والرَّشاد الهدى والاستقامة . ويجوز أن يكون بمعنى المرشد؛ كالحكيم بمعنى المحكِم .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ روى أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم ، وكانت سنتهم أن من رُدّ فى خِطبـة ٱمرأة لم تحل له أبدا ؛ فذلك قوله تعالى :

(١) (خزاية) أى من الخزاية . والحبل هو حبل الرمل . والكلام فى وصف ثور وحشى تطارده الكلاب . وقبله :

حتى إذا دوّمت فى الأرض راجعـه * كبر ولو شاء نجى نفســه الهرب

يعنى أن الثور أنف من الهرب فرجع إلى الكلاب .

« قالوا لقد علمتَ ما لنا فى بناتك مِن حقٍّ » وبعد ألّا تكون هذه الخاصيّة فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق ، ولا هنّ قصدنا ، ولا لنا عادة نطلب ذلك . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إشارة إلى الأضياف .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ لما رأى استمرارهم فى غيهم ، وضعف عنهم ، ولم يقدر على دفعهم ، تمنى لو وجد عونا على ردهم ؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة : «لو أن لِى بِكم قوة» أى أنصارا وأعوانا . وقال ابن عباس : أراد الولد . و «أنّ» فى موضع رفع بفعل مضمر، تقديره : لو اتفق أو وقع . وهذا يطرد فى « أن » التابعة لـ«لو» . وجواب «لو» محذوف ؛ أى لرددت أهل الفساد ، وحِلت بينهم وبين ما يريدون . ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أى ألجأ وأنضوى . وقرئ « أو آوىَ » بالنصب عطفا على « قوة » كأنه قال : لو أن لى بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد ؛ أى وأن آوى ؛ فهو منصوب بإضمار «أن» ومراد لوط بالركن العشيرة ، والمنعة بالكثرة . وبلغ به قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى ؛ فيروى أن الملائكة وَجَدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركنك لشديد . وفى البخارىّ عن أبى هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد " الحديث ؛ وقد تقدّم فى « البقرة »[(١)] . وخرجه الترمذىّ وزاد " ما بعث الله بعده نبيّا إلا فى ثروة من قومه ". قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة ؛ حديث حسن . ويروى أن لوطا عليه السلام لما غلبه قومه ، وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه ، قالت له الرسل : تنحّ عن الباب ؛ فتنحّى وانفتح الباب ؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، وعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء ؛ قال الله تعالى : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم »[(٢)] . وقال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط بابه والملائكة معه فى الدار ، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب ، وهم يعالجون تسوّر الجدار ؛ فلما رأت الملائكة مالقى من الجهد والكرب والنّصب بسببهم ، قالوا : يالوط إن ركنك لشديد ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ،

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٩٨ طبعة أولى أو ثانية .   (٢) آية ٣٧ من سورة القمر .

وإنا رســل ربك ؛ فافتح البــاب ودعنا وإياهــم ؛ ففتح الباب فضربهــم جبريل بجناحه على ما تقدّم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب وأذراها فى وجوههم ، فأوصل الله إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا آهتدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن فى بيت لوط قوما هم أسحر من على وجه الأرض ، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : يالوط كما أنت حتى نصبح فسترى ؛ يتوعدونه .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حزنه وآضطرابه ومدافعتــه عرّفوه بأنفسهم ، فلما علم أنهم رسل مكّن قومه من الدخول ، فأمرّ جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فجفّت . ﴿ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ أى بمكروه . ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ « فآسرِ » بوصــل الألف وقطعها ؛ لغتــان فصيحتان . قال الله تعــالى : « والليلِ إذا يسرِ » وقال : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى » . وقال النابغة : فجمع بين اللغتين :

أَسْرَتْ[1] عليه من الجوزاء سارِيَةٌ * تُزجِى الشمالُ عليــهِ جامِدَ البَرَدِ

وقال آخــــر :

حَيِّ النَّضِــيرةَ ربَّةَ الخِــدْرِ * أَسْرتْ إليكَ ولم تَكنْ تَسْرِى

وقد قيل : « فَأَسْرِ » بالقطع إذا سار من أوّل الليل ، وسرى إذا سار من آخره ؛ ولا يقال فى النهار إلا سار . وقال لَبيد :

إذا المرءُ أَسْرَى ليلةً ظَنَّ أنهُ * قَضَى عملًا والمرءُ ما عاش عامِلُ

وقال عبد الله بن رَوَاحةَ :

عند الصّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى * وتَنْجَلِي عنهــم غَيَاياتُ الكَرَى

﴿ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال آبن عبّاس : بطائفــة من الليل . الضّحاك : ببقية من الليــل . قَتَادة : بعد مضى صدر من الليل . الأخفش : بعد جنح من الليل . آبن الأعرابى : بساعة من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هدءٍ من الليل . وقيل : هزيع من

(١) ويروى (سرت) . يقول : إن السحابة سرت فى الجوزاء ، فلذلك شبهها بالجوزاء .

الليل . وكلها متقاربة؛ وقيل : إنه نصف الليـل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين ؛ ومنه قول الشاعر[(١)] :

ونائحةٍ تَنوحُ بِقطعِ ليـلٍ * على رجلٍ بقارعةِ الصّعيدِ

فإن قيـل : السُّرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى « بقطع من الليـل » ؟ فالجواب : أنه لو لم يقل : « بقطع من الليل» جاز أن يكون أوله . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى لا ينظر وراءه منكم أحد؛ قاله مجاهد . آبن عباس : لا يتخلف منكم أحد . على بن عيسى : لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع . ﴿ إِلَّا آمْرَأَتَكَ ﴾ بالنصب ؛ وهى القراءة الواضحة البينة المعنى ؛ أى فأسر بأهلك إلا آمرأتك . وكذا فى قراءة آبن مسعود « فأسرِ بِأهلِكَ إلا آمرأتك » فهو آستثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كانت مِن الغابِرين » أى من الباقين . وقرأ أبو عمرو وآبن كثير « إلا آمرأتُك » بالرفع على البدل من « أحد » . وأنكر هـذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد ؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع « يلتفت » ويكون نعتا ؛ لأن المعنى يصير — إذا أبدلت وجزمت — أن المرأة أبيح لها الآلتفات، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الحمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح ، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان؛ فلفظ النهى لفلان ومعناه للمخاطب؛ أى لا تدعه يخرج ؛ ومثله قولك : لا يقم أحد إلا زيد؛ يكون معناه : انههم عن القيام إلا زيدا ؛ وكذا النهى للوط ولفظه لغيره؛ كأنه قال : انههم لا يلتفت منهـم أحد إلا آمرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام؛ أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك ، وأن لوطا خرج بها، ونهى من معه ممن أسرى بهـم ألا يلتفت، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجتـه؛ فإنها لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه! فأدركها حجر فقتلها . ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا ﴾

(١) هو مالك آبن كنانة

أى من العـذاب . والكناية فى « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن ؛ أى فإن الأمر والشأن والقصـة . ﴿ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ﴾ لمـا قالت الملائكة : « إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » قال لوط : الآن الآن . آستعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه ؛ فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب ﴾ وقرأ عيسى آبن عمر « أليس الصُّبُحُ » بضم الباء وهى لغة . ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم؛ لأن النفوس فيه أودع، والناس فيـه أجمع . وقال بعض أهل التفسير : إن لوطا خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر ، وأن الملائكة قالت له : إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد ، وخطف برق، وصواعق عظيمة ، وقد ذكرنا لهم أن لوطا سيخرج فلا تؤذوه ؛ وأمارته أنه لا يلتفت ، ولا تلتفت آبنتاه فلا يهولنّك ما ترى ؛ فخرج لوط وطوى الله له الأرض فى وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وذلك أن جبريل عليه السـلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سـدوم — وهى القرية العظمى — وعامورا ، ودادوما ، وضعوه ، وقتم[١] ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بمـا فيها ؛ حتى سمع أهـل السماء نهيق حمرهم وصياح دِيكتهم ، لم تنكفئ لهم جرّة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رءوسهم ، وأتبعهم الله بالحجـارة . مقاتل : أهلكت أربعة ، ونجت ضعوه . وقيل : غير هذا ؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »[٢] . وفى التفسير : أمطرنا فى العذاب ، ومطرنا فى الرحمة . وأما كلام العرب فيقال : مطرت السماء وأمطرت ؛ حكاه الهروى . واختلف فى « السجيل » فقال النحاس[٣] : السجيل الشـديد الكثير ؛ وسجيل وسجين اللام والنون أختان . وقال أبو عبيدة : السجيل الشديد الكثير ؛ وأنشد[٤] :

* ضَرْباً تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّينَا *

(١) فى ضبط هذه القرى اختلاف ؛ لذا أهمل ذكرها بعض المفسرين . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية . (٣) كذا فى بعض الأصول ، وفى البعض الآخر (البخارى) . (٤) سيأتى البيت بتمامه فى ص ٨٣ .

قال النحاس : وردّ عليه هـذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به ؟! قال النحاس : وهـذا الرد لا يلزم؛ لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبـدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى ؛ وقول أبى عبيدة يردّ من جهة أخرى ؛ وهى أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلا؛ لأنه لا يقال حجارة من شديد ؛ لأن شديدا نعت . وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء سجيل . وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلا طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء. وقالت طائفة منهم ٱبن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إن سجيلا لفظة غير عربية عُرّبت، أصلها سَنْج وجِيلْ . و يقال : سَنْك وكِيلْ؛ بالكاف موضع الجيم ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العـرب فجعلتهـما اسما واحدا . وقيل : هو من لغة العرب . وقال قتادة وعكرمة : السجيل الطين بدليـل قوله : « لِنرسِل عليهِم حِجارة مِن طِينٍ » . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشـددت . والسجيل عند العرب كل شديد صُلْب . وقال الضحاك : يعنى الآجرّ . وقال ٱبن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجرّ؛ وعنه أن سجيلا ٱسم السماء الدنيا؛ ذكره الهروىّ؛ وحكاه الثعلبىّ عن أبى العالية؛ وقال ٱبن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بـ « منضود » . وعن عكرمة أنه بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة . وقيل : هى جبال فى السماء، وهى التى أشار الله تعالى إليها بقوله : « وينزّل مِن السماءِ مِن جِبالٍ فِيها مِن برَدٍ » . وقيل : هو مما سجّل لهم أى كتِب لهم أن يصيبهم؛ فهو فى معنى سِجين؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ » قاله الزجاج وٱختاره . وقيـل : هو فِعيِّل من أسجلته أى أرسلته ؛ فكأنها مرسَـلة عليهم . وقيل : هو من أسجلته إذا أعطيتَه؛ فكأنه عذاب أعطوه؛ قال :[1]

مَنْ يُساجِلْنى يُساجِلْ مَاجِدًا * يَمْلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ

(١) البيت للفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب . وأصل المساجلة أن يستـقى ساقيان فيخرج كل واحد منهما فى سجله (داوه) مثل ما يخرج الآخر فأيهما نكل فقد غلب ؛ فضربته العرب مثلا للفاخرة . والكرب : الحبـل الذى يشد على الدلو بعد المنين وهو الحبل الأوّل .

وقال أهل المعانى : السجّيل والسجّين الشديد من الحَجَر والضَّرب؛ قال ٱبن مُقْبل :

ورَجْلَةٍ يضرِبون البَيْضَ ضَاحِيَةً(١) * ضَرْباً تواصَى بِه الأبطالُ سِجِّينَا

﴿ مَنْضُودٍ ﴾ قال ٱبن عباس : متتابع . وقال قتادة : نُضِد بعضها فوق بعض . وقال الرَّبيع : نُضِد بعضه على بعض حتى صار جسدا واحدا . وقال عِكرمة : مصفوف . وقال بعضهم مرصوص ؛ والمعنى متقارب . يقال : نَضَدت المتاع واللّبِن إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونَضِيد ونَضَدٌ؛ قال :

* ورفَّعَتْه إلى السِّجْفَين فالنَّضَدِ *

وقال أبو بكر الهُذَلىّ : مُعدّ ؛ أى هو مما أعدّه الله لأعدائه الظّلمة . ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أى معلَمَة ، من السِّيما وهى العلامة؛ أى كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر ٱسم من رُمى به ، وكانت لاتشا كل حجارة الأرض . وقال الفرّاء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد فى بياض، فذلك تسويمها . وقال كعب : كانت معلمة ببياض وحمرة، وقال الشاعر(٢) :

غلامٌ رماه اللهُ بالحسنِ يافِعًا * له سِيمِيَاءُ لا تَشُقُّ على البَصَرْ

و « مسومةٍ » من نعت حجارة . و « منضودٍ » من نعت « سِجيل » . وفى قوله : ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض؛ قاله الحسن . ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ يعنى قوم لوط ؛ أى لم تكن تخطئهم . وقال مجاهد : يُرهِب قريشا؛ المعنى : ما الحجارة من ظالمى قومك يا محمد ببعيد . وقال قتادة وعِكرمة : يعنى ظالمى هذه الأمة؛ واللهِ ما أجار الله منها ظالما بعد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سيكون فى آخر أمّتى قوم يكتفى رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قومِ لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما هِى مِن الظالِمين

(١) وروى فى اللسان : (يضربون البيض عن عرض) .

(٢) البيت لأسيد بن عنقاء الفزارى يمدح عميلة حين قاسمه ماله ؛ و بعده :

كأن الثريا علقت فوق نحره * وفى جيده الشعرى وفى وجهه القمر

وقوله : (له سيمياء لا تشق على البصر) أى يفرح به من يراه .

ببعيد » . وفى رواية عنه عليه السلام " لا تذهب الليالى والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف هذه الأمة حجارة من ربك ". وقيل : المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببعيد، وهى بين الشام والمدينة . وجاء « ببعيد » مذكرا على معنى بمكان بعيد . وفى الحجارة التى أمطرت قولان : أحدهما — أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل . الثانى — أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها وكان خارجا عنها.

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ

وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى وأرسلنا إلى مدين ، ومدين هم قوم شعيب . وفى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما — أنهم بنو مدين بن إبراهيم ؛ فقيل : مدين والمراد بنو مدين . كما يقال مُضَر والمراد بنو مُضَر . الثانى — أنه آسم مدينتهم ، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه آسم مدينة ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »[1] هذا المعنى وزيادة . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقدّم . ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف ؛ كان إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد ، وآستوفوا بغاية ما يقدرون وظلموا ؛ و إن جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص ، وشحّوا له بغاية ما يقدرون ؛ فأُمروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك ، و بالوفاء نهيا عن التطفيف . ﴿ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أى فى سَعة من الرزق ، وكثرة من النِّعم . وقال الحسن : كان سعرهم رخيصا . ﴿ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ وصف اليوم بالإحاطة ، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم ، وهو كقولك : يوم شديد ؛ أى شديد حرّه . وآختلف فى ذلك العذاب ؛ فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيـا . وقيل : غلاء السـعر؛ روى معناه عن ابن عباس .
وفى الحديث عن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم : " ما أظهر قوم البخس فى المكيال والميزان إلا ٱبتلاهم الله بالقحط والغلاء " . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيدا . والإيفاء الإتمـام . « بالقسط » أى بالعدل والحق، والمقصود أن يصل كل ذى نصيب إلى نصيبه ؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال و بالميزان ؛ بل أراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصّنجات . ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى لا تنقصوهم ممـا ٱستحقوه شيئا . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بين أن الخيانة فى المكيال والميزان مبالغة فى الفساد فى الأرض ؛ وقد مضى فى « الأعراف »[(١)] زيادة لهذا ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة ، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبّر والظلم ؛ قال معناه الطّبرىّ وغيره . وقال مجاهد : « بقية الله خير لكم » يريد طاعته . وقال الرّبيع : وصية الله . وقال الفرّاء : مراقبة الله . ٱبن زيد : رحمة الله . قتادة والحسن : حظكم من ربكم خير لكم . وقال ٱبن عباس : رزق الله خير لكم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين . وقيل: يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم؛ أى لا يمكننى شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق . وقيل : أى لا يتهيأ لى أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعـاصيكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ ﴾ وقرئ « أَصَلَاتُكَ » من غير جمع . ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ « أن » فى موضع تفسير؛ قال الكسائىّ : موضعها خفض على إضمار الباء .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٨ طبعة أولى أو ثانية .

وروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقـول : الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم عيّروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة، واستهزءوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم . وقيـل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة؛ قاله سـفيان عن الأعمش، أى قراءتك تأمرك؛ ودلّ هذا على أنهم كانوا كفارا . وقال الحسن: لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء. وقرأ السُّلَمىّ والضّحاك ٱبن قيس «أو أن تفعل فِي أموالِنا ما تشاء» بالتاء في الفعلين، والمعنى: ما تشاء أنت يا شعيب. وقال النحاس: «أو أن» على هذه القراءة معطوفة على «أن» الأولى. وروى عن زيد بن أسلم أنه قال: كان مما نهاهم عنه حَذْف[1] الدراهم . وقيل : معنى « أو أن نفعل فِي أموالِنا ما نشاء » إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلِم تمنعنا منه ؟! . ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك؛ ومثله في صفة أبي جهل : « ذق إنك أنت العزِيز الكرِيم » أى عنـد نفسك بزعمك . وقيـل : قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة . ومنه قولهم للحبشى : أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجَوْن[2]؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » . وقال سفيان بن عُيينة: العرب تصف الشيء بضدّه للتطيّر والتفاؤل؛ كما قيل للّديغ سَليم، وللفلاة مَفازة . وقيل: هو تعريض أرادوا به السبّ؛ وأحسن من هـذا كله، ويدلّ ما قبله على صحته، أى إنك أنت الحليم الرشيد حقا ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ! ويدلّ عليـه « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا » أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضا ما يدلّ عليه « قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى أفلا أنهاكم عن الضلال؟! وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه ٱعتقادهم فيه . ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بنى قُريظة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال لهم : « يا إخوة القِردة » فقالوا : يا محمد ما علمناك جهولا ! .

---

(١) حذف الشيء قطعه من أطرافه . (٢) الجون هنا الأسود .

مســألة – قال أهل التفسير: كان مما ينهاهم عنه، وعُذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم؛ كانوا يَقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُراضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدّا، وعلى المقروضة وزنا، وكانوا يبخسون فى الوزن . وقال ابن وهب قال مالك : كانوا يكسرون الدنانير والدراهم، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقـدمين كسعيد بن المسيّب، وزيد بن أسلم وغيرهما؛ وكسرهما ذنب عظيم. وفى كتاب أبى داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سَكَّة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس؛ فإنها إذا كانت صحاحا قام معناها، وظهرت فائدتهـا، وإذا كسرت صارت سِلعـة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس، ولذلك حرم. وقد قيل فى تأويل قوله تعالى: « وكان فِي ٱلمدِينةِ تِسعة رهطٍ يفسِدون فِي ٱلارضِ ولا يصلِحون » أنهم كانوا يكسرون الدراهم؛ قاله زيد بن أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : زعموا أنه لم يكن بالمدينـة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القُرَظى .

مســألة : قال أَصْبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة مولى زيد بن الحارث العُتَقى : من كسرها لم تقبل شهادته، وإن ٱعتذر بالجهالة لم يعذر، وليس هذا موضع عذر؛ قال ٱبن العربى : أما قوله : لم تقبـل شهادته فلأنه أتى كبيرة، والكبائر تسـقط العـدالة دون الصغائر؛ وأما قوله: لا يقبـل عذره بالجهالة فى هذا فلأنه أمر بيّن لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العـذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفِى وجه الصدق فيـه، وكان الله أعلم به من العبد؛ كما قال مالك .

مســألة : إذا كان هـذا معصية وفسادا تردّ به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك . ومرّ ٱبن المسيّب برجل قـد جُلد فقال : ما هذا ؟ قال : رجل يقطع الدنانير والدراهم؛ قال ٱبن المسيّب : هـذا من الفساد فى الأرض؛ ولم ينـكر جلده؛ ونحـوه عن سـفيان . وقال أبو عبد الرحمن النُّجيبى : كنت قاعدا عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتى برجل وقد شُهِد عليه فضربه وحَلَقه، وأمر فطيف به، وأمره أن يقول : هذا جزاء من يقطع

الدراهم ؛ ثم أمر أن يُرَدّ إليـه ؛ فقال : إنه لم يمنعنى أن أقطع يدك إلا أنى لم أكن تقدّمت فى ذلك قبل اليوم ، وقد تقدّمت فى ذلك فمن شاء فليقطع . قال القاضى أبو بكر بن العربى : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيـه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقد كنت أيام الحكم أضرب وأحلق ، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عونا له على المعصية ، وطريقا إلى التجمل به فى الفساد ، وهذا هو الواجب فى كل طريق للمعصية ، أن يقطع إذا كان غير مؤثر فى البدن ، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصـل السرقة ؛ وذلك أن قرض الدراهم غير كسرها ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخذ مال على جهة الاختفاء ؛ فإن قيل : أليس الحرز أصلا فى القطع ؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيئتها للفصل بين الخلق دينارا أو درهما حرزلها ، وحرز كل شىء على قدر حاله ؛ وقـد أنفذ ذلك ابن الزبير ، وقطع يد رجل فى قطع الدنانير والدراهم . وقد قال علماؤنا المـالكية : إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليهـا اسمه ؛ ولو قطع على قول أهـل التأويل من كسر خاتما لله كان أهلا لذلك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أُدِّب ؛ وخاتم الله تُقضى به الحوائج فلا يستويان فى العقوبة . قال ابن العربى : وأرى أن يقطع فى قرضها دون كسرها ، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليتى الحكم ، إلا أنى كنت محفوفا بالجهال ، فلم أجب بسبب المقال للحسدة الضّلال ، فمن قدر عليه يوما من أهل الحق فليفعله احتسابا لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ تقـدّم . ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أى واسعا حلالا ، وكان شعيب عليه السلام كثير المـال ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة ؛ وفى الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ؛ أى أفلا أنهاكم عن الضلال ! وقيل : المعنى «أرأيتم إن كنت على بينة من ربى» أتبع الضلال . وقيل : المعنى «أرأيتم إن كنت على بينة من ربى» أتأمروننى بالعصيان فى البخس والتطفيف ، وقد أغنانى الله . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ « أريد » . ﴿ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أى ليس أنهاكم عن شىء وأرتكبـه ، كما لا أترك ما أمرتكم به . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ

مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أى ما أريد إلا فعـل الصلاح؛ أى أن تصلحوا دنيا كم بالعـدل، وآخرتكم بالعبادة؛ وقال : « ما ٱستطعت » لأن الٱستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة . و « ما » مصدرية؛ أى إن أريد إلا الإصلاح جهـدى واستطاعتى . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ أى رشدى ، والتوفيق الرشـد . ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى ٱعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى أرجع فيما ينزل بى من جميع النوائب. وقيل : إليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة الدعاء، ومعناه وله أدعو .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ وقرأ يحيى بن وثّاب « يُجْرِمَنَّكُمْ » . ﴿ شِقَاقِي ﴾ فى موضع رفع . ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى لا يحملنكم معاداتى على ترك الإيمـان فيصيبكم ما أصاب الكفـار؛ قاله الحسن وقَتَادة . وقيل : لا يكسبنكم شقـاقى إصابتكم العذاب، كما أصاب من كان قبلكم؛ قاله الزجاج . وقد تقدّم معنى « يجرمنكم » فى « المـائدة »(١) و « الشقاق » فى « البقرة »(٢) وهو هنا بمعنى العداوة؛ قاله السدّى؛ ومنه قول الأخطل :

أَلَا مَن مُبلغٌ عنّى رسـولًا(٣) * فكيف وجَدتُمُ طَعْمَ الشِّقاقِ

وقال الحسن : إضرارى . وقال قَتادة : فِراقى . ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ وذلك أنهـم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط . وقيل : وما ديار قوم لوط منكم ببعيد؛ أى بمكان بعيد ؛ فلذلك وحد البعيد . قال الكسائىّ : أى دورهم فى دوركم .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْـهِ ﴾ تقدّم . ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ٱسمان من أسمـائه سبحانه، وقد بيّنّاهما فى كتاب «الأسنى فى شرح الأسمـاء الحسنى» . قال الجوهرىّ : وَدِدت الرجل أَوَدّه ودًّا إذا أحببته، والودود المحبّ، والوُدّ والوِدّ والوَدّ والمودّة المحبة . وروى عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال : " ذاك خطيب الأنبيـاء " .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

(٣) الرسول هنا بمعنى الرسالة .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ أى ما نفهم ؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور ، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقارا لكلامه ؛ يقال : فقِه يفقه إذا فهم فِقْها ؛ وحكى الكسائى فَقُه فَقَهًا وفِقها إذا صار فقيها[1] . ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قيل : إنه كان مصابا ببصره ؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة . وقيل : كان ضعيف البصر ؛ قاله الثورى ، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حِمير تقول للأعمى ضعيف ؛ أى قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له ضرير ؛ أى قد ضرّ بذهاب بصره ؛ كما يقال له : مكفوف ؛ أى قد كُفّ عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه علىّ بن عيسى . وقال السدى : وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا . وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . « وضعيفا » نصب على الحال . ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ رفع بالابتداء ؛ ورهط الرجل عشيرته الذى يستند إليهم ويتقوى بهم ؛ ومنه الراهطاء لجُحْر اليَرْبُوع ؛ لأنه يَتوثّق به ويَخبأ فيه ولده . ومعنى ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ لقتلناك بالرّجم ، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة ، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى « لرجمناك » لشتمناك ؛ ومنه قول الجعدىّ :

تَراجمنا بمُرّ القولِ حتّى * نَصير كأننا فَرَسا رِهانِ

والرجم أيضا اللعن ؛ ومنه الشيطان الرجيم . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أى ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي ﴾ « أرهطى » رفع بالابتداء ؛ والمعنى أرهطى فى قلوبكم ﴿ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ وأعظم وأجلّ وهو يملككم . ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أى اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهريا ؛ أى جعلتموه وراء ظهوركم ، وامتنعتم من قتلى مخافة قومى ؛

---

(١) عبارة الأصول هنا مضطربة ، وصوبت عن كتب اللغة ؛ وعبارة الأصل : فقة يفقه إذا فهم فقها وفقها ، وحكى الكسائى فقها ، وفقه فقها إذا صار فقيها .

يقال : جعلت أمره بِظَهْرٍ إذا قصرت فيه، وقد مضى فى «البقرة»[1] . ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى من الكفر والمعصية . ﴿ مُحِيطٌ ﴾ أى عليم . وقيل : حفيظ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد ؛ وقد تقدّم فى « الأنعام »[2] . ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى يهلكه . و « من » فى موضع نصب، مثل « يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ » . ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ عطف عليها . وقيل : أى وسوف تعلمون من هو كاذب منا . وقيل : فى محل رفع ؛ تقديره : ويخزى من هو كاذب . وقيل : تقديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه ، ويذوق وبال أمره . وزعم الفراء أنهم إنما جاءوا بـ«هو» فى « ومن هو كاذب » لأنهم لا يقولون مَن قائم؛ إنما يقولون : مَن قام، ومَن يقوم، ومَن القائم؛ فزادوا « هو » ليكون جملة تقوم مقام فَعَل ويَفْعَل . قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قوله[3] :

مَنْ رَسُولِي إلى الثُّرَيّا بِأَنّى * ضِقْتُ ذَرْعاً بِهَجْرِهَا وَالْكِتَابِ

﴿ وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أى ٱنتظروا العذاب والسّخطة، فإنى منتظر النصر والرحمة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ قيل : صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم . ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ ﴾ أى صيحة جبريل . وأنث الفعل على لفظ الصيحة ، وقال فى قصة صالح : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » فذكّر على معنى الصياح . قال ٱبن عباس : ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، أهلكهم الله بالصيحة ؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ تقدم معناه . وحكى الكسائى أن أبا عبد الرحمن السلمىّ قرأ « كما بَعُدت ثمود » بضم العين . قال النحاس : المعروف فى اللغة أنه يقال بعد

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٠ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) هو عمر بن أبى ربيعة .

يَبْعُدُ بَعَدًا وبُعْدًا إذا هَلَك . وقال المهدوى : من ضم العين من «بعدت» فهى لغة تستعمل فى الخير والشر، ومصدرها البُعْد ؛ وبَعِدت تستعمل فى الشر خاصة؛ يقال : بَعِد يَبْعَد بَعَدًا ؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللّعنة ؛ وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما فى المعنى ؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعانى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ بين أنه أتبع النبي النبيّ لإقامة الحجة، و إزاحة كل علة « بِآيَاتِنَا » أى بالتوراة . وقيل : بالمعجزات . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى حجة بيّنه ؛ يعنى العصا . وقد مضى فى « آل عمران »[(١)] معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أى شأنه وحاله ، حتى اتخذوه إلها ، وخالفوا أمر الله تعالى . ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أى بسديد يؤدى إلى صواب . وقيل : « برشيد » أى بمرشد إلى خير .

قوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يعنى أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم . يقال : قَدَمهم يقدُمهم قَدْما وقُدوما إذا تقدمهم . ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ أى أدخلهم فيها . ذُكِر بلفظ الماضى؛ والمعنى فيوردهم النار؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن؛ فلهذا يعبر عن المستقبل بالماضى . ﴿ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ أى بئس المدخل المدخول؛ ولم يقل بئست لأن الكلام يرجع إلى المورود؛ وهو كما تقول : نعم المنزل دارك، ونعمت المنزل دارك . والمورود الماء الذى يورد ، والموضع الذى يورد ؛ وهو بمعنى المفعول .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ أى فى الدنيا . ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى ولعنة يوم القيامة؛ وقد تقدم هذا المعنى . ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ حكى الكسائى وأبو عبيدة: رَفَدتُه أَرْفِدُه رَفْدًا؛ أى أعنته وأعطيته . وآسم العطية الرِّفْد؛ أى بئس العطاء والإعانة . والرفد أيضا القدح الضخم؛ قاله الجوهرى، والتقدير: بئس الرفد رِفد المرفود . وذكر الماوردى أن الرفد بفتح الراء القدح، والرفد بكسرها ما فى القدح من الشراب؛ حكى ذلك عن الأصمعى؛ فكأنه ذمّ بذلك ما يسقونه فى النار . وقيل: إن الرفد الزيادة؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الغرق النار؛ قاله الكلبى .

قوله تعالى: ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ «ذلك» رفع على إضمار مبتدأ، أى الأمر ذلك . وإن شئت بالابتداء، والمعنى: ذلك النبأ المتقدّم من أنباء القرى نقصه عليك . ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قال قتادة : القائم ما كان خاويا على عروشه، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العامر، والحصيد الخراب ؛ قاله ٱبن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها ، وحصيد مستأصل ؛ يعنى محصودا كالزرع إذا حصد ؛ قال الشاعر :

والنـاس فى قَسْم المنيّة بينهم * كالزّرع منـــه قائمٌ وحَصِيدُ

وقال آخـــر[(1)] :

إنمـا نحن مثلُ خَامَةِ زَرْعٍ * فمتى يَأْنِ يَأْتِ مُحْتَصِـدُهُ

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود، وجمعه حَصْدى وحِصَاد مثل مَرْضى ومِرَاض؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى ، مثل قتيل وقتلى . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أصل الظـلم فى اللغة وضع الشىء فى غير موضعه، وقـد تقدم فى « البقرة »[(2)] مستوفى . ﴿ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى . وحكى سيبويه أنه يقال : ظلم إياه . ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ أى دفعت . ﴿ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى التى كانوا يدعون ؛ أى يعبدون . ﴿ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أى غير تخسير ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال لبيـــد :

فلقـد بَلِيتُ وكلُّ صاحبِ جِدّةٍ * لِبِــلًى يعُودُ وذَاكُمُ التَّتْبِيبُ

والتَّبابُ الهلاك والخسران، وفيه إضمار ؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنـام، فحذف المضاف؛ أى كانت عبادتهم إيّاها قد خسّرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ أى كما أخذ هذه القرى التى كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة . وقرأ عاصم الجحدرىّ وطلحة بن مصرف « وكذلك أَخَذَ ربك إذْ أَخَذَ القرى » . وعن الجحدرىّ أيضا « وكذلك أَخْذُ رَبِّك » كالجماعة «إذْ أَخَذَ

---

(١) البيت للطرماح ؛ كما فى اللسان . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

القرى » . قال المهدوى : من قرأ « وكذلك أخذ ربك إذ أخذ » فهو إخبار عما جاءت به العادة فى إهلاك من تقدّم من الأمم ؛ والمعنى : وكذلك أَخَذَ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذ أَخَذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ؛ فإذ لما مضى؛ أى حين أخذ القرى ؛ و إذا للمستقبل . ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى وأهلها ظالمون؛ فحذف المضاف مثل : « وٱسأل القرية » . ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ أى عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة . وفى صحيح مسلم والترمذى من حديث أبى موسى أن رسول الله صلى صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه " ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى لعبرة وموعظة . ﴿ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ . ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ مَجْمُوعٌ ﴾ من نعته . ﴿ لَهُ ٱلنَّاسُ ﴾ ٱسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجموعون ؛ فإن قدرت ٱرتفاع « الناس » بالابتداء، والخبر « مجموع له » فإنما لم يقل : مجموعون على هذا التقدير؛ لأن « له » يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر ؛ أى يحشرون لذلك اليوم . ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أى يشهده البر والفاجر، ويشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة فى كتاب « التذكرة » وبيّناهما والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أى ما نؤخر ذلك اليوم . ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ أى لأجل سبق به قضاؤنا، وهو معدود عندنا . ﴿ يَوْمَ يَأْتِي ﴾ وقرئ « يوم يأتِ » لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة ؛ تقول : لا أدر ؛ ذكره القشيرى . قال النحاس : قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائى بإثبات الياء فى الإدراج، وحذفها فى الوقف ؛ وروى أن أُبيًّا وابن مسعود قرأا « يوم يأتِي » بالياء فى الوقف والوصل . وقرأ الأعمش وحمزة « يوم يأتِ » بغير ياء فى الوقف والوصل ؛ قال أبو جعفر النحاس : الوجه فى هذا ألا يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء؛ لأن جماعة من النحويين قالوا : لا تحذف الياء، ولا يجزم الشيء بغير جازم؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول الكسائى ؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم ، فحذف الياء ، كما

تحذف الضمة. وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء فى الوصل والوقف بحجتين؛ إحداهما — أنه زعم أنه رآه فى الإمام الذى يقال له إنه مصحف عثمان رضى الله عنه بغير ياء. والحجة الأخرى — أنه حكى أنها لغة هُذَيل؛ تقول: ما أدرِ؛ قال النحاس: أما حجته بمصحف عثمان رضى الله عنه فشىء يردّه عليه أكثر العلماء؛ قال مالك بن أنس رحمه الله: سألت عن مصحف عثمان رضى الله عنه فقيل لى ذَهَب؛ وأما حجته بقولهم: «ما أدرِ» فلا حجة فيه؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء، وذكروا علته، وأنه لا يقاس عليه. وأنشد الفراء فى حذف الياء:

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهماً　＊　جوداً وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدَّمَا

أى تعطى. وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول: لا أدرِ، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. قال الزجاج: والأجود فى النحو إثبات الياء؛ قال: والذى أراه اتباع المصحف وإجماع القراء؛ لأن القراءة سنّة؛ وقد جاء مثله فى كلام العرب. ﴿لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الأصل تتكلم؛ حذفت إحدى التاءين تخفيفا. وفيه إضمار، أى لا تتكلم فيه نفس إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح. وقيل: المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه. وقيل: إن لهم فى الموقف وقتا يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه. وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد فى الدِّين، فيقول لم قال: «لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ» و «هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ». وقال فى موضع من ذكر القيامة: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ». وقال: «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا». وقال: «وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ». وقال: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ». والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضا، وطرح بعضهم الذنوب على بعض؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا؛ وهذا كما تقول للذى يخاطبك كثيرا، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشىء، وما نطقت بشىء؛ فسمّى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم. وقال

قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف فى بعضها يمنعون من الكلام، وفى بعضها يطلق لهم الكلام ؛ فهـذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه . ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أى من الأنفس ، أو من الناس ؛ وقد ذكرهم فى قوله : « يوم مجموع له الناس » . والشقى الذى كتبت عليه الشّقاوة . والسّعيد الذى كتبت عليه السّعادة ؛ قال لَبيد :

فمنهــم ســعيدٌ آخذٌ بنِصيبِه * ومنهــم شَــقِىٌّ بالمعيشــةِ قانعُ

وروى الترمذىّ عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت هـذه الآية « فمنهـم شقِى وسعِيد » سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا نبىّ الله فعلام نعمل ؟ على شىء قد فُرِغ منه ، أو على شىء لم يُفرَغ منه ؟ ! فقال : "بل على شىء قد فُرِغ وجرت به الأقلامُ يا عُمر ولكن كل مُيسّر لما خُلِق له ". هذا حديث حسن غريب من هـذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »(1) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ ابتداء . ﴿ فَفِي النَّارِ ﴾ فى موضع الخبر، وكذا ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال أبو العالية : الزّفير من الصدر، والشّهيق من الحلق ؛ وعنه أيضا ضدّ ذلك . وقال الزجاج : الزّفير من شدّة الأنين ، والشّهيق من الأنين المرتفع جدّا ؛ قال : وزعم أهل اللغـة من الكوفيين والبصريين أن الزّفير بمنزلة ابتـداء صوت الحمير فى النّهيق ، والشهيق بمنزلة [آخر] صوت الحمار فى النهيق . وقال ابن عباس عكسه ؛ قال : الزّفير الصوت الشديد ، والشّهيق الصوت الضعيف . وقال الضّحاك ومقاتل : الزّفير مثل أوّل نهيق الحمار ، والشّهيق مثل آخره حين فرغ من صوته ؛ قال الشاعر(2) :

حَشْرَجَ فى الجوفِ سَحِيلًا(3) أو شَهَقْ * حتى يُقالَ ناهــقٌ وما نَهَــقْ

وقيل : الزّفير إخراج النفس ، وهو أن يمتلئ الجوف غمًّا فيخرج بالنفَس ، والشهيق ردّ النفَس . وقيـل : الزفير ترديد النفَس من شدّة الحزن ؛ مأخوذ من الزَّفْر وهو الحَمْل على الظهر لشدّته ؛

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٣١٤ طبعة أولى أو ثانية . (2) هو العجاج والبيت من قصيدة له يصف فيها المفازة مطلعها :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق * مشتبه الأعلام لماع الخفــق

(3) السحيل : الصوت الذى يدور فى صدر الحمار .

والشهيق النفس الطويل الممتد؛ مأخوذ من قولهم : جبل شاهق؛ أى طويل. والزفير والشهيق من أصوات المحزونين .

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « ما دامت » فى موضع نصب على الظرف؛ أى دوام السموات والأرض، والتقدير: وقت ذلك . وآختلف فى تأويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى مادامت سموات الجنة والنار وأرضهما . والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقر عليه قدمك؛ وفى التنزيل: « وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنةِ حيث نشاء » . وقيل : أراد به السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا ، وأجرى ذلك على عادة العرب فى الإخبار عن دوام الشىء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جَنَّ ليلٌ ، أو سَالَ سيلٌ، وما آختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولا من غير نهاية ؛ فأوهمهم الله تخليد الكفرة بذلك ، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن آبن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش ، وأن السموات والأرض فى الآخرة تردّان إلى النور الذى أخذتا منه ؛ فهما دائمتان أبدا فى نور العرش .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فى موضع نصب ؛ لأنه آستثناء ليس من الأول ؛ وقد آختلف فيه على أقوال عشرة : الأوّل — أنه آستثناء من قوله : « ففى النار » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهذا قول رواه أبو نَضْرة عن أبى سعيد الخُدْرى أو جابر رضى الله عنهما . وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص؛ كقوله : « ما طاب لكم » . وعن أبى نَضْرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شَقُوا بالمعصية" . الثانى — أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين فى إخراجهم بعد مدّة من النار؛ وعلى هذا يكون قوله : « فأما الذين شقوا » عاماً فى الكفرة والعصاة ، ويكون الآستثناء من « خالدين » ؛ قاله قَتادة والضّحاك وأبو سِنان وغيرهم . وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يدخل

ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة(١) أخرجوا منها ودخلوا الجنـة فيقال هؤلاء الجهنميّون "
وقد تقدّم هـذا المعنى فى « النساء » وغيرها . الثالث — أن الاستثناء من الزفير والشهيق ؛
أى لهم فيهـا زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل
الجنـة من النعيم ما ذكر ، وما لم يذكر . حكاه آبن الأنبارىّ . الرابع — قال آبن مسعود :
« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ
رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدّد خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر ، والآستثناء له فى الأكل ، وتجديد الخلق . الخامس —
أن « إلّا » بمعنى « سوى » كما تقول فى الكلام : ما معى رجل إلّا زيد ، ولى عليك ألفا درهم
إلا الألف التى لى عليك . قيـل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك
من الخلود . السادس — أنه استثناء من الإخراج ، وهو لا يريد أن يخرجهم منها ، كما تقول
فى الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعـل ؛ فالمعنى
أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ؛ ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها ؛ ذكر هذين القولين
الزجاج عن أهل اللغة ؛ قال : ولأهل المعانى قولان آخران ؛ فأحد القولين : « خالدين فيهـا
ما دامت السـموات والأرض إلا ما شاء ربك » من مقـدار موقفهم على رأس قبورهم ،
وللمحاسبة ، وقدر مكثهم فى الدنيـا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر — وقوع
الاستثناء فى الزيادة على النعيم والعذاب ، وتقديره : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض
إلا ما شاء ربك » من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء فى الزيادة من الخلود على مدّة كون السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا ؛
واختاره الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن على ؛ أى خالدين فيها مقـدار دوام السموات
والأرض ، وذلك مدّة العالم ، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه ؛ وهو قوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ
الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » فخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم ، وآشترى منهم أنفسهم وأموالهم

(١) الحمم : الرماد والفحم وكل ما احترق من النار ، والواحدة حممه .

بالجنة ، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفى بالعهد فله الجنة ، ومن ذهب برقبته يخلد فى النار بمقدار دوام السموات والأرض ؛ فإنما دامتا للمعاملة ؛ وكذلك أهل الجنة خلود فى الجنة بمقدار ذلك ؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع فى مشيئة الله؛ قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَواتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . ما خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » فيخلد أهل الدارين بمقدار دوامهما، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة؛ ثم أوجب لهم الأبد فى كلتا الدارين لحقّ الأحدية، فمن لقيه موحّدا لأحديته بقى فى داره أبدا، ومن لقيه مشركا بأحديته إلها بقى فى السجن أبدا؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود ، ثم قال : « إِلا ما شاء ربك » من زيادة المدّة التى تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها؛ فبالاعتقاد دام خلودهم فى الدارين أبدا . وقد قيل : إن « إلّا » بمعنى الواو ، قاله الفرّاء وبعض أهل النظر وهو — الثامن — والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة فى الخلود على مدّة دوام السموات والأرض فى الدنيا . وقد قيل فى قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا الذين ظلموا . وقال الشاعر[1] :

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخـوه * لَعمرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدانِ

أى والفرقدان . وقال أبو محمد مكىّ : وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون « إلا » بمعنى الواو ، وقد مضى فى « البقرة»[2] بيانه . وقيل : معناه كما شاء ربك؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» أى كما قد سلف، وهو — التاسع . العاشر — وهو أن قوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إنما ذلك على طريق الاستثناء الذى ندب الشرع إلى استعماله فى كل كلام ؛ فهو على حدّ قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » فهو استثناء فى واجب، وهذا الاستثناء فى حكم الشرط كذلك ؛ كأنه قال : إن شاء ربك، فليس يوصف بمتصل ولا منقطع؛ ويؤيده ويقوّيه قوله تعالى : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » ونحوه عن أبى عُبيد قال : تقدّمت عزيمة المشيئة من الله تعالى

(١) البيت لعمرو بن معدى كرب . وقيل : هو لحضرمى بن عامر . ويجوز أن تكون « إلا » هنا بمعنى غير . قال سيبويه : كأنه قال وكل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه؛ فقد نعت « كلا » بها . (٢) راجع ج ٢ ص ١٦٩ طبعة ثانية .

فى خلود الفريقين فى الدارين ؛ فوقع لفظ الاستثناء ، والعزيمة قد تقدّمت فى الخلود ، قال : وهـذا مثل قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » وقد علم أنهم يدخلونه حتما، فلم يوجب الاستثناء فى الموضعين خيارا ؛ إذ المشيئة قد تقدمت بالعزيمة فى الخلود فى الدارين والدخول فى المسجد الحرام؛ ونحوه عن الفراء. وقول — حادى عشر — وهو أن الأشقياء هم السعداء، والسعداء هم الأشقياء لاغيرهم، والاستثناء فى الموضعين راجع إليهم؛ وبيانه أن « ما » بمعنى « من »، آستثنى الله عز وجل من الداخلين فى النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان ؛ وآستثنى من الداخلين فى الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة، وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثانى ؛ كأنه قال تعالى : فأمّا الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ألّا يخلده فيها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء ، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء ؛ كما روى الضّحاك عن آبن عباس إذ قال : الذين سعِدوا شَقُوا بدخول النار ثم سعِدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائىّ « وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا » بضم السين . وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سَعِدوا أن الأول شَقُوا ولم يقل أشقوا . قال النحاس : ورأيت علىّ بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائىّ « سُعِدوا » مع علمه بالعربية ! إذ كان هذا لحنا لا يجوز؛ لأنه إنما يقال : سَعِد فلان وأسعده الله، وأُسعد مثل أُمرِض؛ وإنما آحتجّ الكسائىّ بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه، ثم يحذف فيه ويسمى به . قال المهدوىّ : ومن ضمّ السين من « سعِدوا » فهو محمول على قولهم : مسعود ، وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا يقال سعده الله، إنما يقال : أسعده الله . وقال الثعلبىّ : « سُعِدوا » بضم السين أى رزقوا السعادة؛ يقال : سُعِد وأُسعِد بمعنى واحد . وقرأ الباقون « سَعِدوا » بفتح

السين قياسا على «شَقُوا» وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقال الجوهرى : والسعادة خلاف الشّقاوة؛ تقول: منه سَعِد الرجل بالكسر فهو سعيد، مثل سَلِمَ فهو سليم، وسُعِد فهو مسعود؛ ولا يقال فيه مُسْعَد، كأنهم ٱستغنوا عنه بمسعود . وقال القُشيرى أبو نصر عبد الرحيم : وقد ورد سَعَده الله فهو مسعود، وأسعده الله فهو مسعد؛ فهذا يقوى قول الكوفيين . وقال سيبويه : لا يقال سُعِد فلان كما لا يقال شُقِىَ فلان؛ لأنه مما لا يتعدّى . ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أى غير مقطوع؛ من جَذّه يَجُذّه أى قطعه؛ قال النّابغة :

تَجُذُّ السَّلُوقِىَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ * وتُوقِدُ بالصُّفّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ (١)

قوله تعالى : ﴿فَلَا تَكُ﴾ جزم بالنهى؛ وحذفت النون لكثرة الاستعمال . ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ أى فى شك . ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ من الآلهة أنها باطل . وأحسن من هذا : أى قل يا محمد لكل من شك « لاتك فِى مِريةٍ مما يعبد هؤلاء » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليدا لهم . ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها — نصيبهم من الرزق؛ قاله أبو العالية . الثانى — نصيبهم من العذاب؛ قاله ٱبن زيد . الثالث — ما وُعِدوا به من خير أو شر؛ قاله ٱبن عباس رضى الله عنهما .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الكلمة : أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح؛ ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر . قيل المراد بين المختلفين فى كتاب موسى؛ فإنهم كانوا بين مصدّق ومكذّب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب ، ولكن سبق

(١) البيت للنابغة الذبيانى يصف فيه السيوف . ويروى (ويوقدن) . والسلوق : الدرع المنسوب الى سلوق؛ قرية باليمن . والمضاعف : الذى نسج حلقتين . والصفاح . الحجارة العراض . والحباحب : ذباب له شعاع بالليل ، وقيل : نار الحباحب ما اقتدح من شرر النار فى الهواء بتصادم حجرين .

الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ إن حملت على قوم موسى؛ أى لفى شك من كتاب موسى فهم فى شك من القرآن .

قوله تعالى : وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى إنّ كلا من الأمم التى عددناهم يرون جزاء أعمالهم؛ فكذلك قومك يا محمد . وآختلف القراء فى قراءة ﴿ وإنّ كُلًّا لَمَّا ﴾ فقراء أهل الحرمين — نافع وآبن كثير وأبو بكر معهم — « وَإِنْ كُلًّا » بالتخفيف، على أنها « إن » المخففة من الثقيلة معملة؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه، قال سيبويه : حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول : إنْ زيدا لمنطلقٌ؛ وأنشد قول الشاعر[١] :

* كأنْ ظبيةٌ تَعْطُو إلى وَارِقِ السَّلَمْ *

أراد كأنها ظبية نخفّف ونصب ما بعدها؛ والبصريون يجوزون تخفيف « إنّ » المشدّدة مع إعمالها؛ وأنكر ذلك الكسائىّ وقال : ما أدرى على أى شىء قرئ « وَإِنْ كُلًّا » ! وزعم الفرّاء أنه نصب « كلّا » فى قراءة من خفّف بقوله : « ليوفّينّهم » أى و إن ليوفينهم كلّا؛ وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا : هذا من كبير الغلط ؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأضربنه[٢] . وشدّد الباقون « إنّ » ونصبوا بها « كلّا » على أصلها . وقرأ عاصم وحمزة وآبن عامر « لمّا » بالتشديد، وخفّفها الباقون على معنى : وإن كلّا ليوفينهم، جعلوا « ما » صلة . وقيل : دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ« ما » . وقال الزجاج : لام « لمّا » لام « إنّ » و « ما » زائدة مؤكدة؛ تقول : إن زيدا لمنطلق؛ فإنّ

---

(١) هو : آبن صريم اليشكرى؛ وصدر البيت :

* ويوما توافينا بوجه مقسم *

يجوز نصب الظبية بكأن شبيها بالفعل إذا حذف وعمل، والخبر محذوف لعلم السامع . ويجوز جر الظبية على تقدير : كظبية، وأن زائدة مؤكدة . (٢) قال الطبرى : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام اليمين اسما قبلها .

تقتضي أن يدخل على خبرها أو آسمها لام كقولك : إنّ الله لغفـور رحيم ، وقـوله : « إن في ذلك لذكرى » . واللام في « ليوفينهم » هي التي يُتلقّى بها القسم ، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشـدّدة أو المخففة ؛ ولما اجتمعت اللامان فصـل بينهما بـ« ما » و « ما » زائدة مؤكدة . وقال الفـراء : « ما » بمعنى « مَن » كقوله : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ » أي و إنّ كلّا لمن ليوفينهم ، واللام في « ليوفينهم » للقسم ؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج ، غير أن « ما » عند الزجاج زائدة وعنـد الفراء آسم بمعنى « مَن » . وقيـل : ليست بزائدة ، بل هي آسم دخل عليها لام التأكيد ، وهي خبر « إنّ » و « ليوفينهم » جواب القسم ؛ التقدير: و إنّ كلا خَلْق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيـل : « ما » بمعنى « مَن » كقوله : « فَٱنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » أي مَنْ ؛ وهذا كله هو قول الفرّاء بعينه . وأما من شدّد « لمـا » وقرأ « وَإِنَّ كُلًّا لَمَّـا » بالتشديد فيهما — وهو حمزة ومن وافقه — فقيل : إنه لحن ؛ حكى عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز ؛ ولا يقـال : إنّ زيدا إلّا لضربته ، ولا لمّـا لضربته . وقال الكسائي : الله أعلم بهذه القراءة ، وما أعرف لها وجها . وقال أيضا هو وأبو علي الفارسيّ : التشديد فيهما مشكل . قال النحاس وغيره : وللنحويين في ذلك أقوال : الأوّل — أن أصلها « لمن ما » فقلبت النون ميما ، واجتمعت ثلاث ميمات ، فحذفت الوسطى فصارت « لمـا » و « ما » على هذا القول بمعنى « من » تقديره : و إن كلا لمن الذين ؛ كقولهم :

و إنّيَ لَمَّـا أُصْـدِرُ الأمرَ وجهَهُ * إذا هو أَعْيَا بالسَّبيلِ مَصَـادِرُه

وزيّف الزجاج هذا القول ، وقال : « من » آسم على حرفين فلا يجوز حذفه . الثاني — أن الأصل لَمِن ، فحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميمات ، والتقدير : وإنْ كُلًّا لَمِنْ خَلْقٍ ليوفينّهم . وقيل : « لمَّـا » مصدر « لَمَّ » وجاءت بغير تنوين حملا للوصل على الوقف ؛ فهي على هـذا كقوله : « وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّـا » أي جامعا للمـال المأكول ؛ فالتقـدير على هذا : و إن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لمـًّا ؛ أي جامعة لأعمالهم جمعا ، فهو كقولك : قياما لأقومنّ . وقد قرأ الزهري « لمًّـا » بالتشديد والتنوين على هـذا المعنى . الثالث —

أن « لمّا » بمعنى « إلّا » حكى أهل اللغة: سألتك بالله لمّا فعلت، بمعنى إلّا فعلت؛ ومثله قوله تعالى : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى إلا عليها؛ فمعنى الآية : ما كل واحد منهم إلا ليوفينهم؛ قال القُشيرى: وزيّف الزجاج هذا القول بأنه لا نفى لقوله : « وَإِنْ كُلًّا لما » حتى تقدّر « إلا » ولا يقال : ذهب الناس لما زيد. الرابع — قال أبو عثمان المازنى: الأصل وإن كلّا لَمَا بتخفيف « لمّا » ثم ثقلت، كقوله (١) :

لقد خَشِيتُ أَنْ أرى جَدَبًّا * فى عامِنَا ذا بعدَ مَا أَخْصَبَّا

وقال أبو إسحٰق الزجاج : هذا خطأ! إنما يخفّف المثقّل، ولا يثقّل المخفّف. الخامس — قال أبو عبيد القاسم بن سلّام . يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّه لَمًّا إذا جمعته، ثم بنى منه فَعْلَى، كما قرئ «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى » بغير تنوين وبتنوين؛ فالألف على هذا للتأنيث، وتمال على هذا القول لأصحاب الإمالة؛ قال أبو إسحٰق: القول الذى لا يجوز غيره عندى أن تكون مخففة من الثقيلة، وتكون بمعنى « ما » مثل : «إن كل نفسٍ لما عليها حافظ » وكذا أيضا تشدّد على أصلها، وتكون بمعنى « ما » و « لما » بمعنى « إلا » حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين؛ وأن « لما » يستعمل بمعنى « إلا ».

قلت : هذا القول الذى ارتضاه الزّجاج حكاه عنه النحاس وغيره؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له، إلا أن ذلك القول « إِنْ » فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا (١) . وبقيت قراءتان؛ قال أبو حاتم : وفى حرف أبىّ « وَإِنْ كُلٌّ إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ » . وروى عن الأعمش « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا » بتخفيف « إن » ورفع « كل » وبتشديد « لما » . قال النحاس : وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها « إِنْ » بمعنى « ما » لا غير، وتكون على التفسير؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة . ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تهديد ووعيد .

---

(١) البيت لرؤبة.

(١) وردت العبارة الآتية بإحدى النسخ تصويبا لعبارة القرطبي، ومذيلة بكلمة (حاشية) : (صواب ماذكره الشيخ رحمه الله أن يقول : إلا أن هذا القول « إن » فيه نافية والقول المتقدم « إن » فيه مخففة من الثقيلة فافترقا) .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٢)

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره . وقيل : له والمراد أمته؛ قاله السّدى . وقيل : « استقم » اطلب الإقامة على الدّين من الله وآسأله ذلك . فتكون السين سين السؤال، كما تقول : آستغفر الله آطلب الغفران . والآستقامة الآستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال؛ أي فاستقم على آمتثال أمر الله . وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك! قال : " قل آمنت بالله ثم آستقم ". وروى الدّارمي أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال : دخلت على آبن عباس فقلت أوصني! فقال : نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة ، آتبع ولا تبتدع . ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي آستقم أنت وهم؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشّرك ومن بعده ممن آتبعه من أمته . قال آبن عباس : ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشدّ ولا أشق من هذه الآية عليه ؛ ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب! فقال : " شيّبتني هودٌ وأخواتها " وقد تقدم في أوّل السورة . وروى عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال سمعت أبا علي السَّرِيّ[1] يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله! روى عنك أنك قلت : " شيّبتني هودٌ " فقال : " نعم " فقلت له : ما الذي شيّبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ فقال : " لا ولكن قوله : « فاستقم كما أمرت » " . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ ﴾ نهى عن الطّغيان . والطّغيان مجاوزة الحد؛ ومنه « إِنَّا لَمَّا طَغَى ٱلْمَآءُ » . وقيل : أي لا تتجبروا على أحد .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١١٣)

---

(١) في الأصل (الشتوى) وصوب عن (الدر المنثور) .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به؛ قال قتادة : معناه لا تودّوهم ولا تطيعوهم . ابن جريج : لا تميلوا إليهم . أبو العالية : لا ترضوا أعمالهم؛ وكله متقارب. وقال ابن زيد : « الركون هنا الإدهان (١) وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم .

الثانيـــة — قرأ الجمهور «تَرْكَنُوا» بفتح الكاف؛ قال أبو عمرو : هى لغة أهل الحجاز. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وقتادة وغيرهما « تَرْكُنُوا » بضم الكاف؛ قال الفرّاء : وهى لغة تميم وقيس . وجوز قوم رَكَنَ يركَن مثل مَنَعَ يَمْنَع .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قيل : أهل الشرك . وقيل : عامة فيهم وفى العصاة، على نحو قوله تعالى: « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية؛ وقد تقدم . وهذا هو الصحيح فى معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصى من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودّة ؛ وقد قال حكيم (٢) :

عن المرء لا تَسألْ وسَلْ عن قرينهِ * فكلُّ قرينٍ بالمُقارنِ يَقْتدِى

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقِيَّة فقد مضى القول فيها فى « آل عمران » (٣) و « المائدة » (٤) . وصحبة الظالم على التَّقِية مستثناة من النهى بحال الاضطرار . والله أعلم .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ أى تحرقكم بمخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم وموافقتهم فى أمورهم .

قوله تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

(١) الإدهان : المصانعة . (٢) هو طرفة بن العبد . (٣) راجع ج ٤ ص ٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ٦ ص ٢١٧ طبعة أولى أو ثانية .

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان ، وإليها يُفزع في النوائب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه[1] أمر فزع إلى الصلاة . وقال شيوخ الصّوفية : إن المراد بهذه الآية ٱستغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا ؛ قال ٱبن العربي : وهذا ضعيف ، فإن الأمر لم يتناول ذلك لا واجبا [فإنها خمس صلوات[2] و] لا نفلا فإن الأوراد معلومة ، وأوقات النوافل المرغب فيها محصورة ، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الندب على البدل لا على العموم ، وليس ذلك في قوة بشر .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ قال مجاهد : الطّرف الأول صلاة الصبح ، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر ؛ واختاره ٱبن عطية . وقيل : الطّرفان الصبح والمغرب ؛ قاله ٱبن عباس والحسن . وعن الحسن أيضا : الطّرَف الثاني العصر وحده ؛ وقاله قَتادة والضّحاك . وقيل : الطّرَفان الظهر والعصر . والزُّلَف المغرب والعشاء والصّبح ؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة . وحكى الماوردي أن الطّرَف الأول صلاة الصبح باتفاق .

قلت : وهذا الاتفاق ينقضه القول الذي قبله . ورجح الطَّبَري أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر ؛ قال ٱبن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال ٱبن العربي : والعجب من الطَّبَري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرَفا الليل ! فقَلَب القوس رَكْوَة[3] ، وحاد عن البُرْجاس[4] غَلْوة ؛ قال الطَّبَري : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطّرَفين الصّبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ؛ ولم يجمع معه على ذلك أحد .

---

(١) (حزبه) : نزل به مهم ، أو أصابه غم . (٢) الزيادة عن ٱبن العربي . (٣) لفظ المثل كما في الصحاح وغيره (صارت القوس ركوة) و يضرب في الأدبار وانقلاب الأمور . (٤) البرجاس (بالضم) : غرض على رأس رمح أو نحوه مولد . والغلوة : قدر رمية بسهم .

قلت : هـذا تحامل من ابن العربى فى الرد ، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد ؛ وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح ، وقد وقع الاتفاق — إلا من شذ — بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمدا أن يومه ذلك يوم فطر ، وعليه القضاء والكفارة ، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار ؛ فدلّ على صحة ما قاله الطبرى فى الصبح ؛ وتبقى عليه المغرب والردّ عليه فيه ما تقدّم . والله أعلم .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أى فى زلف من الليل ، والزّلف الساعات القريبة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المزدلفة ؛ لأنها منزل بعد عَرَفة بقرب مكة . وقرأ ابن القَعْقاع وابن أبى إسحق وغيرهما « وزُلُفًا » بضم اللام جمع زَلِيف لأنه قد نطق بزليف ، ويجوز أن يكون واحده « زُلُفة » لغـة ؛ كبُسُرة وبُسُر، فى لغة من ضمّ السين . وقرأ ابن محيصن « وَزُلْفًا » من الليـل بإسكان اللام ؛ والواحدة زُلْفة تجمـع جمع الأجناس التى هى أشخاص كدُرّة ودُرّ وبُرّة وبُرّ . وقرأ مجاهـد وابن مُحيصن أيضا « زُلْفَى » مثل قُربى . وقرأ الباقون « وزُلَفًا » بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف . قال ابن الأعرابى : الزّلف الساعات، واحدها زُلْفة . وقال قوم : الزّلفة أول ساعة من الليل بعـد مغيب الشمس ؛ فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صـلاة العَتَمة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيـل : المغرب والعشاء والصبح ؛ وقد تقدّم . وقال الأخفش يعنى صلاة الليل ولم يعيّن .

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين إلى أن الحسنات هاهنا هى الصلوات الخمس . وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ قال ابن عطية : وهذا على جهة المثال فى الحسنات، والذى يظهـر أن اللفظ عام فى الحسنات خاص فى السيئات ؛ لقـوله صلى الله عليه وسلم : " ما اجتنبتَ الكبائر " .

قلت : سبب النزول يعضـد قول الجمهور ؛ نزلت فى رجل من الأنصار، قيـل : هو أبو اليَسَر بن عمرو . وقيل : اسمه عباد؛ خلا بامرأة فقبّلها وتلذّذ بها فيما دون الفرج . روى

الترمذى" عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبى" صـلى الله عليه وسلم فقال : " إنى عالجتُ امرأة فى أقصى المدينة و إنى أصبت منها ما دون أن أَمَسَّها وأنا هـذا فاقضِ فى" ما شئت " فقال له عمر : لقد سترك الله! لو سترت على نفسك؛ فلم يردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه ، فتلا عليه : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » إلى آخر الآية ؛ فقال رجل من القوم : هذا له خاصة؟ قال : " [لا][1] بل للناس كافة ". قال الترمذى" : حديث حسن صحيح . وخرّج أيضا عن آبن مسعود أن رجلا أصاب من آمرأة قبـلةَ حرامٍ فأتى النبى صـلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فنزلت « أَقِمِ الصلاة طرفيِ النهارِ وزلفا مِن الليلِ إِن الحسناتِ يذهِبن السيئاتِ » فقال الرجل : أَلِى هذه يا رسول الله ؟ فقال : " لك ولمن عمل بها من أمّتى " . قال الترّمذى" : هذا حديث حسن صحيح . ورَوى عن أبى اليَسَر قال : أتتنى آمرأة تبتاع تمرا فقلت : إن فى البيت تمرا أطيب من هذا فدخلت معى فى البيت فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : آستر على نفسك وتُبْ ولا تُخْبر أحدا فلم أصبر ؛ فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : آسـتر على نفسك وتُبْ ولا تُخـبر أحدا فلم أصبر ؛ فأتيت رسول الله صـلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : " أَخَلَفتَ غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هـذا " حتى تمنى أنه لم يكن أسـلم إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه « أَقِمِ الصلاة طرفيِ النهارِ وزلفا مِن الليـلِ إِن الحسناتِ يذهِبن السيئاتِ ذلِك ذِكرى لِلذا كِرِين » . قال أبو اليَسَر : فأتيته فقرأها علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يارسول الله! ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال : " بل للناس عامة " . قال أبو عيسى : هـذا حديث حسن غريب[2] ، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره؛ وقد روى أن النبى" صلى الله عليه وسلم أعرض عنه ، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له :

---

(١) الزيادة عن الترمذى .	(٢) الذى فى صحيح الترمذى" (صحيح) بدل (غريب) .

" أشهدت معنا الصــلاة " قال نعم ؛ قال : " آذهب فإنها كفارة لما فعلت " . وروى أن النبيّ صـلى الله عليه وسلم لما تلا عليه هذه الآية قال له : " قم فصل أربع ركعات ". والله أعلم . وخرج الترمذيّ الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث آبن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم ، « إن الحسناتِ يذهبن السيئاتِ ذلك ذِكرى لِلذاكِرين » " .

الخامســـة — دلت الآية مع هـذه الأحاديث على أن القبـلة الحرام واللمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ ؛ وقـد يستدل به على أن لا حدّ ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وجدا فى ثوب واحد، وهو آختيار ابن المنذر ؛ لأنه لما ذكر آختلاف العلماء فى هذه المسئلة ذكر هـذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شىء ، وسيأتى ما للعلماء فى هـذا فى « النور »(١) إن شاء الله تعالى .

السادســـة — ذكر الله سبحانه فى كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : « أقِمِ الصلاة » الآية . وقال : « أقِمِ الصـلاة لِدلوكِ الشمسِ » الآية . وقال : « فسبحان اللهِ حِين تمسون وحِين تصبِحون . وله الحمد فِى السمواتِ والأرضِ وعشِيا وحِين تظهِرون » . وقال : « وسبح بِحمـدِ ربك قبل طلوعِ الشمسِ وقبـل غروبِها » . وقال : « واركعوا واسجدوا » . وقال : «وقوموا للهِ قانِتِين» . وقال: « وإذا قرِئ القرآن فاستمعوا له وأنصِتوا » على ما تقدّم . وقال : « ولا تجهر بِصلاتِك ولا تخافِت بِها» أى بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله فى كتابه، وأحال على نبيه فى بيانه ؛ فقال جل ذكره : « وأنزلنا إليـك الذكر لِتبين لِلنـاسِ ما نزل إليهـم » فبيّن صلى الله عليه وسـلم مواقيت الصـلاة ، وعدد الركعات والسّجدات ، وصـفة جميع الصلوات فرضها وسنتها ، وما لا تصـح إلا به من الفرائض ، وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال فى صحيح البخارى : "صلّوا كما رأيتمونى أصلى". ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى

(١) راجع المسئلة السابعة فى تفسير آية ٢ .

بيّن جميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فكمل الدِّين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا».

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ أى القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى. والذكرى مصدر جاء بألف التأنيث.

قوله تعالى: وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أى على الصلاة؛ كقوله: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا». وقيل: المعنى وٱصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعنى المصلين.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ أى هلا كان. ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أى من الأمم التى قبلكم. ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ أى أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر. ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم. ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات؛ وهذا توبيخ للكفار. وقيل: لولا هاهنا للنفى؛ أى ما كان من قبلكم؛ كقوله: فلولا كانت قرية آمنت أى ما كانت. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء منقطع؛ أى لكن قليلا. ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نهوا عن الفساد فى الأرض. قيل: هم قوم يونس؛ لقوله: «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ». وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق. ﴿وَٱتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى أشركوا وعصوا. ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أى من الاشتغال بالمال واللذات، و إيثار ذلك على الآخرة. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ أى أهـل القرى . ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك وكفر . ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أى فيما بينهم فى تعاطى الحقوق؛ أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليـه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان ، وقوم لوط باللواط ؛ ودل هـذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشّرك ، و إن كان عذاب الشّرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح التّرمذىّ من حديث أبى بكر الصّدّيق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنـده" وقد تقـدّم[1] . وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلما لهم ونقصا من حقهـم؛ أى ما أهلك قوما إلا بعـد إعذار و إنذار . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمـه و إن كان على نهاية الصلاح ؛ لأنه تصرف فى ملكه؛ دليله قوله : « إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال سعيد بن جُبير : على ملّة الإسلام وحدها . وقال الضّحاك : أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى . ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أى على أديان شتى؛ قاله مجاهـد وقَتَادة . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ استثناء منقطع؛ أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهـدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختلفين فى الرزق، فهذا

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

غنيّ وهذا فقير «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» بالقناعة؛ قاله الحسن. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء: إيماء الإشارة للاختلاف؛ أى وللاختلاف خلقهم. وقال ابن عباس ومجاهد وقَتادة والضّحاك: ولرحمته خلقهم؛ وإنما قال: «ولذلك» ولم يقل ولتلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضا فإن تأنيث الرحمة غير حقيقى، فحملت على معنى الفضل. وقيل: الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة، وقد يشار بـ«ذلك» إلى شيئين متضادين؛ كقوله تعالى: «لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ» ولم يقل بين ذينك ولا تينك، وقال: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا» وقال: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا» وكذلك قوله: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أى ولِما ذُكر خَلَقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب: سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السّعير؛ أى خَلَق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة. وروى عن ابن عباس أيضا قال: خَلَقهم فريقين، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه. قال المهدوىّ: وفى الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير؛ المعنى: ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم. وقيل هو متعلق بقوله: «ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» والمعنى: ولشهود ذلك اليوم خَلَقهم. وقيل هو متعلق بقوله: «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ» أى للسّعادة والشّقاوة خلقهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ معنى «تمت» ثبت ذلك كما أخبر وقدّر فى أزله؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التغيير والتبديل. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ «مِن» لبيان الجنس؛ أى من جنس الجِنة وجنس الناس. «أجمعين» تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه أنه يملأ جنته بقوله: "ولكل واحدة منكما مِلؤها". خرجه البخارىّ من حديث أبى هُريرة وقد تقدّم.

قوله تعالى : وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ « كلا » نصب بـ« نقص » معناه وكلّ الذى يحتاج إليه من أنباء الرسل نقصّ عليك . وقال الأخفش : « كُلًّا » حال مقدمة، كقولك : كُلًّا ضربت القوم . ﴿ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ﴾ أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : نزيدك به تثبيتا و يقينا . وقال ابن عباس : ما نشدّ به قلبك . وقال ابن جُريج : نُصبّر به قلبك حتى لا تجزع . وقال أهل المعانى : نُطيّب، والمعنى متقارب . و « ما » بدل من « كلا » المعنى : نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ أى فى هذه السورة ؛ عن ابن عباس وأبى موسى وغيرهما ؛ وخصّ هذه السّورة لأنّ فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصّها بالذّكر تأكيدا و إن كان الحقّ فى كلّ القرآن . وقال قَتادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيا يريد النبوة . ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الموعظة ما يُتّعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة ؛ وهذا تشريف لهذه السّورة ؛ لأن غيرها من السّور قد جاء فيها الحقّ والموعظة والذّكرى ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التّخصيص . « وذِكرى للمؤمنين » أى يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتو بون ؛ وخصّ المؤمنين لأنهم المتّعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعالى : وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديد ووعيد. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ. وَٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ تهديد آخر، وقد تقدّم معناه .

قوله تعـالى : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى غيبهما وشهادتهما؛ فحذف لدلالة المعنى . وقال ابن عباس : خزائن السموات والأرض . وقال الضحّاك : جميع ما غاب عن العباد فيهما . وقال الباقون : غيب السموات والأرض نزول العـذاب من السماء وطلوعه من الأرض . وقال أبو على الفارسىّ : « وِلِلهِ غيب السمواتِ والأرضِ » أى عِلم ما غاب فيهما؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسـعا ؛ لأنه حذف حرف الجر؛ تقول : غبت فى الأرض وغبت ببـلد كذا . ﴿وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أى يوم القيـامة؛ إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه . وقرأ نافع وحفص «يُرْجَعُ» بضم الياء وفتح الجيم؛أى يُردّ . ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أى ٱلجأ إليه وثِق به .﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أى يجازى كلّا بعمله . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبـة . الباقون بياء على الخبر . قال الأخفش سعيد : «يعملون» إذا لم يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم معهم؛قال : وقال بعضهم «تعملون» بالتاء لأنه خاطب النبى صلى الله عليه وسلم وقال : قل لهم « وما ربك بِغافِلٍ عما تعملون » . وقال كعب الأحبار : خاتمة التوراة خاتمة « هــود » من قوله : « ولِلهِ غيب السمواتِ والارض » إلى آخر السورة . تمت سورة « هود » ويتلوها سورة « يوسف » عليه السلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

سـورة يوسـف عليه السلام

وهى مكية كلها . وقال ٱبن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصّة يوسف فنزلت السّورة ؛ وسيأتى . وقال سعد ٱبن أبى وقّاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا ؛ فنزل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدّثتنا ؛ فأنزل : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » . قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن وكرّرها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصّة يوسف ولم يكرّرها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرّر ، ولا على معارضة غير المتكرّر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓر ﴾ تقدّم القول فيه(١) ، والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقيل : « الٓر » ٱسم السورة ؛ أى هذه السورة المسماة « الر » . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى القرآن المبين ؛ أى المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه وهُداه و بركته . وقيل : أى هذه تلك الآيات التى كنتم توعدون بها فى التّوراة .

قوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربيا ؛ نصب « قرآنا » على الحال ؛ أى مجموعا . و « عربيّا » نعت لقوله قرآنا . ويجوز أن يكون توطئة للحال ، كما تقول : مررت بزيد رجلا صالحا ، و « عربيّا » على الحال ،

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أى يقرأ بلغتكم يا معشر العرب . أَعْرَبَ بَيَّنَ ، ومنه "الثَّيِّبُ تُعرِب عن نفسها" .
﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى لكى تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه . وبعض العرب يأتى بأن مع « لعل » تشبيها بعسى . واللام فى « لعل » زائدة للتوكيد ؛ كما قال الشاعر[1] :

* يا أَبَتَا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكَا *

وقيل : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لتكونوا على رجاء من تدبّره ؛ فيعود معنى الشّك إليهم لا إلى الكتاب ، ولا إلى الله عز وجل . وقيل : معنى « أنزلناه » أى أنزلنا خبر يوسف ؛ قال النحاس : وهذا أشبه بالمعنى ؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما فى التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم . فكان هذا للنبى صلى الله عليه وسلم — إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتابا ولا هو فى موضع كتاب — بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتى فيه .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ بمعنى المصدر ، والتقدير : قصصنا أحسن القَصَص . وأصل القَصَص تتبع الشىء ، ومنه قوله تعالى : « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أى تتبعى أثره ؛ فالقاصّ يتبع الآثار فيخبر بها . والحسن يعود إلى القَصَص لا إلى القصّة . يقال : فلان حسن الاقتصاص للحديث أى جيّد السّياقة له . وقيل : القَصَص ليس مصدرا ، بل هو فى معنى الاسم ، كما يقال : الله رجاؤنا ، أى مرجونا ؛ فالمعنى على هذا : نحن نخبرك بأحسن الأخبار . ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى بوحينا فـ « ما » مع الفعل بمنزلة المصدر . ﴿ هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾ نصب القرآن على أنه نعت لهذا ، أو بدل منه ، أو عطف بيان . وأجاز الفراء الخفض ؛ قال : على التكرير ؛ وهو عند البصريين على البدل من « ما » .

---

(١) الرجز للعجاج ؛ وصدر البيت .

* تقول بِنتى قد أَنَى أناكا *

وأجاز أبو إسحق الرفع على إضمار مبتدأ ؛ كأن سائلا سأله عن الوحى فقيل له : هو القرآن .
﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى من الغافلين عما عرّفناك .

مسئلة — واختلف العلماء لم سُميت هذه السورة أحسن القَصص من بين سائر الأقاصيص؟ فقيل : لأنه ليست قصّة فى القرآن تتضمن من العبر والحِكم ما تتضمن هذه القصّة ؛ وبيانه قوله فى آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » . وقيل : سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم — بعد إلتقائهم — عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه فى العفو عنهم ، حتى قال : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجنّ والإنس والأنعام والطّير ، وسير الملوك والممالك ، والتّجار والعلماء والجهّال ، والرجال والنّساء وحِيلهنّ ومكرهنّ ، وفيها ذكر التّوحيد والفقه والسِّيَر وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجمل الفوائد التى تصلح للدّين والدّنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أحسن » هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعانى : إنما كانت أحسن القَصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وآمرأة العزيز ؛ قيل : والملك أيضا أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيما يقال ؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ « إذ » فى موضع نصب على الظرف ؛ أى اذكر لهم حين قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . وقرأ طلحة آبن مُصَرِّف « يُؤْسِف » بالهمزة وكسر السين . وحكى أبو زيد « يُؤْسَف » بالهمزة وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمىّ ؛ وقيل : هو عربىّ . وسئل أبو الحسن الأقطع — وكان حكيما — عن « يوسف » فقال : الأسف فى اللغة

الحزن، والاسيف العبد، وقد اجتمعا فى يوسف؛ فلذلك سُمى يوسف. ﴿لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ بكسر التاء قراءة أبى عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائى، وهى عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأب فى النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التأنيث على المذكر فيقال: رجل نُكَحة وهُزَأة؛ قال النحاس: إذا قلت «يَا أَبَتِ» بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل: منها — أن قولك: «يا أبه» يؤدّى عن معنى «يا أبى»؛ وأنه لا يقال: «يا أبت» إلا فى المعرفة؛ ولا يقال: جاءنى أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا فى النداء خاصة، ولا يقال «يا أبتى» لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: «يا أبتِ» فكسر دل على الياء لاغير؛ لأن الياء فى النية. وزعم أبو إسحق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء فى النية وليس يقال: «يا أبتى»؟! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر «يا أبتَ» بفتح التاء؛ قال البصريون: أرادوا «يا أبتى» بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت «يا أبتا» فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء. وقيل: الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال: يا غلاما أقبل. وأجاز الفراء «يا أبتُ» بضم التاء. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ليس بين النحويين اختلاف أنه يقال: جاءنى أحدَ عشرَ، ورأيت ومررت بأحدَ عشرَ، وكذلك ثلاثةَ عشرَ وتسعةَ عشرَ وما بينهما؛ جعلوا الاسمين اسما واحدا وأعربوهما بأخفّ الحركات. قال السّهيلىّ: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسندا؛ رواه الحرث بن أبى أسامة قال: جاء بستانة — وهو رجل من أهل الكتاب — فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الأحد عشر كوكبا الذى رأى يوسف فقال: الحرثان والطارق والذيال وقابس والمصبح والضروح[1] وذو الكنفات وذو القرع والفليق ووثاب والعمودان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له. قال ابن عباس وقَتَادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه. وقال قَتَادة أيضا: الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت

---

(١) كذا فى «عقد الجمان» للعينى، وفى الأصل «النطح».

أبيه . ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾ توكيد . وقال : « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » فجاء مذكرا ؛ فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسّجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عمن يعقل . وقد تقدّم هذا المعنى في قوله : « وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » . والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعالى : قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

فيه إحدى عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أي يحتالوا في هلاكك ؛ لأن تأويلها ظاهر ؛ فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ . واللام في « لك » تأكيد ، كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » .

الثانية — الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُرى له". وقال : "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا" . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وروي "من سبعين جزءا" . وروي من حديث ٱبن عباس رضي الله عنهما "جزء من أربعين جزءا من النبوة". ومن حديث ٱبن عمر "جزء من تسعة وأربعين جزءا". ومن حديث العباس "جزء من خمسين جزءا من النبوة". ومن حديث أنس "من ستة وعشرين" وعن عُبادة بن الصّامت "من أربعة وأربعين من النبوة". والصحيح منها حديث الستة والأربعين ، ويتلوه في الصحة حديث السبعين ؛ ولم يخرج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين ، وأما سائرها فمن أحاديث الشيوخ ؛ قاله ٱبن بطّال . قال أبو عبد الله المازَرِيّ : والأكثر والأصح عند أهل الحديث "من ستة وأربعين" . قال الطّبريّ : والصواب أن

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله : "إنها جزء من سبعين جزءا من النبوّة" فإن ذلك قول عام فى كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها فى منامه على أى أحواله كان؛ وأما قوله : "إنها من أربعين - أو - ستة وأربعين" فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التى ذكرت عن الصدّيق - رضى الله عنه - أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء فى السَّبَرات(١)، والصبر فى الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة - إن شاء الله - جزء من أربعين جزءا من النبوة، ومن كانت حاله فى ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين الجزءين؛ ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال : اختلاف الآثار فى هذا الباب فى عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندى اختلاف تضاد وتدافع - والله أعلم - لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدِّين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن خلصت نيته فى عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوّة أقرب؛ كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى : «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ» .

قلت : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه؛ ذكر أبو سعيد الأَسْفاقِسِىّ عن بعض أهل العلم قال : معنى قوله : "جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة" فإن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فى النبوة ثلاثة وعشرين عاما - فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما - فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا؛ وإلى هذا القول أشار المازَرِىّ فى كتابه «المعلم»، واختاره القونوىّ فى تفسيره من سورة «يونس» عند قوله تعالى : «لهم البشرى» . وهو فاسد من وجهين : أحدهما - ما رواه

---

(١) السبرات (جمع سبرة) بسكون الباء : شدة البرد .

أبو سَلَمة عن ٱبن عباس وعائشة أن مدّة الوحى كانت عشرين سنة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشر سنين ؛ وهو قول عروة والشعبيّ وابن شهاب والحسن وعطاء الخراسانى وسعيد بن المسيّب على ٱختلاف عنه ، وهى رواية ربيعة وأبى غالب عن أنس ، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل : الثانى — أن سائر الأحاديث فى الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى .

الثالثة — إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوّة ؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران ، وقلب الأعيان ، والاطلاع على شىء من علم الغيب ؛ كما قال عليه السلام : " إنه لم يبق من مبشِّرات النبوّة إلا الرؤيا الصادقة فى النوم " الحديث . وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله ، وأنها من النبوّة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا من الله والحُلْم من الشيطان " وأن التصديق بها حقّ ، ولها التأويل الحسن ، وربما أغنى بعضها عن التأويل ، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن فى إيمانه ؛ ولا خلاف فى هذا بين أهل الدّين والحقّ من أهل الرأى والأثر ، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشِرذمة من المعتزلة .

الرابعة — إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوّة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلِّط أهلا لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة ؛ كمنام رؤيا الملِك الذى رأى سبع بقرات ، ومنام الفتيين فى السجن ، ورؤيا بُخْتُنَصَّر ، الذى فسّرها دانيال فى ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى فى ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنام عاتكة ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره وهى كافرة ، وقد ترجم البخاريّ « باب رؤيا أهل السجن » فالجواب — أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم فى بعض الأوقات لا تكون من الوحى ولا من النبوّة ؛ إذ ليس كل من صدق فى حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوّة ؛ وقد تقدّم فى « الأنعام »[1] أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق ، لكن ذلك على الندور والقلة ، فكذلك رؤيا هؤلاء ؛ قال المهلّب : إنما ترجم البخاريّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٣ وما بعدها طبعة أولى .

بهذا الجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوّة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوّة .

الخامسة — الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هى التى خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما فى اللوح المحفوظ، والتى هى من خبر الأضغاث هى الحُلْم، وهى المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضِغثا؛ لأن فيها أشياء متضادة؛ قال معناه المهلَّب . وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما تغنى عن قول كل قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم ومنها ما يهتم به فى يقظته فيراه فى منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة". قال قلت : سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم! سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ الآية . الرؤيا مصدر رأى فى المنام رؤيا على وزن فُعلى كالسُّقْيا والبُشْرى؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف . وقد اختلف العلماء فى حقيقة الرؤيا؛ فقيل : هى إدراك فى أجزاء لم تحلّها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا فى آخر الليل لقلة غلبة النوم، فيخلق الله تعالى للرائى علما ناشئا، ويخلق له الذى يراه على ما يراه ليصح الإدراك، قال ابن العربى : ولا يرى فى المنام إلا ما يصح إدراكه فى اليقظة، ولذلك لا يرى فى المنام شخصا قائما قاعدا بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات . وقيل : إن لله ملَكا يعرض المرئيات على المحل المدرِك من النائم، فيمثل له صورا محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع فى الوجود، وتارة تكون لمعانى معقولة غير محسوسة، وفى الحالتين تكون مبشرة أو منذرة؛ قال صلى الله عليه وسلم فى صحيح مسلم وغيره : "رأيتُ سوداء[1] ثائرةَ الرأسِ تخرج من المدينة إلى مَهْيَعة[2] فأوّلتُها الحُمَّى".

---

(١) أى امرأة سوداء، كما فى رواية النسائى .　　(٢) المهيعة : هى الجحفة، ميقات أهل الشام .

و "رأيت سيفى قد آنقطع صدرُه و بَقَرا تُنحر فأولتُهما رجلٌ من أهل بيتى يُقتل والبقر نفر من أصحابى يُقتلون". و"رأيت أنى أدخلت يدى فى دِرعٍ حصينة فأولتها المدينة". و"رأيت فى يدىّ سُوَارين فأولتُهما كذّابين يَخرجان بعدى". إلى غير ذلك مما ضربتُ له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلا ، ومنها ما لا يظهر إلا بعـد الفكر؛ وقد رأى النائم فى زمن يوسـف عليه السلام بقرا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبو يه .

السابعـة — إن قيل : إن يوسف عليه السلام كان صغيرا وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه : « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ » ؟ فالجواب — أن الرؤيا إدراك حقيقةٍ على ما قدّمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيق فى اليقظة، و إذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى فى المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا آعتراض ؛ روى أن يوسف عليه السلام كان آبن آثنتى عشرة سنة .

الثامنـة — هـذه الآية أصل فى ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيهـا ؛ روى أبو رَزِين العُقَيلىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : "الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدّث بهـا صاحبها فإذا حدّث بها وقعت فلا تحدّثوا بها إلا عاقلا أو محبا أو ناصحا" أخرجه الترمذىّ وقال فيه : حديث حسن صحيح؛ وأبو رَزِين آسمه لَقيط بن عامر. وقيل لمـالك : أيعبر الرؤيا كلّ أحد؟ فقال : أَبِالنبوة يُلعب ؟ وقال مالك : لا يعبّر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيرا أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت؛ قيل : فهل يعبّرها على الخير وهى عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليـه ؟ فقال : لا ! ثم قال : الرؤيا جزء من النبوّة فلا يتلاعب بالنبوّة .

التاسـعة — وفى هذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذّر المسـلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلا فى معنى الغيبة؛ لأن يعقوب — عليه السلام — قد حذّر يوسف أن

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ؛ وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " استعينوا على [إنجاح][1] حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود ". وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه ؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه . ويدل أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه ؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تَغِلّ بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة فى هلاكه ؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء فى ذلك الوقت ، ووقع فى كتاب الطّبرىّ لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوىّ، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك ، والتآمر فى قتله ، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبيّ ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعا من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا فى الصغائر على ما تقدّم ويأتى .

العاشرة — روى البخارىّ عن أبى هُريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لم يبق من النبوّة إلا المبشِّرات" قالوا : وما المبشِّرات ؟ قال : " الرؤيا الصالحة" وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك ؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيها ، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأولها بنفسه ، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك . وقد رأى الشافعى رضى الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حَنْبل تدل على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك ، وقد تقدّم فى « يونس » فى تفسير قوله تعالى : «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخارىّ مخرجه على الأغلب، والله أعلم .

---

(١) الزيادة عن « الجامع الصغير » .

الحادية عشرة — روى البخارى عن أبى سَلَمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت أبا قَتَادة يقول ، وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدّث بها أحدا فإنها لن تضره ". قال علماؤنا : فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها ؛ ألا ترى قول أبى قَتَادة : إنى كنت لأرى الرؤيا هى أثقل علىّ من الجبل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليتعوّذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحوّل عن جنبه الذى كان عليه " . وفى حديث أبى هُريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل " . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ، وإنما هذا الأمر بالتحوّل ، والصلاة زيادة ، فعلى الرائى أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوّل عن جنبه ، وإذا تمضمض تَفَل وبَصَق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوّذ ودعا وتضرع لله تعالى فى أن يكفيه شرها فى حال هى أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السَّحَر من الليل .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ الكاف فى موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، وكذلك الكاف فى قوله : « كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ » و « ما » كافة . وقيل : « وكذلك » أى كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنبوّة . والاجتباء اختيار معالى الأمور للمجتبَى ، وأصله من جَبَيتُ

الشيء أى حصّلته ، ومنه جَبيتُ الماء فى الحوض ؛ قاله النحاس . وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام ، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التى آتاه الله تعالى ؛ التمكين فى الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث ؛ وأجمعوا أن ذلك فى تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شدّاد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة ؛ وذلك منتهى الرؤيا . وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناس فى المنام ، وهى معجزة له ؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك ، وكان الصدّيق رضى الله عنه من أعبر الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيّب فيما ذكروا . وقد قيل فى تأويل قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أى أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوّة ، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى بالنبوّة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك ؛ وقيل : بإنجائك من كل مكروه . ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بالخُلّة ، و إنجائه من النار ﴿ وَإِسْحَقَ ﴾ بالنبوّة . وقيل : من الذّبح ؛ قاله عكرمة . وأعلمه الله تعالى بقوله : ﴿ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أنه سيعطى بنى يعقوب كلهم النبوّة ؛ قاله جماعة من المفسرين . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بما يعطيك . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى فعله بك .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ يعنى من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة « آيةٌ » على التوحيد ؛ واختار أبو عبيد « آياتٌ » على الجمع ؛ قال : لأنها خبر كثير . قال النحاس : و « آية » هنا قراءة حسنة ، أى لقد كان للذين سألوا عن خبر

يوسف آية فيما خبّروا به؛ لأنهم سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج آبنـه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى؟ — ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء؛ وإنما وجّه اليهودُ من المدينة يسألونه عن هذا — فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة؛ فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة؛ فكان ذلك آية للنبيّ صلى الله عليـه وسلم، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . « آيات » موعظة؛ وقيـل : عبرة . وروى أنها فى بعض المصاحف « عبرة » . وقيل : بصيرة . وقيل : عجب ؛ تقول فلان آية فى العـلم والحسن أى عجب . قال الثعلبيّ فى تفسيره : لمـا بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه؛ قال آبن زيد : كانوا أنبياء، وقالوا : ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فبغوه بالعداوة، وقد تقدّم ردّ هذا القول. قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ وأسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويساخر، وأمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر؛ دان ونفتالى وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب آثنى عشر رجلا . قال السّهيلى : وأُمّ يعقوب آسمها رفقا، وراحيل ماتت فى نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب. وقيل : فى آسم الأَمَتين ليـا وتلتا ، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليـا ، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب ، وكان يعقوب قد جمع بينهما ، ولم يحل لأحد بعده ؛ لقول الله تعـالى : «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» . وقد تقدّم الردّ على ما قاله آبن زيد، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ ﴾ « يُوسُفُ » رفع بالابتداء ، واللام للتأكيد ، وهى التى يتلقى بها القسم ؛ أى والله ليوسف . ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ عطف عليه . ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ خبره ، ولا يثنّى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل؛ وإنما قالوا هـذا لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا فى كيده . ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أى جماعة، وكانوا عشرة . والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل : إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين الأربعين إلى العشرة؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر

والزهد . ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ لم يريدوا ضلال الدّين، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا؛ بل أرادوا لفى ذهاب عن وجه التدبير، فى إيثار آثنين على عشرة مع آستوائهم فى الآنتساب إليه . وقيل : لفى خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا .

قوله تعالى : ﴿ ٱقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى قال قائل منهم : « ٱقتلوا يوسف » ليكون أحسم لمادة الأمر . ﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ أى فى أرض، فأسقط الخافض وانتصب الأرض؛ وأنشد سيبويه فيما حذف منه « فى » :

لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ * فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ (١)

قال النحاس : إلا أنه فى الآية حسن كثير؛ لأنه يتعدّى إلى مفعولين، أحدهما بحرف، فإذا حذفت الحرف تعدّى الفعل إليه . والقائل قيل : هو شمعون؛ قاله وهب بن منبّه . وقال كعب الأحبار : دان . وقال مقاتل : روبيل؛ والله أعلم . والمعنى أرضا تبعد عن أبيه؛ فلا بد من هذا الإضمار لأنه كان عند أبيه فى أرض . ﴿ يَخْلُ ﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ معناه : يخلص ويصفو ﴿ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيقبل عليكم بكليته . ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد الذنب، وقيل : من بعد يوسف . ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ أى تائبين؛ أى تُحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم؛ وفى هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صالحين » أى يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل .

قوله تعالى : قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية وقد وصف فيه رمحا لين الهز؛ فشبه اضطرابه فى نفسه أو فى حال هزه بعسلان الثعلب فى سيره؛ والعسلان : سير سريع فى اضطراب . واللدن : الناعم اللين . ويروى : لذ؛ أى مستلذ عند الهز للينه . (شواهد سيبويه) .

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ القائل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب؛ قاله آبن عباس. وقيل: روبيل، وهو آبن خالته، وهو الذى قال : « فلن أبرح الأرض » . وقيل: شمعون . ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « فى غيابة آلجبّ » . وقرأ أهل المدينة « فى غَيَابَاتِ الْجُبِّ » وآختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه على موضع واحد ألقوه فيه ، وأنكر الجمع لهذا . قال النحاس : وهذا تضييق فى اللغة؛ « وغيابات » على الجمع [يجوز من وجهين][1]: حكى سيبويه سِيرَ عليه عشيّاناتٍ وأصيلاناتٍ، يريد عشية وأصيلا، بجعل كل وقت منها عشية وأصيلا ؛ فكذا جعل كل موضع مما يُغيّب غيابة .[والآخر — أن يكون فى الجبّ غيابات (جماعة) . ويقال : غاب يَغيب[1]] غَيْبا وغَيابة وغِيَابا ؛ كما قال الشاعر :

أَلَا فالبَثَا شهرين أو نصفَ ثالثٍ * أَنَا ذَاكُمَا قد غَيَّبَتْنِي غِيَابِيَا

قال الهروى: والغَيابة شبه لَجَفٍ[2] أو طاق فى البئر فويق الماء، يغيّب الشىء عن العين . وقال آبن عزيز : كل شىء غيّب عنك شيئا فهو غَيابة . قلت : ومنه قيل للقبر غَيابة ؛ قال الشاعر :

فإن أنا يومًا غيّبتنى غَيابَتِى * فَسِيروا بسَيْرِى فى العَشِيرةِ والأَهلِ

والجبّ الرَّكِيّة التى لم تُطوَ، فإذا طُويت فهى بئر ؛ قال الأعشى :

لئن كنتَ فى جُبٍّ ثمانين قامةً * ورُقِّيتَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ[3]

وسميت جبّا لأنها قُطعت فى الأرض قَطْعا؛ وجمع الجبّ جِبَبة وجِباب وأَجْباب؛ وجمع بين الغَيابة والجبّ لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجبّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين . قيل :

---

(١) الزيادة عن النحاس . (٢) اللجف : الناحية من الحوض أو البئر يأكله الماء فيصير كالكهف .

(٣) بعده :

لَيستدرجنكَ القولُ حتى تَهِرَّه * وتعلمَ أنى عنكمُ غيرُ ملجَمِ

وتَشرَقَ بالقول الذى قد أذعتَه * كما شرِقت صدرُ القناة من الدمِ

هو بئر ببيت المقدس ، وقيل : هو بالأُرْدُن ؛ قاله وهب بن منبِّه . مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

الثانية — قوله تعالى: ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ جزم على جواب الأمر. وقرا مجاهد وأبو رجاء والحسن وقَتادة : « تَلْتَقِطْهُ » بالتاء ، وهذا محمول على المعنى؛ لأن بعض السيّارة سيّارة؛ وقال سيبويه : سقطت بعض أصابعه، وأنشد (١) :

وتَشْرَقُ بالقولِ الّذى قد أذعتَه * كما شَرِقَتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ

وقال آخر :

أَرَى مَرَّ السِّنينَ أَخَذْنَ منّى * كما أَخَذَ السِّرَارُ (٢) من الهِلَالِ

ولم يقل شَرِق ولا أخذت . والسيّارة الجمع الذين يسيرون فى الطريق للسفر ؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود؛ فإن من التقطه من السيّارة يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هذا وجها فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم، فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم .

الثالثة — وفى هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أوّلا ولا آخرا ؛ لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : كانوا أنبياء ، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبىّ، فكانت هذه زلّة منهم؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدّمناه . وقيل : ما كانوا فى ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله؛ وهذا أشبه، والله أعلم .

الرابعة — قال ٱبن وهب قال مالك: طُرح يوسف فى الجبّ وهو غلام، وكذلك روى ٱبن القاسم عنه، يعنى أنه كان صغيرا؛ والدليل عليه قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ

(١) البيت للأعشى ، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشيبانى ، وكانت بينهما مباينة ومهاجاة؛ فيقول له : يعود عليك مكروه ما أذعت عنى من القول ونسبته إلى من القبيح ، فلا تجد منه مخلصا . والشرق بالماء كالغصص بالطعام .

(٢) سرار الشهر (بفتح السين المهملة وكسرها) وسرره : آخر ليلة منه .

فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ » قال : ولا يلتقط إلا الصغير ؛ وقوله : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ » وذلك يختص بالصغار ؛ وقولهم : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

الخامســة ــ الالتقاط تناول الشيء من الطريق ؛ ومنه اللّقيط واللّقطة، ونحن نذكر من أحكامها ما دلت عليه الاية والسنة، وما قال فى ذلك أهل العلم واللغة ؛ قال آبن عرفة : الالتقاط وجود الشيء على غير طلب؛ ومنه قوله تعالى : « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ » أى يجده من غير أن يحتسبه . وقد آختلف العلماء فى اللّقيط ؛ فقيل : أصله الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ؛ وروى عن الحسن بن على أنه قضى بأن اللّقيط حُرّ، وتلا « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وإلى هـذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهـو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن علىّ وجماعة . وقال إبراهيم النّخَعى : إن نوى رِقه فهـو مملوك، وإن نوى الحِسبة فهو حرّ . وقال مالك فى موطّئه : الأمر عندنا فى المنبوذ أنه حرّ ، وأن ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه، وبه قال الشافعى؛ واحتج بقوله عليه السلام : « وإنما الوَلَاء لمن أعتق » قال : فنفى الوَلَاء عن غير المعتِق . واتفق مالك والشافعى وأصحابهما على أن اللقيط لا يُوالى أحدا، ولا يرثه أحد بالوَلَاء . وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين : اللقيط يوالى من شاء، فمن والاه فهو يرثه ويعقِل عنه ؛ وعند أبى حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء ، ما لم يعقِل عنه الذى والاه، فإن عقل عنه جناية لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبدا . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن علىّ رضى الله عنه : المنبوذ حرّ ، فإن أحبّ أن يوالى الذى التقطه والاه، وإن أحبّ أن يوالى غيره والاه؛ ونحوه عن عطاء، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة ، وهو حرّ . قال آبن العربىّ : إنما كان أصل اللّقيط الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ، فقضى بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذا بالغالب ؛ فإن كان فى قرية فيها نصارى ومسلمون قال آبن القاسم : يحكم بالأغلب ؛ فإن وجد عليه زِىّ اليهود فهو يهودىّ ، وإن وجد عليه زِىّ النّصارى فهو نصرانىّ ، وإلا فهو مسلم ، إلا أن يكون أكثر أهل القرية

على غير الإسلام. وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى لِلقيط بالإسلام تغليبا لحكم الإسلام الذى يعلو ولا يُعلَى عليه ، وهو مقتضى قول أشهب؛ قال أشهب : هو مسلم أبدا ، لأنى أجعله مسلما على كل حال، كما أجعله حرا على كل حال . وآختلف الفقهاء فى المنبوذ تدل البيّنة على أنه عبد؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولها فى ذلك ، و إلى هذا ذهب أشهب لقول عمر هـو حرّ ؛ ومن قضى بحريتـه لم تقبل البيّنة فى أنه عبـد . وقال آبن القاسم : تقبل البيّنة فى ذلك؛ وهو قول الشافعى والكوفى .

السادســة — قال مالك فى اللقيط إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البينة أنه ابنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمدا ، و إن لم يكن طرحه ولكنه ضلّ منه فلا شىء على الأب ، والملتقط متطوع بالنفقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقيط فهو متطوع ، إلا أن يأمره الحاكم . وقال الأوزاعى : كل من أنفق على من لا تجب له عليـه نفقة رجع بمـا أنفق . وقال الشافعى : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته فى بيت المـال ، فإن لم يكن ففيـه قولان : أحدهما — يستقرض له فى ذمتـه . والثـانى — يقسط على المسلمين من غير عوض .

السابعـــة — وأما اللّقطة والضوالّ فقد اختلف العلماء فى حكمهما ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : اللقطة والضوالّ سواء فى المعنى ، والحكم فيهما سواء؛ و إلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوى ، وأنكر قول أبى عُبيد القاسم بن سلّام — أن الضالّة لاتكون إلا فى الحيوان واللّقطة فى غير الحيـوان — وقال هـذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليـه وسلم فى حديث الإفك للمسلمين : « إن أمّكم ضلّت قِلادتُها » فأطلق ذلك على القِلادة .

الثامنـــة — أجمع العلماء على أن اللّقطة مالم تكن تافها يسيرا أو شيئا لا بقاء لها فإنها تُعرَّف حولا كاملا ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحقّ بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّنه فإن ذلك له ، و إن تصدق بها فصاحبها مخير بين التضمين و بين أن ينزل على أجرها ، فأى ذلك تخير كان ذلك له بإجماع ؛

ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول . وأجمعوا أن ضالّة الغنم المخوف عليها أن له أكلها .

التاسعة — وآختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلا على إباحة التقاط اللّقطة وأخذ الضالّة مالم تكن إبلا . وقال في الشاة: "لكَ أو لأخيكَ أو للذئب" يحضّه على أخذها ، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيع أو يأتيه ربه . ولو كان ترك اللّقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال في ضالّة الإبل ، والله أعلم . وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة، إن شاء أخذها وإن شاء تركها؛ هذا قول إسمعيل آبن إسحق رحمه الله . وقال المُزَنيّ عن الشافعي : لا أحب لأحد ترك اللّقطة إن وجدها إذا كان أمينا عليها؛ قال : وسواء قليل اللّقطة وكثيرها .

العاشرة — روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجُهَنيّ قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال : "آعْرِف عِفَاصَها(١) ووِكَاءَها ثم عَرِّفها سنةً فإن جاء صاحبُها وإلا فشأنُكَ بها" قال : فضالّة الغنم يا رسول الله ؟ قال : "لكَ أو لأخيكَ أو للذئب" قال : فضالّة الإبل؟ قال : "ما لَكَ ولَهَا معها سِقاؤُها وحِذاؤُها تَرِدُ الماءَ وتأكل الشجر حتى يلقاها ربُّها" . وفي حديث أُبيّ قال: "آحفظ عَدَدها ووِعاءَها ووِكَاءَها فإن جاء صاحبُها وإلّا فآستمتِع بها" ففي هذا الحديث زيادة العدد؛ خرجه مسلم وغيره . وأجمع العلماء أن عِفاص اللّقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلّها عليها؛ فإذا أتى صاحب اللّقطة بجميع أوصافها دفعت له؛ قال ابن القاسم : يُجبَر على دفعها ؛ فإن جاء مستحق يستحقها ببيّنة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئا ، وهل يحلف مع الأوصاف أو لا ؟ قولان : الأول لأشهب ، والثاني لآبن القاسم ، ولا تلزمه بيّنة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حَنْبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تدفع له إلا إذا أقام بينة أنها له ؛ وهو بخلاف نص الحديث ؛

(١) العفاص : الوعاء الذي يكون به النفقة ، جلدا كان أو غيره . والوكاء هو الخيط الذي يشد به الوعاء . والمراد بالعفاص والوكاء أن يعلم الملتقط صدق واصفها من كذبه ، وبالحذاء خفها ، فهي تقوى بأخفافها على السير وورود الماء والشجر .

ولو كانت البيّنــة شرطا فى الدّفع لمــا كان لذكر العِفاص والوِكاء والعَدَد معنى ؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال ؛ ولمّــا جاز سكوت النبى صلى الله عليــه وسلم عن ذلك ، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة — نص الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما ، وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماؤنا فى البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم ؟ قولان ؛ وكذلك آختلف أئمتنا فى التقاط الخيل والبغال والحمير ، وظاهر قول آبن القاسم أنها تلتقط ، وقال أشهب وآبن كنانة : لا تلتقط ؛ وقول آبن القاسم أصح لقوله عليه السلام : " احفظ على أخيــك المؤمن ضالّتــه " .

الثانية عشرة — وآختلف العلمــاء فى النفقة على الضّوالّ ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه آبن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة ، وسواء أنفق عليهــا بأمر السلطان أو بغير أمره ؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليــه ويكون أحق به كالرهن . وقال الشــافعى : إذا أنفق على الضوالّ مَن أَخَذها فهو متطوع ؛ حكاه عنه الربيع . وقال المُزنىّ عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دينــا ، وما آدّعى قُبِل منه إذا كان مثله قَصْدا . وقال أبو حنيفــة : إذا أنفق على اللّقطة والإبل بغير أمر القاضى فهو متطوع ، وإن أنفق بأمر القاضى فذلك دين على صاحبهــا إذا جاء ، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبهــا . والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر القاضى ببيع الشاة وما أشبهها ويقضى بالنفقة .

الثالثة عشرة — ليس فى قوله صلى الله عليه وسلم فى اللّقطة بعد التعريف : " فآستمتع بها " أو " فشأنك بها " أو " فهى لك " أو " فآستنفقها " أو " ثم كُلْها " أو " فهو مال الله يؤتيه من يشاء " على ما فى صحيح مسلم وغيره ما يدل على التمليك ، وسقوط الضّمان عن الملتقط إذا جاء ربها ؛ فإن فى حديث زيد بن خالد الجُهَنىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : " فإن لم تعرِف[1]

(١) (إن لم تعرف) : أى إن لم تعرف صاحبها .

فاستنفقها ولتكن وديعة عنـدك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأدّها إليه " فى رواية " ثم كُلْها فإن جاء صاحبها فأدها إليه " نخرجه البخارىّ ومسلم . وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللّقطة بعد التعريف ؛ لتلك الظواهر، ولا التفات لقوله ، لمخالفة الناس، ولقوله عليه السلام : " فأدّها إليه " .

قوله تعالى : قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ قيل للحسن : أيحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك ببنى يعقوب ! ولهذا قيـل : الأب جلّاب والأخ سلّاب ؛ فعنـد ذلك أجمعوا على التفريق بينـه وبين ولده بضرب من الاحتيال . وقالوا ليعقـوب : « يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » وقيل : لمـا تفاوضوا وافترقوا على رأى المتكلم الثـانى عادوا إلى يعقوب عليـه السلام وقالوا هـذا القول . وفيـه دليل على أنهم سألوه قبـل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتى . قرأ يزيد بن القَعْقَاع وعمرو بن عُبيد والزّهرىّ « لَا تَأْمَنَّا » بالأدغام، وبغير إشمـام وهو القياس ؛ لأن سـبيل ما يدغم أن يكون ساكنا . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « لَا تَأْمَنُنَا » بنونين ظاهرتين على الأصل . وقرأ يحيى بن وثّاب وأبو رَزِين — وروى عن الأعمش — « لَا تِيمَنَّا » بكسر التاء، وهى لغة تميم ؛ يقولون: أنت تِضرب ؛ وقد تقدّم . وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدل على حال الحرف قبل إدغامه . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أى فى حفظه وغفلته حتى نردّه إليك . قال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا » الآية ؛ فحينئذ قال أبوهم : « إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ » فقالوا حينئذ جوابا لقوله : « مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » الاية . ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ إلى الصحراء ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ « غدا » ظرف ، والأصل عنـد سيبو يه غَدْوٌ ، وقد نطق به على الأصـل ؛ قال النّضر بن شميل : ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غُدْوة ،

وكذا بُكرة . « نرتع ونلعب » بالنون و إسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة « نَرْتَعِ » بالنون وكسر العين . وقراءة أهل الكوفة « يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ » بالياء و إسكان العين . وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين ؛ القراءة الأولى من قول العرب رَتَع الإنسان والبعير إذا أَكَلا كيف شاءا ؛ والمعنى : نتسع فى الخِصب ؛ وكل مخصِب راتع ؛ قال :

* فارْعَىْ[1] فزارةُ لاهَنَاكِ المَرْتعُ *

وقال آخر[2] :

تَرَتَعُ ما غَفَلَتْ حتى إذا ٱدّكرتْ * فإنَّما هى إقبالٌ و إدبارُ

وقال آخر[3] :

أكفرًا بعد رَدِّ الموتِ عنّى * وبعد عَطائِكَ المائةَ الرِّتاعَا

أى الراتعة لكثرة المرعى . وروى مَعْمر عن قَتَادة «ترتع» تسعى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : « إِنا ذهبنا نستبِق » لأن المعنى : نستبق فى العَدْو إلى غاية بعينها ؛ وكذا «يرتع» بإسكان العين، إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . « ويرتع » بكسر العين من رعى الغنم، أى ليتدرب بذلك ويترجّل؛ فمرّة يرتع، ومرة يلعب لصغره . وقال القُتَبىّ « نرتع » نتحارس ونتحافظ، و يرعى بعضنا بعضا؛ من قولك: رعاك الله، أى حفظك . «ونلعب» من اللعب. وقيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف قالوا «ونلعب» وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء. وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط، لا اللعب المحظور الذى هو ضدّ الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « ونلعب » . ومنه قوله عليه السلام: " فهلّا بِكرًا تُلاعبها وتُلاعبك[4] " .

---

(١) فى الأصل (فارعينى) وهو تحريف . (٢) البيت للخنساء من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا . ومعنى (ترتع) ترعى . تصف ناقة أو بقرة فقدت ولدها، فكلما غفلت عنه رتعت، فاذا ادكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ؛ فضربتها مثلا لفقدها أخاها صخرا . (٣) هو القطامى . (٤) الخطاب لجابر بن عبد الله ؛ وذكر ملا على عن الطيبى : أن الملاعبة عبارة عن الألفة التامة، فان الثيب قد تكون معلقة القلب بالزوج الأول، فلم تكن محبتها كاملة، بخلاف البكر .

وقرأ مجاهد وقَتادة : « يُرتِـع »[١] على معنى يُرتِـع مطيته ، فحذف المفعول؛ « و يلعبُ » بالرفع على الاستئناف ؛ والمعنى : وهو ممن يلعب . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من كل ما تخاف عليه . ثم يحتمل أنهـم كانوا يخرجون ركبانا ، ويحتمل أنهم كانوا رجّالة . وقد نقل أنهـم حملوا يوسـف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعـدو معهم إضرارا به .

قوله تعالى : قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْـهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْـبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ في موضع رفع؛ أي ذهابكم به . أخبر عن حزنه لغيبته . ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنه رأى فى منامه أن الذئب شدّ على يوسف ، فلذلك خافه عليه؛ قاله الكَلْبيّ . وقيل : إنه رأى فى منامه كأنه على ذروة جبل، وكأن يوسف فى بطن الوادى ، فإذا عشرة من الذئاب قد آحتوشته تريد أكله، فدرأ عنه واحد، ثم انشقّت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام؛ فكانت العشرة أخوته ، لما تمالئوا على قتله ، والذى دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه فى الأرض هو مقامه فى الجبّ ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليـه ، وأنه أرادهم بالذئب؛ فخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم؛ قال آبن عباس : فسماهم ذئابا . وقيل : ماخافهم عليه، ولو خافهم ما أرسله معهم، و إنمـا خاف الذئب؛ لأنه أغلب ما يخاف فى الصّحارى . والذئب مأخوذ من تَذَاءبت[٢] الريح إذا جاءت من كل وجه ؛ كذا قال أحمـد بن يحيى؛ قال : والذئب مهموز

---

(١) (يرتع) من أرتع؛ وقد ورد فى الأصول بالياء؛ والذى فى تفسير ابن عطية والألوسى وأبى حيان عن مجاهد وقتادة هو (بالنون) وجزم (نلعب) قال ابن عطية : (وقراءة مجاهد وقتادة «نرتع» بضم النون وكسر التاء ، و «نلعب» بالنون والجزم) .

(٢) ورد فى روح المعانى أن هذا الاشتقاق عند الزمخشرى ، وقال الأصمعى : إن تذاءبت مشتق من الذئب؛ لأن الذئب يفعله فى عدوه؛ وتعقب بأن أخذ الفعل من الأسماء الجامدة قليل مخالف للقياس .

لأنه يجىء من كل وجه . وروى ورش عن نافع « الذِّيبُ » بغير همز ، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة فخففها صارت ياء . ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ أى مشتغلون بالرعى .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أى جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه . ﴿ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ فى حفظنا أغنامنا ؛ أى إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا . وقيل : « لخاسرون » لجاهلون بحقه . وقيل لعاجزون .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ ﴾ « أن » فى موضع نصب ؛ أى على أن يجعلوه فى غيابة الجبّ . قيل فى القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقا غليظا ليحفظُنّه ، وسلّمه إلى روبيل وقال : يا روبيل ! إنه صغير ، وتعلم يا بنىّ شفقتى عليه ؛ فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فآسقه ، وإن أعيا[1] فآحمله ثم عجّل بردّه إلىّ . قال : فأخذوا يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يُشيّعهم ميلا ثم رجع ؛ فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذى كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر ، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشدّ مما عند الآخر من الغيظ والعسف ؛ فاستغاث بروبيل وقال : « أنت أكبر إخوتى ، والخليفة من بعد والدى علىّ ، وأقرب الأخوة إلىّ ، فارحمنى وآرحم ضعفى » فلطمه لطمة شديدة وقال : لا قرابة بينى وبينك ، فادع الأحد عشر كوكبا فلتنجك منا ؛ فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه ، فتعلق بأخيه يهوذا وقال : يا أخى ! ارحم ضعفى وعجزى وحداثة سنى ، وارحم قلب أبيك يعقوب ؛ فما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده ؛ فرقّ قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبدا ما دمتُ حيّا ، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التى حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبىّ إلى أبيه ، ونعاهده

(١) أعيا الرجل فى المشى : كلّ

ألا يحـدّث والده بشىء ممـا جرى أبدا ؛ فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عنـد يعقوب ، والله لئن لم تدعه لنقتلنّك معه ، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فهاهنا هذا الجبّ الموحش القفر ، الذى هو مأوى الحيات والهوام فألقُوه فيه ، فإن أصيب بشىء من ذلك فهو المراد ، وقد استرحتم من دمه ، و إن انفلت على أيدى سيّارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد ؛ فأجمع رأيهـم على ذلك ؛ فهو قول الله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَـلُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ وجواب « لمـا » محذوف ؛ أى فلما ذهبوا به وأجمعوا على طرحه فى الجب عظمت فتنتهم . وقيل : جواب « لمـا » قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » . وقيل التقدير : فلما ذهبوا به من عنـد أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب جعلوه فيها ، هـذا على مذهب البصريين ؛ وأما على قول الكوفيين فالجواب « أوحينا » والواو مقحمة ، والواو عندهم تزاد مع لمـّا وحتى ؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » أى فتحت ، وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ » أى فار . قال امرئ القيس :

* فلمّا أَجَزْنَا ساحةَ الحيِّ وانْتَحى[1] *

أى انتحى ؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى ناديناه . وفى قوله ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوّته فى ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضحاك وقَتادة : أعطاه الله النبوّة وهو فى الجبّ على حجر مرتفع عن المـاء . وقال الكَلْبى : ألقى فى الجبّ وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، فما كان صغيرا ؛ ومن قال كان صغيرا فلا يبعد فى العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » . وقيل : كان مناما ، والأول أظهر — والله أعلم — وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعـالى : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـذَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا ؛ فعلى هـذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الجبّ تقوية لقلبه ، وتبشيرا له بالسلامة . الثانى — أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به ؛ فعلى هذا الوحى قبل إلقائه

(١) تمام البيت : * بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

فى الجبّ إنذارا له . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وأخوته بمكانه . وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوة؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : « الهاء » ليعقوب؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف، وأنه سيعرفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم . ومما ذكر من قصته إذ ألقى فى الجبّ — ما ذكره السدّىّ وغيره — أن إخوته لما جعلوا يدلونه فى البئر تعلق بشفير البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه؛ فقال : يا إخوتاه! ردّوا علىّ قميصى أتوارى به فى هذا الجبّ، فإن متّ كان كفنى، وإن عشت أوارى به عورتى؛ فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فلتؤنسك وتكسك؛ فقال : إنى لم أر شيئا، فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت؛ فكان فى البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها . وقيل : إن شمعون هو الذى قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة، وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدى؛ قال جبريل : فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمى والوقوع فأقعدته على الصخرة سالما . وكان ذلك الجبّ مأوى الهوام؛ فقام على الصّخرة وجعل يبكى، فنادوه، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم، فأجابهم؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام؛ فلما وقع عريانا نزل جبريل إليه؛ وكان إبراهيم حين ألقى فى النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فكان ذلك عند إبراهيم، ثم ورثه إسحق، ثم ورثه يعقوب، فلما شبَّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذة وجعله فى عنقه، فكان لا يفارقه؛ فلما ألقى فى الجبّ عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه . قال وهب : فلما قام على الصّخرة قال : يا إخوتاه ! إن لكل ميت وصية، فاسمعوا وصيتى، قالوا : وما هى؟ قال : إذا اجتمعتم كلّكم فآنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتى، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى، وإذا شربتم فاذكروا عطشى، وإذا رأيتم غريبا فاذكروا غربتى، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابى؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كُفّ عن هذا واشتغل بالدعاء، فإن الدعاء عند الله

بمكان ؛ ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كلّ غريب ، ويا صاحب كلّ وحيد ، ويا ملجأ كلّ خائف ، ويا كاشف كل كربة ، ويا عالم كل نجوى ، ويا منتهى كل شكوى ، ويا حاضر كل ملإ ، يا حىّ يا قيوم! أسألك أن تقذف رجاءك فى قلبى ، حتى لا يكون لى همّ ولا شغل غيرك ، وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا ، إنك على كل شىء قـدير ؛ فقالت الملائكة : إلهنـا ! نسمع صوتا ودعاء ، الصوت صوت صبىّ ، والدعاء دعاء نبىّ . وقال الضّحاك : نزل جبريل عليه السـلام على يوسف وهو فى الجبّ فقـال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هـذا الجب ؟ فقال : نعم ! فقـال له : قل يا صانع كلّ مصنوع ، ويا جابر كل كَسِير ، ويا شاهد كل نَجْوى ، ويا حاضر كل ملإ ، ويا مفرّج كل كُربة ، وياصاحب كل غريب ، ويامؤنس كل وحيد ، آيتنى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحدا سـواك ؛ فرددها يوسف فى ليلته مرارا ؛ فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ .

قوله تعـالى : وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾

فيــه مسئلتـان :

الأولى — قوله تعالى : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً » أى ليلا ، وهو ظرف يكون فى موضع الحال ؛ وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار فى الظلمة ؛ ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحيـاء فى العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار ؛ فروى أن يعقوب عليه السلام لمـا سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى فى الغنم شىء ؟ قالوا : لا . قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نسـتبق فأكله الذئب ؛ فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ على ما يأتى بيانه . وقال السدىّ وابن حبّان : إنه لمـا قالوا أكله الذئب خرّ مغشيا عليه ، فأفاضوا عليه المـاء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ؛ قال وهب : ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نَفَس يعقوب فلم يحسّ بنَفَس ، ولم يتحرّك له عِرْق ؛ فقال لهم يهوذا : ويل لنا من ديّان يوم الدّين ! ضيّعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السّحر ، فأفاق ورأسه فى حجر روبيل ؛

فقال : ياروبيل ! ألم آتمنك على ولدى؟ ألم أعهد إليك عهدا ؟ فقال : يا أبت ! كُفَّ عنّى بكاءك أخبرك ؛ فكفّ يعقوب بكاءه فقال : يا أبت « إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » .

الثانيـــة — قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنّعا ؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ؛ كما قال حكيم :

إذا ٱشتبكتْ دمـوعٌ فى خُدودٍ * تبيّنَ مَنْ بكَى مِمّنْ تبَاكَى

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فيـــه ســبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « نستبق » نفتعل ، من المسابقة . وقيل : أى نَنْتَضِل ؛ وكذا فى قراءة عبد الله « إنا ذهبنا نَنْتَضِل » وهو نوع من المسابقة ؛ قاله الزجاج . وقال الأزهرىّ : النِّضال فى السّهام ، والرِّهان فى الخيل ، والمسابقة تجمعهما . قال القُشيرىّ أبو نصر : « نستبق » أى فى الرمى ، أو على الفرس ، أو على الأقدام ؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو ، لأنه الآلة فى قتال العدو ، ودفع الذئب عن الأغنام . وقال السّدى وآبن حيّان : « نستبق » نشتد جريا لنرى أينا أسبق . قال آبن العربى : المسابقة شِرْعة فى الشّريعة ، وخَصْلة بديعة ، وعَون على الحرب ؛ وقــد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه وبخيله ، وسابق عائشة رضى الله عنها على قدميــه فسبقها ؛ فلمــا كبر رسول الله صــلى الله عليه وســلم سابقها فسبقته ؛ فقال لهــا : ” هذه بتلك “ .

قلت : وسابق سَلَمة بن الأكوع رجلا لمــا رجعوا من ذى قَرَد إلى المدينة فسبقه سَلَمة ؛ خرجه مسلم .

الثانيـة — وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التي قد أُضْمِرت(١) [من الحَفْيَاء](٢) وكان أمدها ثَنِيَّة الوَدَاع(٣)، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَّر من الثَّنِيَّة إلى مسجد بني زُرَيق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هـذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقـة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني — أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث — ألا يسابق المضمَّر مع غير المضمَّر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيـل التي يجب أن تُضمَّر ويسابق عليها، وتقام هذه السنّة فيها هي الخيل المعدّة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثـة — وأما المسابقة بالنّصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرنا مع رسول صـلى الله عليه وسـلم فنزلنا منزلا فمنّا من يصلِح خِباءه، ومنا من يَنْتَضِل، وذكر الحديث. وخرج النّسائي عن أبي هُريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا سَبَق(٤) إلا في نَصْـل أو خُفّ أو حافر". وثبت ذكر النّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هُريرة، ذكره النّسائي؛ وبه يقـول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاري عن أنس قال: كان للنبي صلى الله عليـه وسلم ناقة تسمى العَضْباء لا تُسبق — قال حُمَيد: أو لا تكاد تُسبَق — فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: "حقّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه".

الرابعـة — أجمع المسـلمون على أن السَّبَق لا يجـوز على وجه الرِّهان إلا في الخفّ والحافر والنّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَق فيها قِمار. وقد زاد أبو البَخْتَرِي

---

(١) تضمير الخيل: هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لا تعلف إلا قوتا لتخف. وقيل: تشـد عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشتد لحمها، ويكون ذلك لغزو أو سباق.

(٢) الزيادة عن (موطأ مالك). والحفياء (بالمد ويقصر): موضع بالمدينـة بينه وبين ثنية الوداع ستة أميال أو سـبعة. (٣) الثنية في الجبل كالعقبة فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه؛ وثنية الوداع مشرفة على المدينة سميت بذلك؛ لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثم؛ ومنها إلى مسجد بني زريق ميل.

(٤) «لا سبق»: هو بفتح الباء ما يجعل للسابق على سبقه من المال؛ وبالسكون مصـدر. قال الخطابي: الصحيح رواية الفتح؛ أي لا يحل أخذ المال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة.

القاضى فى حديث الخفّ والحافر والنّصل «أو جَناح» وهى لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته ؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال . وقد روى عن مالك أنه قال : لا سَبَق إلا فى الخيل والرمى؛ لأنه قوة على أهل الحرب؛ قال : وسَبَق الخيل أحبّ إلينا من سبَق الرمى . وظاهر الحديث يسوى بين السّبق على النُّجُب والسّبق على الخيل . وقد منع بعض العلماء الرّهان فى كل شىء إلا فى الخيل؛ لأنها التى كانت عادة العرب المراهنة عليها . وروى عن عطاء أن المراهنة فى كل شىء جائزة ؛ وقد تُؤُوِّل قوله ؛ لأن حمله على العموم يؤدّى إلى إجازة القمار، وهو محرّم باتفاق .

الخامسة — لا يجوز السَّبَق فى الخيل والإبل إلا فى غاية معلومة وأمدٍ معلوم، كما ذكرنا؛ وكذلك الرمى لا يجوز السَّبَق فيه إلا بغاية معلومة ورَشْق معلوم، ونوع من الإصابة ؛ مشترط خَسْقًا[(1)] أو إصابة بغير شرط . والأسباق ثلاثة : سَبَق يعطيه الوالى والرجل غير الوالى من ماله متطوعا فيجعل للسابق شيئا معلوما ؛ فمن سبق أخذه . وسَبَق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سبقه صاحبه أخذه، وإن سبق هو صاحبه أخذه، وحسن أن يمضيه فى الوجه الذى أخرجه له، ولا يرجع إلى ماله؛ وهذا مما لا خلاف فيه . والسَّبَق الثالث — اختلف فيه ؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئا مثل ما يخرجه صاحبه، فأيهما سبق أحرز سبَقه وسبَق صاحبه؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يُدخِلا بينهما محلِّلا لا يأمنا أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلِّل أحرز السَّبَقين جميعا وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبَقه وأخذ سبَق صاحبه، ولا شىء للمحلِّل فيه، ولا شىء عليه . وإن سبق الثانى منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما . وقال أبو على بن خيران — من أصحاب الشافعى — : وحكم الفرس المحلِّل أن يكون مجهولا جريه ؛ وسمى محلِّلا لأنه يحلّل السّبَق للمتسابقين أو له . واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلِّل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبَقه وسبَق صاحبه أنه قمار، ولا يجوز . وفى سنن أبى داود عن أبى هُريرة عن النبى صلى الله

---

(1) خسق السهم وخزق إذا أصاب الرمية ونفذ فيها .

عليه وسلم قال : "من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يأمن أن يَسبق فليس بقِمار ومن أدخله وهو يأمن أن يَسبق فهو قِمار". وفى الموطأ عن سعيد بن المسيّب قال : ليس برِهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلِّل، فإن سَبق أخذ السَّبَق ، و إن سُبق لم يكن عليه شىء ؛ وبهذا قال الشافعى وجمهور أهل العلم . وآختلف فى ذلك قول مالك ؛ فقال مرة لا يجب المحلّل فى الخيل ، ولا نأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلّل ؛ وهو الأجود من قوله .

السادسة — ولا يحمل على الخيل والإبل فى المسابقة إلا محتلم ، ولو ركبها أربابها كان أولى ؛ وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لا يركب الخيل فى السباق إلا أربابها . وقال الشافعى : وأقل السَّبَق أن يسبق بالهادى(١) أو بعضه ، أو بالكَفَل أو بعضه . والسَّبَق من الرماة على هذا النحو عنده ؛ وقول محمد بن الحسن فى هذا الباب نحو قول الشافعى .

السابعة — روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر ، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصَلَّى أبو بكر وثَلَّث عمر ؛ ومعنى وصلى أبو بكر : يعنى أن رأس فرسه كان عند صَلَا فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصَّلَوان موضع العَجُز .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أى عند ثيابنا وأقمشتنا حارسا لها . ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ » أخذوا ذلك من فيه فتحرّموا به ؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ أى بمصدق . ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أى وإن كنا ؛ قاله المبرّد وآبن إسحق . ﴿ صَادِقِينَ ﴾ فى قولنا ؛ ولم يصدّقهم يعقوب لِما ظهر منهم من قوة التّهمة ، وكثرة الأدلة ، على خلاف ما قالوه ؛ على ما يأتى بيانه . وقيل : « ولو كنا صادقين » أى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا ، ولآتهمتنا فى هذه القضية ، لشدة محبتك فى يوسف ؛ قال معناه الطبرى والزجاج وغيرهما .

(١) الهادى : العنق لتقدمه ؛ والجمع (هواد) .

قوله تعالى : وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « بِدَمٍ كَذِبٍ » قال مجاهد : كان دم سَخْلة أو جَدْى ذبحوه . وقال قَتَادة : كان دم ظبية ؛ أى جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه ؛ فوصف الدم بالمصدر ، فصار تقديره : بدم ذى كذب ؛ مثل : « وآسأل القرية » والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر ؛ يقال : هذا ضَرْب الأمير ، أى مضروبه ، وماء سَكْب أى مسكوب ، وماء غَوْر أى غائر ، ورجل عَدْل أى عادل .

وقرأ الحسن وعائشة : « بِدَمٍ كَدِبٍ » بالدّال غير المعجمة ، أى بدم طرِىّ ؛ يقال للدّم الطرىّ ٱلكَدِب . وحكى أنه المتغير ؛ قاله الشّعبى . والكَدِبُ أيضا البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه الدّم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظُّفر من جهة ٱختلاف اللونين .

الثانيــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قَرَن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التَّنْييب ؛ إذ لا يمكن ٱفتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق ؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خَرْقا ولا أثرا ٱستدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ٱبن عباس وغيره ؛ روى إسرائيل عن سِمَاك بن حرب عن عِكرمة عن ٱبن عباس قال : كان الدم دم سَخْلة . وروى سفيان عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبتم ؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص . وحكى الماوردىّ أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ، وحين قُدّ قميصه من دبر ، وحين أُلقِىَ على وجه أبيه فارتدّ بصيرا .

قلت : وهذا مردود؛ فإن القميص الذى جاءوا عليه بالدم غير القميص الذى قُدّ، وغير القميص الذى أتاه البشير به . وقد قيل : إن القميص الذى قُدّ هو الذى أُتى به فارتدّ بصيرا، على ما يأتى بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولهم، فآتهمهم، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشقّ قميصه قبل أن يفضى إلى جلده، وما أرى بالقميص من شقّ؛ وتزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه؛ هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عند ذلك : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » عن الحسن وغيره؛ أى لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا .

الثالثة : آستدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل من الفقه كالقَسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام آستدل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح ، وهى قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها، قاله آبن العربى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى أن يعقوب لما قالوا له : « فأكله الذئب » قال لهم : لم يترك الذئب له عضوا فتأتونى به أستأنس به؟ ! ألم يترك لى ثوبا أشم فيه رائحته ؟ قالوا : بلى ! هذا قميصه ملطوخ بدمه ؛ فذلك قوله تعالى : «وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ» فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قميصه، فأروه فشمه وقبّله، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقّا ولا تمزيقا؛ فقال : والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئبا أحكم منه ؛ أكل آبنى واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمغضب باكيا حزينا وقال : يا معشر ولدى ! دلونى على ولدى؛ فإن كان حيا رددته إلىّ، وإن كان ميتا كفّنته ودفنته ؛ فقيل قالوا حينئذ : ألم تروا إلى أبينا كيف يكذبنا فى مقالتنا ! تعالوا نخرجه من الجبّ ونقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا

فى مقالتنا و يقطع بأسه ؛ فقال يهوذا : والله لئن فعلتم لأكوننّ لكم عدوا ما بقيت ، ولأخبرنّ أباكم بسوء صنيعكم ؛ قالوا : فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئبا ، قال : فاصطادوا ذئبا ولطخوه بالدم ، وأوثقوه بالحبال ، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا ! إن هذا الذئب الذى يحل بأغنامنا و يفترسها ، ولعله الذى أفجعنا بأخينا لا نشك فيه ، وهذا دمه عليه ؛ فقال يعقوب : أطلقوه ؛ فأطلقوه ، وتبصبص له الذئب ، فأقبل يدنو و يعقوب يقول له : آدن آدن ؛ حتى ألصق خدّه بخدّه فقال له يعقوب : أيها الذئب ! لم فجعتنى بولدى وأورثتنى حزنا طويلا ؟ ! ثم قال : اللهم أنطقه ، فأنطقه الله تعالى فقال : والذى ٱصطفاك نبيا ما أكلت لحمه ، ولا مزّقت جلده ، ولا نتفت شعرة من شعراته ، ووالله ! مالى بولدك عهد ، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحى مصر فى طلب أخ لى فُقِد ، فلا أدرى أحى هو أم ميت ، فاصطادنى أولادك وأوثقونى ، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش ، وتالله ! لا أقمت فى بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ؛ فأطلقه يعقوب وقال : والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم ؛ هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذِمام أخيه ، وأنتم ضيّعتم أخاكم ، وقد علمت أن الذئب برىء مما جئتم به . ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أى زينت . ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ غير ما تصفون وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهى :

الثانيــة — قال الزجاج : أى فشأنى والذى أعتقده صبر جميــل . وقال قُطْرُب : أى فصبرى صبرٌ جميل . وقيــل : أى فصبر جميل أولى بى ؛ فهو مبتــدأ وخبره محذوف . و يروى أن النبى صلى الله عليــه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقــال : "هو الذى لا شكوى معه" . وسيأتى له مزيد بيــان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوســف « فصبرا جميــلا » قال : وكذا قرأ الأشهب العُقَيلى ؛ قال وكذا فى مصحف أنس وأبى صالح . قال المبرّد « فصبر جميــل » بالرفع أولى من النصب ؛ لأن المعنى : قال رب عندى صبر جميل ؛ قال : وإنما النصب على المصدر ، أى فلأصبرنّ صبرا جميلا ؛ قال :

شَكَا إلىّ جَمَلى طولَ السُّرى * صَبْراً(١) جميلًا فكِلانا مُبْتَلَى

والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ولا شكوى . وقيل : المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم ؛ وفى هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم . وعن حبيب بن أبى ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه ، فكان يرفعهما بخرقة ؛ فقيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان ؛ فأوحى الله إليه أتشكونى يايعقوب ؟ ! قال : يارب ! خطيئة أخطأتها فاغفر لى . ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أى على احتمال ما تصفون من الكذب .

الثالثة — قال ابن أبى رفاعة : ينبغى لأهل الرأى أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب صلى الله عليه وسلم وهو نبىّ ؛ حين قال له بنوه : « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » فأصاب هنا ؛ ثم قالوا له : « إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » قال : « بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا » فلم يصب .

قوله تعالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩)

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أى رفقة مارّة يسيرون من الشام إلى مصر فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجبّ ، وكان الجبّ فى قفرة بعيدة من العمران ، إنما هو للرّعاة والمجتاز ، وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف . ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ فذكر على المعنى ؛ ولو قال : فأرسلت واردها لكان على اللفظ ، مثل « وجاءت » . والوارد الذى يرد الماء يستقى للقوم ؛ وكان اسمه — فيما ذكر المفسرون — مالك بن دُعْر(٢) ،

(١) ويروى (صبر جميل) فى البيت ، ويحمل على إضمار مبتدأ أو خبر . ويروى (صبرا جميل) على نداء الجمل .
(٢) دعر : هو بالدال المهملة وبالذال تصحيف كما فى القاموس .

من العرب العاربة . ﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أى أرسله ؛ يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها ، ودَلَاها أى أخرجها ؛ عن الأصمعى وغيره . ودَلَا — من ذوات الواو — يدلو دلوا ، أى جذب وأخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما ثقل ردوه إلى الياء ، لأنها أخف من الواو ؛ قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الياء ؛ اتباعا للمستقبل . وجمع دَلْو فى أقل العدد أَدْلٍ فإذا كثرت قلت : دُلِيّ ودِلِيّ ؛ فقلبت الواو ياء ، إلا أن الجمع بابه التغيير ، وليفرق بين الواحد والجمع ؛ ودِلاء أيضا . فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم فى حديث الإسراء من صحيح مسلم : " فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطى شَطْر الحسن " . وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جَعْد الشّعر ، ضخم العينين ، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خَميص البطن ، صغير السُّرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت فى كلامه شُعاع الشمس من ثناياه ، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية . وقيل : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن ؛ فلما رآه مالك بن دُعْر قال : « يَا بُشْرَايَ هَـٰذَا غُلَامٌ » هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا ابن أبى إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَيَّ هَذَا غُلَامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يجز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف ؛ وفى معناه قولان : أحدهما — اسم الغلام ، والثانى — يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك . قال قَتادة والسُّدىّ : لما أدلى المدلى دلوه تعلق بها يوسف فقال : يا بشرى هذا غلام ؛ قال قَتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السُّدىّ : نادى رجلا اسمه بشرى . قال النحاس : قول قَتادة أولى ؛ لأنه لم يأت فى القرآن تسمية أحد إلا يسيرا ؛ وإنما يأتى بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » وهو عُقْبة ابن أبى مُعَيط ، وبعده « يَالَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » وهو أمية

ابن خلف ؛ قاله النحاس والمعنى فى نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكد من قولك تبشرت ، كما تقول : يا عجباه ! أى يا عجب هـذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر ؛ هذا مذهب سيبويه ، وكذا قال السُّهيلى . وقيـل هو كما تقول : وا سروراه ! وأن البشرى مصدر من الاستبشار ؛ وهـذا أصحّ لأنه لو كان اسما علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ؛ وعلى هذا يكون «بشراى» فى موضع نصب ، لأنه نداء مضاف ؛ ومعنى النداء ها هنا التنبيه ، أى انتبهوا لفرحتى وسرورى ؛ وعلى قول السُّدى يكون فى موضع رفع كما تقول : يا زيد هذا غلام . ويجوز أن يكون محله نصبا كقولك يارجلا ، وقوله : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » ولكنه لم ينون « بشرى » لأنه لا ينصرف . ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ الهاء كناية عن يوسف عليه السلام ؛ فأما الواو فكناية عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين ٱشتروه ، وقيل عن الوارد وأصحابه . « بضاعة » نصب على الحال . قال مجاهـد : أسرّه مالك بن دُعْر وأصحابه من التجار الذين معهم فى الرفقة ، وقالوا لهم : هو بضاعة ٱستبضعناها بعضُ أهل الشام أو أهل هذا المـاء إلى مصر ؛ وإنما قالوا هـذا خيفة الشركة . وقال ٱبن عبـاس أسرّه إخوة يوسف بضاعة لمـا ٱستخرج من الجبّ ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئس ما صنعتم ! هذا عبد لنـا أَبِق ، وقالوا ليوسف بالعـبرانية : إما أن تُقرّ لنـا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنقتلك ؛ فقال : أنا أقرّ لكم بالعبودية ، فأقرّ لهم فباعوه منهم . وقيـل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسـانهم أن ٱعترف لأخوتك بالعبـودية فإنى أخشى إن لم تفعل قتلوك ؛ فلعـل الله أن يجعـل لك مخرجا ، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتـله إخوته ؛ فقال مالك : والله ما هذه سمة العبيد ! ، قالوا : هـو تربَّى فى حجورنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتأدّب بآدابنا ؛ فقال : ما تقول ياغلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت فى حجورهم ، وتخلقت بأخلاقهم ؛ فقال مالك : إن بعتموه منى ٱشتريته منكم ؛ فباعوه منه ؛ فذلك :

قوله تعـالى : وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِـمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيـهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ يقال : شريت بمعنى آشتريت، وشريت بمعنى بعت لغة؛ قال الشاعر(١) :

وشَريتُ بُرْدًا لَيْتَنِي * مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ

أى بعت . وقال آخر :

فلما شَرَاها فاضتِ العينُ عَبرةً * وفى الصَّدرِ حُزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ(٢)

﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أى نقص؛ وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أى باعوه بثمن مبخوس ، أى منقوص. ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلو وجه أَبيهم عنه . وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الجبّ فأخبر إخوته فجاءوا وباعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعرفون الخبر، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم . وقال قَتادة : « بخس » ظلم . وقال الضّحاك ومقاتل والسُّدى وابن عطاء : « بَخْسٍ » حرام . وقال آبن العربى : ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلو وجه أبيهم عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطَعا؛ أو قالوا لأصحابهم : أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يُعطوا عنه ثمنا وأنّ ما أخذوا فيه ربح كلّه .

قلت : قوله « وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة» يدل على أنهم لو أخذوا القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدل على صحة ما قاله السدىّ وغيره ؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عِكرمة والشَّعبى : قليل . وقال آبن حبان : زَيْف . وعن آبن عباس وآبن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ كل واحد من إخوته درهمين ، وكانوا عشرة ؛ قاله قَتادة والسُّدىّ . وقال أبو العالية

(١) هو : يزيد بن مفرغ الحميرى ؛ و (برد) اسم عبد كان له ندم على بيعه . (٢) البيت للشماخ ، قاله فى رجل باع قوسه من رجل . وحامز : عاصر ؛ وقيل : أى مُمِضٌّ محرق . (اللسان) .

ومقاتل : اثنين وعشرين درهما، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمين ؛ وقاله مجاهد . وقال عكرمة : أربعين درهما ؛ وما روى عن الصحابة أولى . و « بخس » من نعت « ثمن » . « دراهم » على البـدل والتفسير له . ويقال : دراهيم على أنه جمع درهام ، وقد يكون اسما للجمع عند سيبويه ، ويكون أيضا عنده على أنه مدّ الكسرة فصارت ياء، وليس هـذا مثل مدّ المقصور ؛ لأن مد المقصور لا يجوز عند البصريين فى شعر ولا غيره . وأنشد النحويون :

تَنْـفِي يداها الحَصَى فى كلِّ هَاجِرةٍ * نَفْيَ الدَّراهِـيمِ تَنْقَادُ الصَّـيَارِيفِ (١)

﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ نعت، وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجرى عندهم عدّا لاوزنا بوزن . وقيل : هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما دون الأوقية، وهى أربعون درهما .

الثانيــة — قال القاضى ابن العربى : وأصل النقدين الوزن؛ قال صلى الله عليه وسلم : " لاتبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى " . والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عينها فلا منفعة فيـه، ولكن جرى فيها العدّ تخفيفا عن الخلق لكثرة المعاملة، فيشق الوزن ؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لجاز بيع بعضها ببعض عدّا إذا لم يكن فيها نقصـان ولا رجحان ؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك كان كسرها أو قرضها من الفساد فى الأرض حسب ما تقدم .

الثالثــة — وآختلف العلمـاء فى الدراهم والدنانير هل تتعـين أم لا ؟ وقـد آختلفت الرواية فى ذلك عن مالك ؛ فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين ، وهو الظـاهر من قول مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب آبن القاسم إلى أنها تتعـين، وحكى عن الكَرْخى؛ وبه قال الشـافعى . وفائدة الخـلاف أنا إذا قلنا لا تتعـين فإذا قال : بعتك هـذه الدنانير بهذه

(١) البيت للفرزدق؛ وصف ناقة سريعة السير فى الهواجر؛ فشبه خروج الحصى من تحت مناسمها بارتفاع الدراهم عن الأصابع إذا نقدت .

الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها ، والدراهم بذمة صاحبها ؛ ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء ، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها .

الرابعــة — روى عن الحسن بن على رضى الله عنهـما أنه قضى فى اللقيط أنه حر ، وقرأ : « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ قيل : المراد إخوته . وقيل : السيّارة . وقيل : الواردة ؛ وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبيطا ، لا عند الإخوة ؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أَبِق منا — والزهد قلة الرغبة — ولا عند الواردة لأنهم خافوا ٱشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أولى .

السادســة — فى هـذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ، ويكون البيع لازما ؛ ولهذا قال مالك : لو باع دُرّة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها درّة وحسبتها مَخْشَلَبَة(١) لزم البيع ولم يلتفت إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أى فى حسنه ؛ لأن الله تعالى و إن أعطى يوسف شَطْر الحسن صرف عنه دواعى نفوس القوم إليه إكراما له . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزلته عند الله تعالى . وحكى سيبويه والكسائى زَهِدت وزَهَدت بكسر الهاء وفتحها .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)

(١) المخشلبة : خرز أبيض يشا كل اللؤلؤ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، إذ لم يكن ذلك عقدا، مثل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى » . وقيل : إنهم ظنوه فى ظاهر الحال اشتراء، فجرى هذا اللفظ على ظاهر الظن . قال الضّحاك : هذا الذى اشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز . السُّهيلى : واسمه قطفير . وقال ابن إسحق : إطفير بن رويحب اشتراه لامرأته راعيل ؛ ذكره الماوردىّ . وقيل : كان اسمها زليخا . وكان الله ألقى محبة يوسف على قلب العزيز، فأوصى به أهله ؛ ذكره القُشيرىّ . وقد ذكر القولين فى اسمها الثعلبىّ وغيره . وقال ابن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر، وهو الريان بن الوليد . وقيل : الوليد بن الريان، وهو رجل من العمالقة . وقيل : هو فرعون موسى ؛ لقول موسى : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » وأنه عاش أربعمائة سنة . وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتى فى « غافر »[1] بيانه . وكان هذا العزيز الذى اشترى يوسف على خزائن الملك ؛ واشترى يوسف من مالك بن دُعْر بعشرين دينارا، وزاده حلة ونعلين . وقيل : اشتراه من أهل الرّفقة . وقيل : تزايدوا فى ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مِسْكا وعَنْبرا وحريرا وورِقا وذهبا ولآلئ وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ؛ فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبّه . وقال وهب أيضا وغيره : ولما اشترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتابا : « هذا ما اشترى مالك بن دُعْر من بنى يعقوب، وهم فلان وفلان مملوكا لهم بعشرين درهما، وقد شرطوا له أنه آبق، وأنه لا ينقلب به إلا مقيدا مسلسلا، وأعطاهم على ذلك عهد الله » قال : فودّعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول : حفظكم الله وإن ضيعتمونى، نصركم الله وإن خذلتمونى، رحمكم الله وإن لم ترحمونى ؛ قالوا : فألقت الأغنام ما فى بطونها دما عَبِيطا[2] لشدّة هذا التوديع، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء، مقيدا مكبلا مسلسلا، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه — وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود — فألقى يوسف نفسه على قبر أمّه وجعل يتمرّغ

(١) راجع تفسير آية ٣٤ .   (٢) الدم العبيط : الطرى .

و يعتنق القبر و يضطرب و يقول : يا أمّاه ! آرفعي رأسك ترى ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا مغلولا ؛ فرّقوا بيني و بين والدي ، فاسألى الله أن يجمع بيننا فى مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين ، فتفقده الأسود على البعير فلم يره ، فقفا أثره ، فإذا هو ببياض على قبر ، فتأمله فإذا هو إياه ، فركضه برجله فى التراب ومرغه وضربه ضربا وجيعا ؛ فقال له : لاتفعل ! والله ماهربت ولا أَبِقت ، وإنما مررت بقبر أمى فأحببت أن أودّعها ، ولن أرجع إلى ما تكرهون ؛ فقال الأسود : والله إنك لعبد سوء ، تدعو أباك مرة وأمك أخرى ! فهلا كان هذا عند مواليك ؛ فرفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن كانت لى عندك خطيئة أخلقت بها وجهى فأسألك بحق آبائى إبراهيم و إسحق و يعقوب أن تغفر لى وترحمنى ؛ فضجّت الملائكة فى السماء ، ونزل جبريل فقال له : يا يوسف ! غُضَّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء ! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟ قال : تثبت يا جبريل ، فإن الله حليم لايعجل ؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت ، وآرتفع الغبار ، وكسفت الشمس ، و بقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا ؛ فقال رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثا؟ — فإنى أسافر منذ كيت وكيت ما أصابنى قطّ مثل هذا — فقال الأسود : أنا لطمت ذلك الغلام العبرانى فرفع يده إلى السماء وتكلّم بكلام لا أعرفه ، ولا أشك أنه دعا علينا ؛ فقال له : ما أردت إلا هلاكنا ! آيتنا به ، فأتاه به ، فقال له : يا غلام ! لقد لطمك فجاءنا ما رأيت ؛ فإن كنت تقتص فآقتص ممن شئت ، و إن كنت تعفو فهو الظنّ بك ؛ قال : قد عفوت رجاء أن يعفو الله عنى ؛ فانجلت الغبرة ، وظهرت الشمس ، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها ، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشى و يكرمه ، حتى وصل إلى مصر فاغتسل فى نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر ، وردّ عليه جماله ، ودخل به البلد نهارا فسطع نوره على الجدران ، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك ؛ قاله آبن عباس على ما تقدّم . وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وآتبع يوسف على دينه ، ثم مات الملك و يوسف يومئذ على خزائن الأرض ؛ فملك بعده قابوس وكان كافرا ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى . « اكرِمِى مثواه » أى منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن ؛ وهو

مأخوذ من ثوى بالمكان أى أقام به؛ وقد تقدّم فى «آل عمران»[١] وغيره. ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ أى يكفينا بعض المهمات إذا بلغ. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ قال ٱبن عباس: كان حَصُورا لا يولد له، وكذا قال ٱبن إسحق: كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له. فإن قيل: كيف قال «أو نتخذه ولدا» وهو ملكه، والوَلَدية مع العبدية تتناقض؟ قيل له: يعتقه ثم يتخذه ولدا بالتبنّى؛ وكان التبنّى فى الأمم معلوما عندهم، وكذلك كان فى أوّل الإسلام، على ما يأتى بيانه فى «الأحزاب»[٢] إن شاء الله تعالى. وقال عبد الله بن مسعود: أحسن الناس فراسة ثلاثة؛ العزيز حين تفرّس فى يوسف فقال: «عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا»، وبنت شعيب حين قالت لأبيها فى موسى «ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ»، وأبو بكر حين ٱستخلف عمر. قال ٱبن العـربى: عجبا للفسرين فى اتفاقهم على جلب هـذا الخبر! والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة «الحجر»[٣] وليس كذلك فيما نقـلوه؛ لأن الصدّيق إنمـا ولّى عمر بالتجربة فى الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنّة، وليس ذلك من طريق الفراسة؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى «القصص»[٤]. وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الكاف فى موضع نصب؛ أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجبّ فكذلك مكّنا له؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى ٱشتراه حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أى فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب: «وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». وقيل: المعنى مكّناه لنوحى إليه بكلام منا، ونعلمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتم الكلام. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ الهاء راجعة إلى الله تعالى؛ أى لا يغلب الله شىء، بل هو الغالب على أمر

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع المسئلة الأولى والثانية فى تفسير آية ٥.
(٣) راجع تفسير آية ٧٥. (٤) راجع تفسير آية ٢٦.

نفسه فيما يريده أن يقول له : كن فيكون . وقيل : ترجع إلى يوسف ؛ أى الله غالب على أمر يوسف يدبّره ويحوطه ولا يكله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيد كائد . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يطلعون على غيبه . وقيل: المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطلِع من يريد على بعض غيبه . وقيل : المعنى « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله غالب على أمره،وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر . وقالت الحكماء فى هذه الآية : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قص، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملِكا وسجدوا بين يديه ،ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم ، وآفتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال : « يَا أَسَفَا عَلَىٰ يُوسُفَ » ثم تدّبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين، أى تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقروا بين يدى يوسف فى آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: « إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فلم يخدع وقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » ثم احتالوا فى أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق فى قلبه، ثم دبرت آمرأة العزيز أنها إن آبتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمر الله حتى قال العزيز : « آسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ »، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقى فغلب أمر الله فنسى الساقى، ولبث يوسف فى السجن بِضع سنين .

قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ « أشدّه » عند سيبويه جمع، واحده شِدّة . وقال الكسائى : واحده شَدّ ؛ كما قال الشاعر[١] :

عَهْدِى به شَدَّ النَّهارِ كأنَّمَا ✱ خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ

(١) هو عنترة العبسى . وشد النهار : أى أشده ، يعنى أعلاه . واللبان : الصدر، وقيل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين، ويروى : «البنان» . والعظلم عصارة شجر أو نبت يصبغ به، أو الوسمة ، وهى شجرة ورقها خضاب .

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه ٱستكمال القوّة ثم يكون النقصان بعدُ . وقال مجاهد وقَتادة : الأَشُدّ ثلاث وثلاثون سنة . وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك ابن أنس : الأَشُدّ بلوغ الحُلُم؛ وقد مضى ما للعلماء فى هذا فى «النساء»(١) و «الأنعام»(٢) مستوفى. ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قيل : جعلناه المستولى على الحُكْم، فكان يحكم فى سلطان الملك ؛ أى وآتيناه عِلما بالحُكْم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوّة . وقيل : الحُكْم النبوّة، والعِلم عِلم الدين؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال أوتى النبوّة صبِيا قال : لما بلغ أشدّه زدناه فهما وعلما . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يعنى المؤمنين . وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف؛ قاله الضحاك . وقال الطبرى : هذا و إن كان مخرجه ظاهرا على كل محسِن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكّن لك فى الأرض .

قوله تعالى : وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وهى ٱمرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها . وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين . والرَّوْد والرِّياد طلب الكلأ ؛ وقيل : هى من رُوَيد ؛ يقال : فلان يمشى رُوَيدا، أى برفق ؛ والمراودة الرفق فى الطلب ؛ يقال

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فى الرجل : راودها عن نفسها ، وفى المرأة راودته عن نفسه . والرّود التأنى ؛ يقال : أرودنى أمهلنى . ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ ﴾ غلّق للكثير ، ولا يقال : غَلَق البابَ ؛ وأَغلق يقع للكثير والقليل ؛ كما قال الفَرَزْدق فى أبى عمرو بن العلاء :

ما زلتُ أُغلق أبوابًا وأفتحُها　*　حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّارِ

يقال : إنها كانت سبعة أبواب غلّقتها ثم دعته إلى نفسها . ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أى هَلُمَّ وأقبل وتعالَ ؛ ولا مصدر له ولا تصريف . قال النحاس : فيها سبع قراءات ؛ فمن أجلّ ما فيها وأصحه إسنادا ما رواه الأعمش عن أبى وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتَ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هيت لك » فقال : إنما أقرأ كما عُلّمت . قال أبو جعفر : وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد ذلك ؛ لأن قوله : إنما أقرأ كما علّمت يدل على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هى الصحيحة من قراءة ٱبن عباس وسعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة ؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحمزة والكسائىّ . قال عبد الله بن مسعود : لا تقطعوا فى القرآن ؛ فإنما هو مثل قول أحدكم : هَلمّ وتَعالَ . وقرأ ٱبن أبى إسحق النحوى « قالت هَيْتِ لَكَ » بفتح الهاء وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ وٱبن كثير « هَيْتُ لَكَ » بفتح الهاء وضم التاء ؛ قال طَرَفة :

ليس قومى بالأبعدين إذا ما　*　قال داعٍ من العَشيرة هيتُ

فهذه ثلاث قراءات الهاء فيهنّ مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع « وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ » بكسر الهاء وفتح التاء . وقرأ يحيى بن وثّاب « وَقَالَتْ هِيتُ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وٱبن عباس ومجاهد وعكرمة « وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة . وعن ٱبن عامر وأهل الشام « وَقَالَتْ هِئْتَ » بكسر الهاء وبالهمزة وبفتح التاء ؛ قال أبو جعفر : « هَيْتَ لَكَ » بفتح التاء لالتقاء الساكنين ، لأنه صوت نحو مَهْ وصَهْ يجب ألّا يعرب ،

والفتح خفيف ، لأن قبل التاء ياء مثل أين وكيف ؛ ومن كسر التاء فإنما كسرها لأن الأصل الكسر ؛ لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر ، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية ؛ أى قالت : دعائى لك ، فلما حذفت الإضافة بنى على الضم ؛ مثل حيثُ وبعدُ . وقراءة أهل المدينة فيها قولان : أحدهما — أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مرّ . والآخر — أن يكون فعلا من هَاءَ يَهِيء مثل جاء يجىء ؛ فيكون المعنى فى «هِئْتَ» أى حسنت هيئتك ، ويكون «لَكَ» من كلام آخر ، كما تقول : لكَ أعنى . ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأتُ لك ؛ وكذلك من قرأ « هِيتُ لَكَ » . وأنكر أبو عمرو هذه القراءة ؛ قال أبو عبيدة — مَعْمَر بن الْمُثَنَّى : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو : باطل ؛ جعلها من تهيأت ! اذهب فاستعرِض العرب حتى تنتهى إلى اليمن هل تعرف أحدا يقول هـذا ؟ ! وقال الكسائى أيضا : لم تُحكَ « هِئتُ » عن العرب . قال عِكرمة : «هِئتُ لك» أى تهيأت لك وتزينت وتحسنت ، وهى قراءة غير مرضية ، لأنها لم تسمع فى العربيـة . قال النحاس : وهى جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هَاءَ الرجلُ يَهاء ويَهِيء هيأةً فهاء يَهىء مثل جاء يجىء ، وهِئتُ مثل جئت . وكسر الهاء فى « هيت » لغـة لقوم يؤثرون كسر الهاء على فتحها . قال الزجاج : أجود القراءات « هَيْتَ » بفتح الهاء والتاء ؛ قال طَرَفة :

ليس قومى بالأبعدين إذا ما * قال داعٍ من العشيرة هَيْتَ

بفتح الهاء والتاء .

وقال الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

أَبلغْ أميرَ المؤمنـ * ـينَ أخا العراقِ إذا أَتيتَا

إنّ العراقَ وأهلَهُ * سِلْمٌ إليكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

قال ابن عباس والحسن : « هيت » كلمة بالسريانيـة تدعوه إلى نفسها . وقال السُّدىّ : معناها بالقبطية هلمّ لك . قال أبو عبيـد كان الكسائىّ يقول : هى لغة لأهل حَوْران وقعت إلى أهـل الحجاز معناه تعال ؛ قال أبو عبيد : فسألت شيخا عالما من حَوْرَان فذكر أنها

لغتهم؛ وبه قال عِكْرِمة . وقال مجاهد وغيره : هى لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها ، وهى كلمة حثّ وإقبال على الأشياء؛ قال الجوهرىّ : يقال هَوَّتَ به وهَيَّتَ به إذا صاح به ودعاه؛ قال :

قد رَابَنِي أَنَّ الْكَرِيَّ أَسْكَتَا * لو كان مَعْنِيًّا بها لَهَيَّتَا

أى صاح؛ وقال آخر :

* يَحْدُو بها كُلُّ فتى هَيَّاتِ *

قوله تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أى أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتنى إليه؛ وهو مصدر، أى أعوذ بالله مَعاذا؛ فيحذف المفعول وينتصب المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى ٱسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول ، كما تقول : مررت بزيد مرور عمرو أى كمرورى بعمرو. ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعنى زوجها، أى هو سيّدى أكرمنى فلا أخونه؛ قاله مجاهد وٱبن إسحق والسدى . وقال الزّجاج : أى إن الله ربى تولانى بلطفه ، فلا أركب ما حرّمه . ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرَّحِم صوّرنى ربِّى؛ قالت : يا يوسف ما أحسن شَعْرك ! قال : هو أول شىء يَبْلى منّى فى قبرى؛ قالت : يا يوسف ! ما أحسن عينيك ؟ قال : بهما أنظر إلى ربّى . قالت : يا يوسف ! ٱرفع بصرك فٱنظر فى وجهى ، قال : إنى أخاف العمى فى آخرتى . قالت : يا يوسف ! أدنو منك وتتباعد منى ؟ ! قال : أريد بذلك القرب من ربى . قالت : يا يوسف ! القَيْطون[1] فٱدخل معى، قال: القَيْطُون لا يسترنى من ربّى . قالت : يا يوسف ! فراش الحرير قد فرشته لك ، قم فٱقض حاجتى ، قال : إذًا يذهب من الجنة نصيبى؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمِلْن إلى يوسف مَيْل شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هيبة النبوّة؛ فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه . وٱختلف العلماء فى همّه؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية ، وأما يوسف فهمّ بها

(١) القيطون : المخدع ، أعجمىّ، وقيل : بلغة أهل مصر وبربر .

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما همّ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فإذًا فى الكلام تقديم وتأخير؛ أى لولا أن رأى برهان ربه همّ بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبى عبيدة فلما أتيت على قوله: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه أراد ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. وقال أحمد بن يحيى: أى همت زليخا بالمعصية وكانت مصرّة، وهمّ يوسف ولم يواقع ما همّ به؛ فبين الهمتين فرق، ذكر هذين القولين الهروىّ فى كتابه. قال جميل:

همَمْتُ بِهَمٍّ من بُثينةَ لو بَدَا * شَفيتُ غَليلاتِ الهوَى من فُؤاديا

آخر:

همَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتنى * تركتُ على عثمانَ تبكى حلائلُه

فهذا كله حديث نفس من غير عزم. وقيل: همّ بها تمنى زوجيتها. وقيل: همّ بها أى بضربها ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه عن الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها. وقيل: إن همّ يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من آمرأته؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكر القُشيرىّ أبو نصر، وآبن الأنبارىّ والنحاس والماوردىّ وغيرهم. قال آبن عباس: حلّ الهِمْيان (١) وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: آستلقت على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وقال سعيد آبن جُبير: أطلق تِكّة سراويله. وقال مجاهد: حلّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرجل من آمرأته. قال آبن عباس: ولما قال: «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي»، قالوا: والآنكفاف فى مثل هذه الحالة دالّ على الإخلاص، وأعظم للثواب.

---

(١) الهميان شداد السراويل.

قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى الكفل حسب ما يأتى بيانه فى «ص»[1] إن شاء الله تعالى . وجواب «لولا» على هذا محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما همّ به ؛ ومثله « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » وجوابه لم تتنافسوا ؛ قال ابن عطية : روى هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة فى ذلك أن يكون مثلا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ، ولم يوبقه القرب من الذنب ، وهذا كله على أن همّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلى زليخا وأخذ فى حل ثيابه وتِكَّته ونحو ذلك ، وهى قد استلقت له ؛ حكاه الطبرى . وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام : وابن عباس ومن دونه لا يختلفون فى أنه همّ بها ، وهو أعلم بالله وبتأويل كتابه ، وأشدّ تعظيما للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم . وقال الحسن : إن الله عز وجل لم يذكر معاصى الأنبياء ليعيرهم بها ؛ ولكنه ذكرها لئلا ييئسوا من التوبة . الغزنوى : مع ان لزلة الأنبياء حِكَمًا ؛ زيادة الوجل ، وشدّة الحياء بالخجل ، والتخلّى عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل ، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل . قال القُشيرى أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف همّ ، وكان ذلك حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل ؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس ؛ والبرهان صرفه عن هذا الهمّ حتى لم يصر عزما مصمما .

قلت : هذا قول حسن ؛ وممن قال به الحسن . قال ابن عطية : الذى أقول به فى هذه الآية إن كون يوسف فى هذه النازلة لم يصح كونه نبيا ، ولا تظاهرت به رواية ؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتى حُكما وعلما ، ويجوز عليه الهمّ الذى هو إرادة الشىء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الردىء على ما فى ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبيا فى ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندى إلا الهمّ الذى هو خاطر ، ولا يصح عليه شىء مما ذكر من حلّ تِكّته

(١) راجع تفسير آية ٤٨ من السورة المذكورة ، آية ٨٥ من سورة « الأنبياء » .

ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوّة . وما روى من أنه قيل له : « تكون فى ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء » فإنما معناه العِدَة بالنبوّة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ» يدل على أنه كان نبيًّا على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ وإن كان نبيًّا فلم يبق إلا أن يكون الهمّ الذى همّ به ما يخطر فى النفس ولا يثبت فى الصدر؛ وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه؛ ويكون قوله : «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» — إن كان من قول يوسف — أى من هذا الهمّ، ويكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف، لمخالفة النفس لما زكّى به قبل وبرئ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا» على ما تقدم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبى فى أهله؛ فما تعرّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفرّ منها؛ حكمة خُصّ بها، وعملًا بمقتضى ما علّمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جَرَّاي [1]" . وقال عليه السلام مخبرا عن ربه : "إذا همّ عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة" فإذا كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفى الصحيح: "إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به نفسها ما لم تعمل أو تَكَلَّمْ به" وقد تقدّم . قال ابن العربى : كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، — وأىّ إمام — يعرف بابن عطاء ! تكلّم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال : يا شيخ! يا سيدنا ! فإذًا يوسف همّ وما تمّ؟ قال: نعم ! لأن العناية من ثَمّ . فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وانظر إلى فطنة العامى فى سؤاله،

(١) من جراى : أى من أجلى ؛ وفى نسخة من صحيح مسلم "من جرائى" .

وجواب العالم فى ٱختصاره وٱستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية : إن فائدة قوله « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة .

قلت : وإذا تقررت عصمته وبراءته بثناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَب بن عثمان : إن سليمان بن يسار كان من أحسن النـاس وجها ، فاشتاقته ٱمرأة فسامته نفسهـا فامتنع عليها وذكّرها ، فقالت : إن لم تفعل لأشهرنك؛ فخرج وتركها ، فرأى فى منامه يوسف الصديق عليه السلام جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذى هممتُ ، وأنت سليمان الذى لم تهمّ ؟ ! فإن هـذا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوّة وهو محال؛ ولو قدّرنا يوسف غير نبى فدرجته الولاية ، فيكون محفوظا كهو؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب ، وروجـع فى المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليـه الفتنة ، وعظيم المحنة ، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ والجواب محذوف لعلم السامع؛ أى لكان ما كان . وهـذا البرهان غير مذكور فى القرآن؛ فروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن زليخا قامت إلى صنم مكلل بالدر واليـاقوت فى زاوية البيت فسـترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحى من إلهى هـذا أن يرانى فى هـذه الصورة؛ فقـال يوسف : أنا أولى أن أستحى من الله؛ وهـذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل . وقيـل : رأى مكتوبا فى سقف البيت « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً » . وقال ٱبن عباس : بدت كفّ مكتوب عليها « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودى يا يوسف ! أنت مكتوب فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟ ! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجـدران عاضا على أنملته يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله؛ قاله قَتادة ومجاهـد والحسن والضّحاك وأبو صالح وسـعيد بن جُبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حلّ سراويله فتمثل له يعقوب ، وقال له : يا يوسـف ! فولّى هاربا . وروى سفيان عن أبى حصين عن سـعيد بن جُبـير قال : مثل له يعقوب فضرب

صـدره فخرجت شهوته من أنامله ؛ قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب آثنا عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، ونقص بتلك الشهوة ولده ؛ وقيـل غير هذا . وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه ، وآمتنع عن المعصية .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْـهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ الكاف من « كذلك » يجوز أن تكون رفعا ، بأن يكون خبر آبتداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نعتا لمصدر محذوف ؛ أى أريناه البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة . وقيل : السوء الثناء القبيح ، والفحشاء الزنى . وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة . وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وآبن عامر « المخلِصين » بكسر اللام ؛ وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله . وقرأ الباقون بفتح اللام ، وتأويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته ؛ وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلِصا فى طاعة الله تعالى ، مستخلَصا لرسالة الله تعالى .

قوله تعـالى : وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وآستبقا الباب وقدّت قميصه من دبرٍ ﴾ .

فيـه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ قالت العلماء : وهذا من آختصار القرآن المعجز الذى يجتمع فيه المعانى ؛ وذلك أنه لمـا رأى برهان ربه هرب منهـا فتعاديا ، هى لترده إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فأدركته قبل أن يخرج « وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى من خَلْفه ؛ قبضت فى أعلى قميصه فتخرّق القميص عند طوقه ، ونزل التخريق إلى أسفل القميص .

والاستباق طلب السّبق إلى الشيء ؛ ومنه السّباق . والقدّ القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا ؛ قال النابغة [(١)] :

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضَاعَفَ نَسْجُهُ * وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

والقَطّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضا . وقال المفضّل بن حرب : قرأت فى مصحف « فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ عُطَّ مِنْ دُبُرٍ » أى شُقّ . قال يعقوب : العَطّ الشّق فى الجلد الصحيح والثوب الصحيح . وحذفت الألف من «آستبقا» فى اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها؛ كما يقال : جاءنى عبدا الله فى التثنية؛ ومن العرب من يقول : جاءنى عبدا الله بإثبات الألف بغير همز، ويجمع بين ساكنين؛ لأن الثانى مدغم، والأوّل حرف مدّ ولين . ومنهم من يقول : عبدا الله بإثبات الألف والهمز، كما تقول فى الوقف .

الثانيــة – فى الآية دليل على القياس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة ؛ لما ذكر من قدّ القميص مقبلا ومدبرا ، وهذا أمر آنفرد به المالكية فى كتبهم؛ وذلك أن القميص إذا جُبِذ من خلف تمزّق من تلك الجهة ، و إذا جُبِذ من قدّام تمزق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ أى وجدا العزيز عند الباب ، وعَنَى بالسيّد الزوج ؛ والقبط يسمّون الزوج سيّدا . يقال : ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد [(٢)] ؛ فلما رأت زوجها طلبت وجها للحيلة وكادت فقالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أى زنًى . ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تقول : يُضرب ضربا وجيعا . و « ما جزاء » ابتداء، وخبره « أن يسجن » . « أو عذاب » عطف على موضع «أن يسجن» لأن المعنى : إلا السّجن . ويجوز أو عذابا أليما بمعنى : أو يعذّب عذابا أليما؛ قاله الكسائى .

---

(١) يصف السيوف ، وقد تقدّم شرح البيت بهامش ص ١٠٣ من هذا الجزء .

(٢) كذا العبارة فى الأصل وفى « البحر المحيط » ، ولم نقف على مادة (وارط و والط ولاط) بمعنى (ألفى) فى معاجم اللغة .

قوله تعالى : قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : لما برأت نفسها، ولم تكن صادقة فى حبه — لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب — قال « هى راودتنى عن نفسى » نطق يوسف بالحق فى مقابلة بهتها وكذبها عليه . قال نوف الشامىّ وغيره : كأن يوسف عليه السلام لم يبن عن كشف القضية، فلما بَغَت به غضب فقال الحق .

الثانيــة — ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ لأنهما لما تعارضا فى القول آحتاج الملك إلى شاهد يعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أى حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة . وقد آختلف فى هـذا الشاهد على أقوال أربعة : الأول — أنه طفل فى المهد تكلم؛ قال السهيلى : وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : "لم يتكلم فى المهـد إلا ثلاثة" وذكر فيهم شاهـد يوسف . وقال القشـيرىّ أبو نصر : قيل كان صبيا فى المهـد فى الدار وهو آبن خالتها ؛ وروى سعيد بن جبير عن آبن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تكلم أربعة وهم صغار" فذكر منهم شاهد يوسف؛ فهذا قول . الثانى — أن الشاهد قدّ القميص ؛ رواه ابن أبى نجيح عن مجاهـد ، وهو مجاز صحيح من جهة اللغـة ؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال ؛

وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بما هى عليه من الصفات، وذلك كثير فى أشعارها وكلامها؛ ومن أحلاه قول بعضهم: قال الحائط للوتد لِمَ تَشقُّنى؟ قال له: سَلْ من يَدُقُّنى. إلا أن قول الله تعالى بعد «من أهلها» يبطل أن يكون القميص. الثالث — أنه خَلْق من خَلْق الله تعالى ليس بإنسىّ ولا بجنىّ؛ قاله مجاهد أيضا؛ وهذا يرده قوله: «من أهلها». الرابع — أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره فى أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعت الاستبدار والجلبة من وراء الباب، وشق القميص، فلا يدرى أيكما كان قدّام صاحبه؛ فإن كان شقّ القميص من قدامه فأنت صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف؛ هذا قول الحسن وعِكرمة وقَتَادة والضّحّاك ومجاهد أيضا والسدّى. قال السدّى: كان ٱبن عمها؛ وروى عن ٱبن عباس، وهو الصحيح فى الباب، والله أعلم. وروى عن ٱبن عباس — رواه إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة — قال: كان رجلا ذا لحية. وقال سفيان عن جابر عن ٱبن أبى مليكة عن ٱبن عباس أنه قال: كان من خاصة الملك. وقال عكرمة: لم يكن بصبىّ، ولكن كان رجلا حكيما. وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: كان رجلا. قال أبو جعفر النحاس: والأشبه بالمعنى — والله أعلم — أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغنى عن أن يأتى بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة؛ وليس هذا بمخالف للحديث "تكلم أربعة وهم صغار" منهم صاحب يوسف؛ يكون المعنى: صغيرا ليس بشيخ؛ وفى هذا دليل آخر وهو: أن ٱبن عباس رضى الله عنهما روى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبىّ.

قلت: قد روى عن ٱبن عباس وأبى هُريرة وٱبن جُبير وهلال بن يِسَاف[1] والضّحّاك أنه كان صبيا فى المهد؛ إلا أنه لو كان صبيا تكلم لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى

(١) هو بالكسر وقد يفتح.

استدلال بالقميص، وكان يكون ذلك خرق عادة، ونوع معجزة ؛ والله أعلم . وسيأتى من تكلم فى المهد من الصبيان فى سورة « البروج » إن شاء الله .

الثالثـة — إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلا صغيرا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا ؛ وإذا كان رجلا فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة فى اللقطة وكثير من المواضع ؛ حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وجدت معهم أمتعة فجاء قوم فادعوها، وليست لهم بيّنة فإن السلطان يتلوّم[1] لهم فى ذلك ؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم . وقال محمد فى متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل : إن ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل . وكان شُرَيح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات فى الحكومات ؛ وأصل ذلك هذه الآية، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ كان فى موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل ؛ لأن حروف الشرط تردّ الماضى إلى المستقبل، وليس هذا فى كان ؛ فقال المبرد محمد بن يزيد : هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال . وقال الزجاج : المعنى إن يكن ؛ أى إن يُعلَم، والعلم لم يقع، وكذا الكون لأنه يؤدى عن العلم . « قُدَّ مِنْ قُبُـلٍ » نخبرٌ عن « كان » بالفعل الماضى ؛ كما قال زهير :

وكان طَوَى كَشْحًا على مُسْتَكِنَّةٍ * فلا هـو أبداها ولم يَتقـدَّمِ[2]

وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبى إسحق « مِنْ قُبُـلُ » بضم القاف والباء واللام ، وكذا « دبرُ » قال الزجاج : يجعلهما غايتين كقبلُ وبعـدُ ؛ كأنه قال : من قُبُلِه ومن دُبُرِه ، فلما حذف المضاف إليه — وهو مراد — صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له . ويجوز « من قُبُلَ »« ومن دُبُرَ » بفتح الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه . وروى محبوب عن أبى عمرو « من قُبْلٍ » « ومن دُبْرٍ » مخففان مجروران .

---

(١) التلوم : التنظر للأمر تريده . (٢) الكشح : الجنب؛ ويقال : طوى كشحه على كذا إذا أضمره . والمستكنة : الحقد . ويروى : (ولم يتجمجم) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ قيل : قال لها ذلك العزيز عند قولها « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدم فى « الأنفال »[1] . ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وإنما قال « عظيم » لعظم فتنتهنّ واحتيالهنّ فى التخلّص من ورطتهنّ . وقال مقاتل عن يحيى بن أبى كثير عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقال « إن كيدكن عظيم » " .

قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد ، أى يا يوسف ، فحذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى لا تذكره لأحد واكتمه . ثم أقبل عليها فقال : وأنتِ ﴿ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ يقول : استغفرى زوجك من ذنبك لا يعاقبك . ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فغلّب المذكر ؛ والمعنى : من الناس الخاطئين ، أو من القوم الخاطئين ؛ مثل « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » « وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ » . وقيل : إن القائل ليوسف أعرض ولها استغفرى زوجها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما — أنه لم يكن غيورا ؛ فلذلك كان ساكتا . وعدم الغيرة فى كثير من أهل مصر موجود . الثانى — أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفى بادرته وعفا عنها .

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٨٦ طبعة أولى أو ثانية .

وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ ﴾ ويقال : «نُسْوَة» بضم النون، وهى قراءة الأعمش والمفضّل والسُّلَمىّ، والجمع الكثير نساء . ويجوز : وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب؛ وذلك أن القصة ٱنتشرت فى أهل مصر فتحدّث النساء . قيل : ٱمرأة ساقى العزيز، وٱمرأة خبازه، وٱمرأة صاحب دوابه، وٱمرأة صاحب سجنه . وقيل : ٱمرأة الحاجب ؛ عن ٱبن عباس وغيره . ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ الفتى فى كلام العرب الشاب، والمرأة فتاة . ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ قيل : شغفها غلبها . وقيل : دخل حبه فى شَغافها؛ عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن عِكرمة عن ٱبن عباس قال: دخل تحت شَغافها . وقال الحسن : الشّغف باطن القلب . السدّى وأبو عبيد : شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه . وقيل : هو وسط القلب؛ والمعنى فى هذه الأقوال متقارب، والمعنى : وصل حبه إلى شَغافها فغلب عليه؛ قال النابغة :

وقـد حال هَمٌّ دون ذلك داخلٌ * دخولَ الشّغافِ تبتغيه الأصابعُ[1]

وقد قيل : إن الشّغاف داء، وأنشد الأصمعى للراجز :

* يتبعها وهى له شَغافُ *

وقرأ أبو جعفر بن محمد وٱبن محيصن والحسن «شَعَفَهَا» بالعين غير معجمة؛ قال ٱبن الأعرابى: معناه أحرق حبه قلبها ؛ قال : وعلى الأول العمل . قال الجوهرىّ : وشَعفه الحبُّ أحرق قلبه. وقال أبو زيد : أمرضه . وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف. وقرأ الحسن « قَدْ شَعَفَهَا » قال : بَطَنها حبًّا . قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قـد ذهب بها كل مذهب ؛

(١) يعنى أصابع المطببين ؛ يقول : قد حال عن البكاء على الديار هم دخل فى الفؤاد، حتى أصابه منه داء .

لأن شِعَاف الجبال أعاليها ؛ وقد شُغِف بذلك شَغْفا بإسكان الغين إذا أُولع به ؛ إلا أن أبا عبيدة أنشد بيت آمرئ القيس :

لتقتلَنى وقــد شَعَفْتُ فؤادَها * كما شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ(١) الرّجلُ الطَّالِي

قال : فشبهت لوعةُ الحبّ وجــواه بذلك . وروى عن الشّعْبى أنه قال : الشّــغف بالغين المعجمة حبّ ، والشّعف بالعين غير المعجمة جنون . قال النحاس : وحكى « قد شَغِفَها » بكسر الغين، ولا يعرف فى كلام العرب إلا « شَغَفها » بفتح الغين، وكذا « شَعَفها » أى تركها مشعوفة . وقال سـعيد بن أبى عَرُوبة عن الحسن : الشّـغاف حجاب القلب ، والشّعاف سـويداء القلب ، فلو وصـل الحبّ إلى الشّـعاف لماتت ؛ وقال الحسن : ويقـال إن الشّغاف الجلدة اللاصقة بالقلب التى لا ترى، وهى الجلدة البيضاء، فلصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالقلب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى هذا الفعل . وقال قَتَادة : « فتاها » وهو فتى زوجها، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المماليك، وكان ينفذ أمرها فيــه . وقال مقاتل عن آبن عثمان النَّهْدىّ عن سلمان الفارسىّ قال : إن آمرأة العزيز آستوهبت زوجها يوسف فوهبه لها، وقال : ما تصنعين به ؟ قالت : أتخذه ولدا؛ قال : هو لك؛ فربّته حتى أيفع وفى نفسهـا منه ما فى نفسهـا، فكانت تنكشف له وتتزين وتدعوه من وجه اللطف فعصمه الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أى بغيبتهنّ إياها ، وآحتيالهنّ فى ذمها . وقيل : إنها أطلعتهنّ واستأمنتهنّ فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكرا . وقوله : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى أرسلت إليهن تدعوهنّ إلى وليمة لتُوقعهنّ فيما وقعت فيه؛ فقال مجاهد عن آبن عباس إن آمرأة العزيز قالت لزوجها : إنى أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة؛ فقال لها : افعلى؛ فاتخذت طعاما، ثم نَجَّدت لهن البيوت؛ نَجَّدت أى زينت؛ والنَّجْد ما يُنَجَّد

(١) المهنوءة : المطلية بالقطران ، وإذا هنىء البعير بالقطران يجد له لذة مع حرقة ، كحرقة الهوى مع لذته .

به البيت من المتاع أى يُزيَّن، والجمع نُجُود؛ عن أبى عُبيد؛ والتنجيد التزيين؛ وأرسلت إليهنّ أن يحضُرن طعامها، ولا تتخلف منكنّ آمرأة ممن سميتُ . قال وهب بن مُنبِّه : إنهنّ كنّ أربعين آمرأة بجئن على كُرْه منهنّ، وقد قال فيهنّ أُميّة بن أبى الصَّلْت :

حتى إذا جئنها قسرا * ومهدت لهن أنضادا وكبابا (١)

ويُروى أنماطا . قال وهب : بجئن وأخذن مجالسهنّ . ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أى هيأت لهنّ مجالس يتكئن عليها . قال آبن جُبَير : فى كل مجلس جَامٌ فيه عسل وأُتْرُجّ وسكّين حاد . وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير « مُتْكًا » مخففا غير مهموز، والمُتْك هو الأُتْرُجّ بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد . روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : المُتَّكأ مثقلا الطعام، والمُتْك مخفّفا الأُتْرُجّ؛ وقال الشاعر :

نَشْرَبُ الإثمَ بالصُّواعِ جِهَارًا * وتَرَى المُتْكَ بَيْنَنَا مُسْتعارَا

وقد تقول أَزْدُ شَنُوءة : الأُترجّة المُتْكَة؛ قال الجوهرىّ : المُتْك ما تُبقيه الخاتنة . وأصل المُتْك الزُّماوَرْد (٢) . والمَتْكاء من النساء التى لم تُخْفَض (٣) . قال الفرّاء : حدّثنى شيخ من ثقات أهل البصرة أن المُتك مخففا الزُّماوَرْد . وقال بعضهم : إنه الأترجّ؛ حكاه الأخفش . بن زيد : أترجًّا وعسلا يؤكل به؛ قال الشاعر (٤) :

فَظِلْنا بنعمةٍ وآتّكأْنَا * وشَرِبْنا الحلالَ من قُلَلِه

أى أكلنا .

النحاس : قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ من العَتَاد؛ وهو كل ما جعلته عُدّة لشىء . ﴿مُتَّكَأً﴾ أصح ما قيل فيه ما رواه علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس قال : مجلسا ، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير : طعام متكأ، مثل « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ »؛ ودل على

---

(١) كذا البيت فى الأصل . (٢) الزماورد : الرقاق الملفوف باللحم وغيره، أو هو شىء يشبه الأترج .

(٣) خفض الجارية : ختنها، وكذا الصبى، والأعرف أن الخفض للجارية والختان للصبى . (٤) هو جميل ابن معمر، والقلل جمع قلة ، والقلة الحب العظيم . وقيل : الجرة الكبيرة . وقيل : الكوز الصغير . وقيل غير ذلك .

هذا الحذف « وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا » لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين ؛ كذا قال فى كتاب « إعراب القرآن » له . وقال فى كتاب « معانى القرآن » : وروى مَعْمَر عن قَتادة قال : « المتكأ » الطعام . وقيل : « المتكأ » كل ما آتكىء عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة، إلا أن الروايات قد صحت بذلك . وحكى القُتبىّ أنه يقال : آتكأنا عند فلان أى أكلنا ، والأصل فى «متكأ» موتكأ، ومثله مُتَّزِن ومُتَّعِد؛ لأنه من وزنت ووعدت ووكأت، ويقال : آتَّكأ يتَّكئ آتِّكاء. ﴿ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ مفعولان؛ وحكى الكسائى والفراء أن السِّكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء :

فَعَيَّثَ فِى السَّنَامِ(١) غَدَاةَ قُرٍّ * بسكِّينٍ مُوَثَّقَةِ النِّصَاب

الجوهرىّ : والغالب عليه التذكير، وقال :

يُرَى ناصحًا فيما بَدَا فإذا خَلَا * فذلك سكِّينٌ على الحَلْقِ حَاذِقُ

الأصمعى : لا يعرف فى السكّين إلا التذكير .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتُ آخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ بضم التاء لالتقاء الساكنين؛ لأن الكسرة تثقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل . قيل إنها قالت لهن : لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن، ثم قالت لخادمها : إذا قلت لك آدع لى إيلا فادع يوسف؛ وإيل : صنم كانوا يعبدونه، وكان يوسف عليه السلام يعمل فى الطين، وقد شدّ مئزره، وحَسَر عن ذراعيه؛ فقالت للخادم : آدع لى إيلا؛ أى آدع لى الربّ؛ وإيل بالعبرانية الربّ؛ قال : فتعجب النسوة وقلن : كيف يجيء ؟ ! فصعدت الخادم فدعت يوسف، فلما انحدر قالت لهن : آقطعن ما معكن. ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ قاله وهب بن مُنَبِّه . سعيد بن جُبير : لم يخرج عليهن حتى زينته، فخرج عليهن بغتة فدهشن فيه، وتحيّرن لحسن وجهه وزينته وما عليه، فجعلن يقطعن أيديهن، ويحسبن أنهن يقطعن الأُتْرُجّ؛ واختلف

(١) عيث فى السنام بالسكين أثر .

فى معنى « أَكْبَرْنَهُ » فروى جُوَيبر عن الضحّاك عن ٱبن عباس : أعظمنه وهِبْنه ؛ وعنه أيضا أَمْنين وأَمْذين من الدَّهش ؛ وقال الشاعر :

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قَارةٍ[(١)] * صَهَلْنَ وَأَكْبَرْنَ المنىّ المدفقا

وقال ٱبن سمعان عن عدة من أصحابه : إنهم قالوا أمذين عشقا ؛ وهب بن مُنبّه : عشقنه حتى مات منهن عشرة فى ذلك المجلس دَهَشا وحيرة ووَجْدا بيوسف . وقيل : معناه حضْن من الدَّهش ؛ قاله قَتادة ومقاتل والسّدى ؛ قال الشاعر :

نأتى النساءَ على أطهارهنّ ولا * نأتى النّساءَ إذا أَكْبَرْنَ إِكْبَارَا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا : ليس ذلك فى كلام العرب ، ولكنه يجوز أن يكنّ حضْن من شدّة إعظامهن له ، وقد تفزع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض . قال الزجاج : يقال أكبرنه ، ولا يقال حِضْنه ، فليس الإكبار بمعنى الحيض ؛ وأجاب الأزهرى فقال : يجوز أَكْبرت بمعنى حاضت ؛ لأن المرأة إذا حاضت فى الابتداء خرجت من حَيِّز الصغر إلى الكبر ؛ قال : والهاء فى « أكبرنه » يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية ؛ وهذا مزيَّف ، لأن هاء الوقف تسقط فى الوصل ، وأمثل منه قول ٱبن الأنبارى : إن الهاء كناية عن مصدر الفعل ؛ أى أكبرن إكبارا ، بمعنى حِضْن حَيْضا . وعلى قول ٱبن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف ؛ أى أعظمن يوسف وأَجْلَلْنه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال مجاهد : قطّعنها حتى ألقينها . وقيل : خدشْنها . وروى ٱبن أبى نَجيح قال : حَزًّا بالسّكين ، قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعا تَبِين منه اليد ، إنما هو خَدْش وحزّ ، وذلك معروف فى اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده . وقال عِكرمة : « أيديهنّ » أكمامهنّ ، وفيه بُعْد . وقيل : أناملهنّ ؛ أى ما وجدن ألما فى القطع والجرح ، أى لشغل قلوبهن بيوسف ، والتقطيع يشير إلى الكثرة ، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها فى مواضع ، ويمكن أن يرجع إلى عَددهنّ .

(١) القارة : الجبيل الصغير المنقطع عن الجبال ، وقيل : الصخرة العظيمة ، وقيل غير ذلك .

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى معاذ الله. وروى الأصمعىّ عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء «وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ» بإثبات الألف وهو الأصل، ومن حذفها جعل اللام فى «لله» عوضا منها. وفيها أربع لغات؛ يقال: حَاشَاكَ وحَاشَا لَكَ وحاشَ لَكَ وحَشَا لكَ. ويقال: حَاشَا زيدٍ وحاشا زيدًا؛ قال النحاس: وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: النصب أولى؛ لأنه قد صحّ أنها فعلٌ لقولهم حاش لزيد، والحرف لا يحذف منه؛ وقد قال النابغة:

* وَلَا أُحاشِى من الأقوامِ من أَحَدِ [(١)] *

وقال بعضهم: حاشَ حرف، وأُحاشى فعل. ويدل على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها. وحكى أبو زيد عن أعرابىّ: اللهم آغفر لى ولمن يسمع، حاشا الشيطانَ وأبا الأصبغ [(٢)]؛ فنصب بها. وقرأ الحسن «وَقُلْنَ حَاشْ لِلَّهِ» بإسكان الشين، وعنه أيضا «حاشَ الإله». ابن مسعود وأبىّ: «حَاشَ اللهِ» بغير لام، ومنه قول الشاعر [(٣)]:

حاشا أبى ثَوْبانَ إنّ به * ضَنًّا عنِ المَلْحاةِ والشَّتْمِ

قال الزّجاج: وأصل الكلمة من الحاشية، والحَشَا بمعنى الناحية، تقول: كنت فى حَشَا فلانٍ أى فى ناحيته؛ فقولك: حاشا لزيدٍ أى تَنَحَّى زيدٌ من هذا وتباعد عنه، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين. وقال أبو على: هو فاعل من المحاشاة؛ أى حاشا يوسف وصار فى حاشية وناحية مما قُرِف به، أو من أن يكون بشرا؛ فحاشا وحاش فى الاستثناء حرف جرّ عند سيبويه، وعلى ما قال المبرّد وأبو علىّ فعل.

قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ قال الخليل وسيبويه: «ما» بمنزلة ليس؛ تقول: ليس زيدٌ قائما، و«مَا هَذَا بَشَرًا» و«ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ». وقال الكوفيون: لما حذفت الباء

---

(١) صدر البيت: * ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه *
وهو من قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر إليه. (٢) كلام منثور. (٣) هو سبرة بن عمرو الأسدى، وقيل: هو للجميح الأسدى، واسمه منقذ بن الطماح. والملحاة: اللوم.

نصبت؛ وشرح هذا — فيما قاله أحمد بن يحيى — أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض؛ فلما حذفت الباء نصبت لتدل على محلها، قال : وهذا قول الفرّاء، قال : ولم تعمل «ما» شيئا؛ فألزمهم البصريون أن يقولوا : زيد القمرَ؛ لأن المعنى كالقمر ! فردّ أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل فى حروف الخفض من الكاف؛ لأن الكاف تكون آسما . قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول يتناقض؛ لأن الفرّاء أجاز نصًّا ما بمنطلق زيدٌ، وأنشد :

أَمَا واللهِ أَنْ لو كنتَ حُرًّا * وما بالحُرِّ أنتَ ولا العَتيقِ

ومنع نصًّا النصب؛ ولا نعلم بين النحويين آختلافا أنه جائز : ما فيك براغب زيدٌ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو، ثم يحذفون الباء ويرفعون . وحكى البصريون والكوفيون ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم، وأنشدوا :

أَتَيْمًا تجعلون إلىّ نِدًّا * وما تَيْمٌ لِذِى حَسَبٍ نَدِيدُ

النِّد والنَّديد والنَّديدةُ المِثْل والنَّظير . وحكى الكسائى أنها لغة تِهامة ونَجْد . وزعم الفرّاء أن الرفع أقوى الوجهين؛ قال أبو إسحق : وهذا غلط؛ كتاب الله عز وجل ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى .

قلت : وفى مصحف حَفْصة رضى الله عنها «مَاهَذَا بِبَشَرٍ» ذكره الغَزْنوى . قال القُشَيرى أبو نصر : وذكرت النّسوة أن [صورة] يوسف أحسن من صورة البشر، بل هو فى صورة مَلَك؛ وقال الله تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» والجمع بين الآيتين أن قولهنّ : «حاش لله» تبرئة ليوسف عمّا رمته به آمرأة العزيز من المراودة؛ أى بعد يوسف عن هذا؛ وقولهنّ : «لله» أى لخوفه، أى براءة لله من هذا؛ أى قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة فى شىء؛ والمعنى : أنه فى التبرئة عن المعاصى كالملائكة؛ فعلى هذا لا تناقض . وقيل : المراد تنزيهه عن مشابهة البشر فى الصورة، لفرط جماله . وقوله : «لله» تأكيد لهذا المعنى؛ فعلى هـذا المعنى قالت النساء ذلك ظنا منهن أن صورة الملك أحسن، وما بلغهنّ قوله

تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فإنه من كتابنا . وقد ظنّ بعض الضَّعفة أن هذا القول لو كان ظنا باطلا منهنّ لوجب على الله أن يردّ عليهنّ، ويبيّن كذبهنّ، وهذا باطل؛ إذ لا وجوب على الله تعالى، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الردّ عليه؛ وأيضا أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان، وفي الحسن كأنه ملك؛ أي لم ير مثله ، لأن الناس لا يرون الملائكة؛ فهو بناء على ظنّ في أن صورة الملك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه و بعده عن التهم . ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي ما هذا إلا ملك؛ وقال الشاعر[1] :

فلستَ لإنسيٍّ ولكنْ لِمَلْأَكٍ * تَـنَزَّلَ من جَوِّ السماءِ يَصُوبُ

و روى عن الحسن «مَا هَذَا بِشِرًى» بكسر الباء والشين، أي ما هذا عبدا مُشترًى، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع، فوضع المصدر موضع اسم المفعول، كما قال : «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» أي مصيده، وشبهه كثير. ويجوز أن يكون المعنى: ما هذا بثمن؛ أي مثله لا يثمن ولا يقوّم؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشترى به ، كقولك : ما هذا بألف إذا نفيت قول القائل هذا بألف ، فالباء على هـذا متعلقة بمحذوف هو الخبر، كأنه قال : ما هذا مقدرا بشراء . وقراءة العامة أشبه؛ لأن بعده «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيما لشأنه، ولأن مثل « بِشِرًى » يكتب في المصحف بالياء .

قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ لما رأت افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها : «لمتنني فيه» أي بحبه، و «ذلك» بمعنى «هذا» وهو اختيار الطّبرى . وقيل : الهاء للحب، و «ذلك» على بابه، والمعنى: ذلكن الحُبّ الذي لمتنني فيه، أي حب هذا هو ذلك الحب. واللوم الوصف بالقبيح . ثم أقرت وقالت : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي امتنع؛

---

(١) هو رجل من عبد القيس جاهلي، يمدح بعض الملوك، قيل : هو النعمان، وقال ابن السيرافي : هو لأبي وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير . وملك — كما قال الكسائي — أصله مألك بتقديم الهمزة؛ من الألوك، وهي الرسالة، ثم قلبت وقدمت اللام فقيل : ملأك، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقيل : ملك، فلما جمعوه ردوها إليه فقالوا : ملائكة وملائك أيضا . (اللسان) .

وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل : « ٱستعصم » أى ٱستعصى، والمعنى واحد. ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ عاودته المراودة بمحضر منهنّ، وهتكت جلباب الحياء، ووعدت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لَوْمًا ولا مقالا خلاف أوّل أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها. ﴿ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أى الأذلّاء. وخط المصحف « وليكونًا » بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد؛ ونون التأكيد تثقل وتخفّف والوقف على قوله : « ليسجنن » بالنون لأنها مثقلة، وعلى « ليكونا » بالألف لأنها مخففة، وهى تشبه نون الإعراب فى قولك : رأيت رجلا وزيدا وعمرا، ومثله قوله : « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » ونحوها الوقف عليها بالألف، كقول الأعشى :

* وَلَا تَعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعبدَا [(١)] *

أراد فاعبدًا، فلما وقف عليه كان الوقف بالألف.

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أى دخول السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزجاج والنحاس. « أحب إلىّ » أى أسهل علىّ وأهون من الوقوع فى المعصية؛ لا أنّ دخول السجن مما يُحَبّ على التحقيق. وحُكى أن يوسف عليه السلام لما قال : « السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » أوحى الله إليه « يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحبّ إلىّ، ولو قلت العافية أحبّ إلىّ لعوفيت ». وحكى أبو حاتم أن عثمان ٱبن عفان رضى الله عنه قرأ « السَّجْن » بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة بن أبى إسحق

(١) صدر البيت : * وذا النصب المنصوب لا تنسكنه *
وهو من قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعبد الرحمن الأعرج و يعقوب؛ وهو مصدر سَجَنه سَجْنا . ﴿وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أى كيد النّسوان . وقيل : كيد النّسوة اللاتى رأينه؛ فإنهنّ أمرنه بمطاوعة آمرأة العزيز، وقلن له : هى مظلومة وقد ظلمتها . وقيل : طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة فى آمرأة العزيز، والقصد بذلك أن تَعذِله فى حقها، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف ! آقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال : يا رب كانت واحدة فصرن جماعة . وقيل : كيد آمرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها فى الخطاب، و إما ليعدل عن التصريح إلى التعريض . والكيد الآحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها ؛ قال عمر بن لجأ :

تَراءتْ كَيْ تَكيدَكَ أُمُّ بِشْرٍ * وكيدٌ بالتّبرّجِ ما تَكيدُ

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ جواب الشرط ، أى أَمِل إليهن ؛ من صبا يصبو — إذا مال وآشتاق — صبوًّا وصَبْوة؛ قال[1] :

إِلَى هِنْدٍ صَبَا قَلْبِي * وهِنْدٌ مِثْلُها يُصْبِي

أى إن لم تَلطُف بى فى آجتناب المعصية وقعت فيها . ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال؛ ودل هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله، ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ لما قال . ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ تعرّض للدعاء ، وكأنه قال : اللهم آصرف عنى كيدهنّ ؛ فاستجاب له دعاءه ، ولطف به وعصمه عن الوقوع فى الزنى . ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه . وقيل : يعنى كيد النساء . وقيل : يعنى كيد آمرأة العزيز ، على ما ذكر فى الآية قبل ؛ والعموم أولى .

(١) هو زيد بن ضبة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ (٣٥)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ أي ظهر للعزيز وأهل مشورته من بعد أن رأوا علامات براءة يوسف — من قدّ القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحزّ الأيدى، وقلة صبرهنّ عن لقاء يوسف — أن يسجنوه كتمانا للقصة ألا تشيع فى العامة، وللحيلولة بينه و بينها. وقيل : هي البركات التى كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم؛ والأول أصح . قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ » قال : القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الايات، وقطع الأيدى من الآيات، و إعظام النساء إياه من الايات . وقيل : ألجأها الخجل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب، لتشتفى إذا مُنعت من نظره؛ قال :

وما صَبابةُ مشتاقٍ على أملٍ * مِن اللّقاء كمشتاقٍ بلا أَمَل

أو كادت رجاء أن يَملّ حبسه فيبذل نفسه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ « يسجننه » فى موضع الفاعل؛ أى ظهر لهم أن يسجنوه؛ هـذا قول سيبويه . قال المبرّد : وهـذا غلط؛ لا يكون الفاعل جملة، ولكن الفاعل ما دل عليه « بدا » وهـو المصدر؛ أى بدا لهم بَدَاءٌ؛ فحذف لأن الفعل يدل عليه؛ كما قال الشاعر :

وحقّ لمن أبو موسى أبـوهُ * يُوفِّقه الذى نَصبَ الجبالَا

أى وحقّ الحقُّ، فحذف . وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأىٌ لم يكونوا يعرفونه؛ وحذف هـذا لأن فى الكلام دليلا عليه ، وحذف أيضا القول؛ أى قالوا : ليسجننه، واللام جواب ليمين مضمر؛ قاله الفرّاء، وهو فعل مذكر لا فعـل مؤنث؛ ولو كان فعلا مؤنثا لكان يَسْجُنَّانِّه؛

ويدل على هذا قوله «لهم» ولم يقل لهنّ ، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهنّ فغلب المذكر ؛ قاله أبو علىّ . وقال السّدىّ : كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه شَهَّرها ونشر خبرها ؛ فالضمير على هذا فى « لهم » للملك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أى إلى مدّة غير معلومة ؛ قاله كثير من المفسّرين . وقال ٱبن عباس : إلى انقطاع ما شاع فى المدينة . وقال سعيد بن جُبير : ستة أشهر . وحكى الكِيَا أنه عَنَى ثلاثة عشر شهرا . عِكْرمة : تسع سنين . الكَلْبىّ : خمس سنين . مقاتل : [ٱثنتى عشرة سنة[1]] . وقد مضى فى « البقرة[2] » القول فى الحين وما يرتبط به من الأحكام . وقال وهب : أقام فى السجن اثنتى عشرة سنة . و « حتى » بمعنى إلى ؛ كقوله : « حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » . وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف من هَمِّه بالمرأة . وكأن العزيز — وإن عرف براءة يوسف — أطاع المرأة فى سجن يوسف . قال ٱبن عباس : عثر يوسف ثلاث عثرات : حين هَمّ بها فسجن ، وحين قال للفتى : « ٱذكرنى عند ربك » فلبث فى السجن بضع سنين ، وحين قال لأخوته : « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » فقالوا : « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » .

الرابعة — أُكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام خمسة أعوام ، وما رضى بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره ؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعا . فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحدّه . وقد قال بعض علمائنا : إنه لا يسقط عنه الحدّ ، وهو ضعيف ؛ فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين ، ولا يصرفه بين بلاءين ؛ فإنه من أعظم الحرج فى الدّين « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » . وسيأتى بيان هذا فى « النحل » إن شاء الله . وصبر يوسف ، وٱستعاذ به من الكيد ، فاستجاب له على ما تقدّم .

---

(١) الزيادة عن (روح المعانى) وتفسير (الفخر الرازى) . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ « فتيان » تثنية فتى ؛ وهو من ذوات الياء ، وقولهم : الفُتُوّ شاذ . قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقيّدا على حمار ، وطِيف به « هـذا جزاء من يعصى سيدته » وهو يقول : هـذا أيسر من مُقَطَّعات النِّيران [(١)] ، وسرابيل القَطِران ، وشرب الحميم ، وأكل الزّقوم ؛ فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قـد ٱنقطع رجاؤهم ، واشـتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : ٱصبروا وأبشروا تؤجروا ؛ فقالوا له : يافتى ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنا فى جوارك ، من أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفىّ الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق ، ابن خليـل الله إبراهيـم . وقال ٱبن عباس : لمـا قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى ، وأنا أريد أن تسجنه ، فسجنه فى السجن ؛ فكان يُعزّى فيه الحزين ، و يعود فيه المريض ، و يداوى فيه الجريح ، و يصلى الليل كله ، و يبكى حتى تبكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ، واستأنس به أهـل السجن ؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس فى السجن

(١) مقطعات النيران : هى على نحو قوله تعالى : « قطعت لهم ثياب من نار » أى خيطت وسو يت وجعلت لبوسا لهم .

مع يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال: يا يوسف! لقد أحببتك حبًّا لم أحبَّ شيئا حبك؛ فقال: أعوذ بالله من حبك؛ قال: ولم ذلك؟ فقال: أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه، وأحبتنى سيدتى فنزل بى ماترى؛ فكان فى حبسه حتى غضب الملك على خبازه وصاحب شرابه؛ وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه، فدسّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يَسُمَّاه جميعا، فأجاب الخبّاز وأبى صاحب الشّراب، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك؛ فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف؛ فذلك قوله: «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ» وقد قيل: إن الخبّاز وضع السم فى الطعام، فلما حضر الطعام قال السّاقى: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخبّاز: لا تشرب! فإن الشراب مسموم؛ فقال الملك للساقى: اشربْ! فشرب فلم يضرّه، وقال للخباز: كُلْ؛ فأبى، فجرّب الطعام على حيوان فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقيا فى السجن تلك المدة مع يوسف. واسم الساقى منجا، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبىّ عن كعب. وقال النقاش: اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأوّل بالشين المعجمة، والآخر بالسين المهملة. وقال الطّبرىّ: الذى رأى أنه يعصر خمرا هو بنوه، قال السّهيلىّ: وذكر اسم الآخر ولم أقيده. وقال «فتيان» لأنهما كانا عبدين، والعبد يسمى فتى، صغيرا كان أو كبيرا؛ ذكره الماوردىّ. وقال القُشَيرىّ: ولعل الفتى كان اسما للعبد فى عرفهم؛ ولهذا قال: «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ». ويحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم وإن لم يكن مملوكا. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذى كان فيه. «قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا» أى عنبا؛ كان يوسف قال لأهل السجن: إنى أعبر الأحلام؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه: تعال حتى نجرّب هذا العبد العبرانى؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا؛ قاله ابن مسعود. وحكى الطّبرىّ أنهما سألاه عن علمه فقال: إنى أعبر الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما. قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها. وفى الصحيح عن أبى هُريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم: "أصدقكم رؤيا أصدقكم

حديثا" . وقيـل : إنهـا كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريبا ؛ وهـذا قول ٱبن مسعود والسدى . وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذبا ، والآخر صادقا ؛ قاله أبو مِجْلَز . وروى الترمذى عن ٱبن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من تحلَّم كاذبا كُلِّف يوم القيامة أن يَعقِد بين شَعيرتين [ولن يَعقِد بينهما][1] " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وعن على عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من كذب فى حُلُمه كُلِّف يوم القيامة عَقْد شَعِيرة" . قال : حديث حسن . قال ٱبن عباس : لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين ؛ فقال لهما يوسف : ما لى أراكما مكروبين ؟ قالا : يا سيدنا ! إنا رأينا ما كرهنا ؛ قال : فقصّا علىّ ، فقصّا عليه ؛ قالا : نبئنا بتأويل ما رأينا ؛ وهذا يدل على أنها كانت رؤيا منام . ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزِّى الحزانى ؛ قال الضّحاك : كان إذا مرض الرجل من أهـل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّـع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . وقيل : « من المحسنين » أى العالمين الذين أحسـنوا العلم ؛ قاله الفراء . وقال ٱبن إسحق : « من المحسنين » لنـا إن فَسَّرته ، كما تقول : افعل كذا وأنت محسن . قال : فما رأيتما ؟ قال الخباز : رأيت كأنى اختبزت فى ثلاثة تنانير ، وجعلته فى ثلاث سلال ، فوضعته على رأسى ، فجاء الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كأنى أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض ، فعصرتهن فى ثلاث أوان ، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتى فيما مضى ، فذلك قوله : « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنبا ، بلغـة عمان ، قاله الضّحاك . وقرأ ٱبن مسـعود « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ عِنَبًا » . وقال الأصمعى : أخبرنى المعتمر بن سليمان أنه لقى أعرابيا ومعه عنب فقال له : ما معك ؟ قال : خمر . وقيل : معنى « أعصر خمرا » أى عنب خمر ، فحذف المضاف . ويقال : خَمرة وخَمر وخُمور ، مثل تمرة وتمر وتُمور . « قال » لهما يوسف : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ

---

(١) الزيادة عن صحيح الترمذى ، قال شارحه : لما تبعته نظرى ظهر إلى أن المخبر بما لم ير عقد من الكلام عقدا باطلا لم يشعر به أى لم يعلمه ، فقيل له اعقد بين شعيرتين ولا ينعقد له ذلك أبدا ، عقوبة لعقده بين كلمات لم يكن منها شىء ، لتكون العقوبة من جنس المعصية .

تُرْزَقَانِهِ ﴾ يعنى لا يجيئكما غدا طعام من منزلكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ لتعلما أنى أعلم تأويل رؤياكما ، فقالا : أفعل ! فقال لهما : يجيئكما كذا وكذا ، فكان على ما قال ؛ وكان هـذا من علم الغيب خُصّ به يوسف . وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى دين الملك . ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أوّلا ما يتعلق بالدين لتهتـدوا ؛ ولهذا لم يعـبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : « يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما يأتى . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليستعدا به . وقيل : إن يوسف كره أن يعبّر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما ، وأخذ فى غيره فقال : « لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ » فى النوم « إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا » بتفسيره فى اليقظة ، قاله السُّدّىّ ، فقالا له : هذا من فعل العرّافين والكَهَنة ، فقال لهما يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علّمنيه ربّى ، إنى لا أخبركما به تَكَهُّنا وتنجيما ، بل هو بوحى من الله عز وجل . وقال ابن جُرَيج : كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه ، فالمعنى : لا يأتيكما طعام ترزقانه فى اليقظة ، فعلى هذا « ترزقانه » أى يجرى عليكما من جهة الملك أو غيره . ويحتمل يرزقكما الله . قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كعيسى عليه السلام . وقيل : إنما دعاهما بذلك إلى الإسـلام ، وجعل المعجزة التى يستدلان بها إخبارهما بالغيوب .

قوله تعـالى : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ لأنهم أنبياء على الحق . ﴿ مَا كَانَ ﴾ أى ما ينبغى . ﴿ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ « مِن » للتأكيد ، كقوله : ما جاءنى من أحد . وقوله تعـالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا ﴾ إشارة إلى عصـمته من الزنى . ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : « ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا » إذ جعلنا أنبياء ، « وعلى الناس » إذ جعلنا الرسل إليهم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ على نعمه بالتوحيد والإيمـان .

قوله تعالى : يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ أى ياساكنى السجن ؛ وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه ، كقولك : أصحاب الجنة ، وأصحاب النار . ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ أى فى الصغر والكبر والتوسط ، أو متفرقون فى العدد . ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وقيل : الخطاب لهما ولأهل السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى ، فقال ذلك إلزاما للحجة ؛ أى آلهة شتّى لا تضر ولا تنفع «خير أمِ الله الواحد القهار» الذى قهر كل شىء . نظيره «آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ» . وقيل : أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدّد الإلٰه لتفرقوا فى الإرادة ولعلا بعضهم على بعض ، و بين أنها إذا تفرّقت لم تكن آلهة .

قوله تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً ﴾ بيّن عجز الأصنام وضعفها فقال : «ما تعبدون من دونه» أى من دون الله إلا ذوات أسماء لا معانى لها . ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ من تلقاء أنفسكم . وقيل : عنى بالأسماء المسميات ؛ أى ما تعبدون إلا أصناما ليس لها من الإلهية شىء إلا الاسم ؛ لأنها جمادات . وقال : «ما تعبدون» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين ؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالها من الشّرك . ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ حذف المفعول الثانى للدلالة ؛ والمعنى : سميتموها آلهةً من عند أنفسكم . ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ ﴾ ذلك فى كتاب . قال سعيد بن جبير : ﴿ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ ﴾ الذى هو خالق الكل . ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ . ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ . أى القويم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (٤١)

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أى قال للساقى : إنك تُرَدّ على عملك الذى كنت عليه من سقى الملك بعد ثلاثة أيام ، وقال للآخر : وأمّا أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيتُ شيئا ؛ قال : رأيت أو لم تَرَ ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ . وحكى أهل اللغة أن سَقى وأسقى لغتان بمعنى واحد، كما قال الشاعر[1] :

سَقَى قومى بَنِي مَجْدٍ وأَسْقَى * نُمَيراً والقبائلَ من هلال

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاه ناوله فشرب ، أو صَبَّ الماء فى حلقه ، ومعنى أسْقاه جعل له سُقْيا ؛ قال الله تعالى : « وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا » .

الثانية — قال علماؤنا : إن قيل من كذب فى رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قلنا : لا يلزمه ؛ وإنما كان ذلك فى يوسف لأنه نبىّ ، وتعبير النبىّ حكم ، وقد قال : إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوّته ؛ فإن قيل : فقد رَوى عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قَتَادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إنى رأيتُ كأنى أعْشبتُ ثم أجْدبتُ ثم أعْشبتُ ثم أجْدبتُ ، فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن ثم تكفر ، ثم تموت كافرا ؛ فقال الرجل : ما رأيت شيئا ؛ فقال له عمر : قد قُضِى لك ما قُضِى لصاحب يوسف ؛ قلنا : ليست لأحد بعد عمر ؛ لأن عمر كان مُحدَّثا[2] ، وإذا تكلم به وقع ،

(١) هو لبيد ؛ ومجد : ابنة تيم بن غالب بن فهر ، وهى أم كلاب وكليب بنى ربيعة . وفاعل سقى هو المطر .
(٢) محدث : ملهم ، أو يلقى فى روعه الشىء ، أو يجرى الصواب على لسانه من غير قصد . (القسطلانى) .

على ما ورد فى أخباره ؛ وهى كثيرة؛ منها — أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهنا فكان كما ظن؛ خرجه البخارى . ومنها — أنه سأل رجلا عن آسمه فقال له أسماء فيها النار كلها، فقال له : أدرك أهلك فقد آحترقوا، فكان كما قال، خرجه الموطأ . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الحجر»(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

فيـه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيقن، فى قول أكثر المفسرين. وفسره قتادة على الظن الذى هو خلاف اليقين؛ قال : إنما ظنّ يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنًّا وربك يخلق مايشاء؛ والأوّل أصحّ وأشبه بحال الأنبياء، وأن ما قاله للفتيين فى تعبير الرؤيا كان عن وحى ، وإنما يكون ظنا فى حكم الناس ، وأما فى حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أى سيّدك، وذلك معروف فى اللغة أن يقال للسيّد ربّ؛ قال الأعشى :

رَبِّى كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَـةً * وإذا تُنُوشِد(٢) فى المَهَارِقِ أَنْشَدَا

أى آذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنى مظلوم محبوس بلا ذنب. وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هُريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "لا يَقلْ أحدُكم آسقِ ربَّك أطعم ربَّك وضِّئْ ربَّك ولا يَقل أحدُكم ربِّى وليقلْ سيّدى مولاى ولا يَقلْ أحدُكم عبدى أَمَتِى وليقلْ فَتاىَ فَتاتِى غلامى" . وفى القرآن : «ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ» « إلى

---

(١) فى تفسير قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للتوسمين » آية ٧٥ .

(٢) ويروى (يناشد بالمهارق) يقول : إذا نوشد بما فى الكتب أجاب ؛ أى إذا سئل أعطى . والمهرق : الصحيفة .

رَبِّكَ» «إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ» أى صاحبى ؛ يعنى العزيز . و يقال لكل من قام بإصلاح شىء وإتمامه قد رَبَّه يربُّه، فهو رَبٌّ له . قال العلماء قوله عليه السلام : "لا يَقُلْ أحدُكم" "ولْيقلْ" من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرّم ؛ ولأنه قد جاء عنه عليه السلام " أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا " أى مالكها وسيّدها ؛ وهذا موافق للقرآن فى إطلاق ذلك اللفظ ؛ فكان محل النهى فى هذا الباب ألّا تتّخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن . وقد قيل : إن قول الرجل عبدى وأمتى يجمع معنيين : أحدهما — أن العبودية بالحقيقة إنما هى لله تعالى ؛ ففى قول الواحد من الناس لمملوكه عبدى وأمتى تعظيم عليه ، و إضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه ؛ وذلك غير جائز . والثانى — أن المملوك يدخله من ذلك شىء فى آستصغاره بتلك التسمية ، فيحمله ذلك على سوء الطاعة . وقال آبن شعبان فى «الزاهى» "لا يقل السيّد عبدى وأمَتى ولا يقل المملوك ربّى ولا ربّتى " وهذا محمول على ما ذكرناه . وقيل : إنما قال صلى الله عليه وسلم " لا يقل العبد رَبّى وليقل سيّدى" لأن الربّ من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق؛ وآختلف فى السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا ؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح ؛ إذ لا التباس ولا إشكال ، و إذا قلنا إنه من أسمائه فليس فى الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الربّ ؛ فيحصل الفرق . وقال ابن العربى : يحتمل أن يكون ذلك جائزا فى شرع يوسف عليه السلام .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ الضمير فى « فأنساه » فيه قولان : أحدهما — أنه عائد إلى يوسف عليه السلام ، أى أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل ؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك — حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك — «آذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ» نسى فى ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به ، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق ؛ فعوقب باللّبث . قال عبد العزيز بن عُمَيْر الكِنْدِىّ : دخل جبريل على يوسف النبى عليه السلام فى السجن فعرفه يوسف ، فقال : يا أخا المنذرين ! مالى أراك بين الخاطئين ؟ ! فقال جبريل عليه السلام : يا طاهر الطاهرين ! يقرئك

السلام رب العالمين و يقول : أما استحييت إذ آستغثت بالآدميين ؟ ! وعزّتى ! لألبثنّك فى السجن بضع سنين ؛ فقال : يا جبريل ! أهو عنّى راضٍ ؟ قال : نعم ! قال : لا أبالى الساعة . ورُوى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى فى ذلك وطوّل سجنه ، وقال له : يا يوسف ! من خلّصك من القتل من أيدى إخوتك ؟ ! قال : الله تعالى، قال : فمن أخرجك من الجُبّ ؟ قال : الله تعالى، قال : فمن عَصَمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يا رب كلمة زلّت منى ! أسألك بإله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمنى ؛ فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين . ورَوى أبو سَلَمة عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قال «آذكرنى عند ربك» ما لبث فى السجن بضع سنين". وقال آبن عباس : عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لمّا قال للذى نجا منهما « آذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » ولو ذكر يوسف ربه لخلّصه . وروى إسمعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لولا كلمة يوسف — يعنى قوله « اذكرنى عند ربك » — ما لبث فى السجن ما لبث" قال : ثم يبكى الحسن ويقول : نحن ينزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس . وقيل : إن الهاء تعود على الناجى ، فهو الناسى ؛ أى أنسى الشيطانُ الساقىَ أن يذكر يوسف لربه ، أى لسيّده ؛ وفيه حذف ، أى أنساه الشيطانُ ذكره لربه؛ وقد رجّح بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحقّ العقاب باللبث فى السجن؛ إذ الناسى غير مؤاخذ . وأجاب أهل القول الأوّل بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب ؛ ردّ عليهم أهل القول الثانى بقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » فدلّ على أن الناسى الساقى لا يوسف؛ مع قوله تعالى : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطنة ؟ ! قيل : أما

النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا فى وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلّغونه، فإنهم معصومون فيه؛ و إذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقا، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صلى الله عليه وسلم: "نسى آدم فنسيت ذريته". وقال: "إنما أنا بشر أنسى كما تَنسون". وقد تقدم.

الرابعـــة – قوله تعـالى: ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البِضع قطعة من الدّهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن ابن زيد: يقال بَضْع و بِضْع بفتح الباء وكسرها، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، و إنما هو إلى التسعين. وقال الهَرَوِىّ: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناهما القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع مادون نصف العِقْد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشىء. وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر الصديق رضى الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: "اذهب فزائدْ فى الخَطَر[1]". وعلى هـذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبىّ. قال المـاوردىّ: وهو قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقُطْرُب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعىّ. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفـرّاء: والبضع لا يُذْكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسـعين، ولا يذكر بعد المـائة. وفى المـدة التى لبث فيهـا يوسف مسجونا ثلاثة أقاويل: أحدها – سبع سنين، قاله ابن جُرَيج وقَتادة ووهب بن مُنَبِّه، قال وهب: أقام أيوب فى البلاء سبع سنين، وأقام يوسف فى السجن سبع سنين. الثانى – اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث – أربع عشرة

(١) الخطر (بالتحريك): الرهن والحظ. والحديث فى شأن مراهنة أبى بكر رضى الله عنـه لقريش على غلبة الروم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس، لأنهم و إياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك، لأنهم وفارس ليسو بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه و بينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أخرى، فقال له النبي صلى الله عليـه وسلم: "اذهب فزائد فى الخطر ومادد فى الأجل" وكان ذلك قبل تحريم الرّهان. راجع صحيح الترمذى فى تفسير قوله تعالى: « آلم غلبت الروم ... » الآية.

سنة، قاله الضحاك . وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف فى السجن خمسا وبضعا . وآشتقاقه من بضعت الشيء أى قطعته، فهو قطعة من العدد ، فعاقب الله يوسف بأن حُبِس سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التى مضت، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله . قال وهب آبن مُنَبِّه : حبس يوسف فى السجن سبع سنين، ومكث أيوب فى البلاء سبع سنين، وعُذِّب بُخْتُنَصَّر بالمسخ سبع سنين . وقال عبدالله بن راشد البصرىّ عن سعيد بن أبى عَرُوبة : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتى عشرة سنة .

الخامسة — فى هذه الاية دليل على جواز التعلّق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلا، فإن الأمور بيد مُسبِّبها ، ولكنه جعلها سلسلة ، وركّب بعضها على بعض ، فتحريكها سُنّة، والتعويل على المنتهى يقين . والذى يدلّ على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى فى لقيا الخضر، وهذا بيّن فتأملوه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (٤٣)

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلمَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال : إن الله مخرجك من سجنك، ومُمكِّن لك فى الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهى كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث فى السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاء وشدّة ، وجعلها آخرا بشرى ورحمة؛ وذلك أن الملك الأكبر الريّان بن الوليد رأى فى نومه كأنما خرج من نهر يابس سبعُ بقراتٍ سِمان ، فى أثرهنّ سبع عِجاف — أى مهازيل — وقد أقبلت العِجاف على السِّمان فأخذن بآذانهن فأكلنهنّ، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خُضْرٍ قد أقبل

عليهن سبع يابسات فأكلنهنّ حتى أتين عليهنّ فلم يبق منهنّ شيء وهنّ يابسات، وكذلك البقر كنّ عجافا فلم يزد فيهنّ شيء من أكلهنّ السِّمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكَهَانة والنّجامة والعَرَافة والسّحر، وأشراف قومه، فقال: « يَاأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ » فقصّ عليهم، فقال القوم : « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » قال ابن جُرَيج قال لى عطاء : إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا . وقال جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعنى بها الكاذبة . وقال الهَرَوِىّ : قوله تعالى « أضغاث أحلام » أى أخلاط أحلام . والضِّغث فى اللغة الحُزْمة من الشىء كالبقل والكلا وما أشبههما، أى قالوا : ليست رؤياك ببيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة . وقال مجاهد : أضغاث الرؤيا أهاويلها . وقال أبو عبيدة : الأضغاث مالا تأويل له من الرؤيا .

قوله تعالى : ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ حذفت الهاء من «سبع» فرقا بين المذكر والمؤنث . « سمان » من نعت البقرات ، ويجوز فى غير القرآن سبعَ بقراتٍ سِماناً، نعت للسبع، وكذا خُضرًا، قال الفَرّاء : ومثله «سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا» . وقد مضى فى سورة « البقرة »[1] اشتقاقها ومعناها . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : المَعز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سمانا فهى سِنِىّ رخاء ، وإن كانت عجافا كانت شدادا ، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبّان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فِتَناً مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما فى الخبر "يشبه بعضها بعضا" . وفى خبر آخر فى الفتن "كأنها صياصى[2] البقر" يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفْرا كلّها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدوّ يضرب عليهم، وينزل بساحتهم . وقد تدل البقرة على الزوجة والخادم والغلّة والسّنة؛ لما يكون فيها من الولد والغلّة والنبات . ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ من عَجُف يَعجُف، على وزن عَظُم يعظُم، وروى عَجِف يعجَف على وزن حَمِد يحمَد .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) صياصى البقر : قرونها .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ جمع الرؤيا رُؤًى ، أى أخبرونى بحكم هذه الرؤيا . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، بمعنى عَبَرت النهر، بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يعبر بما يؤول إليه أمرها . واللام فى « للرؤيا » للتبيين ، أى إن كنتم تَعبُرون، ثم بيّن فقال : للرؤيا، قاله الزجاج .

قوله تعالى : قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

فيـه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ ﴾ قال الفراء: ويجوز «أضغاثَ أحلام» قال النحاس: النصب بعيد، لأن المعنى : لم ترشيئا له تأويل، إنما هى أضغاث أحلام ، أى أخلاط . وواحد الأضغاث ضِغث ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغث؛ قال الشاعر:

* كضِغث حُلْم غُرَّ منه حالِمُهُ *

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نَفَوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له، لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل . وقيل : نفوا عن أنفسهم علم التعبير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهذا قال الساقى : « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل ، لا أنهم ادّعوا ألّا تأويل لها . وقيل : إنهم لم يقصدوا تفسيرا ، وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ،وعلى هذا أيضا فعندهم علم . و «الأحلام» جمع حُلُم، والحُلْم بالضم ما يراه النائم، تقول منه حَلَم بالفتح واحتلم، وتقول : حَلَمتُ بكذا وحَلَمته، قال :

فَحَلَمتُها وبَنُو رُفَيدةَ[1] دُونَهَا * لا يَبْعَدَنَّ خَيالُها المَحْلُومُ

وأصله الأناة، ومنه الحِلْم ضد الطَّيش؛ فقيل لما يُرى فى النوم حُلْم لأن النوم حالة أناة وسكون ودَعَة.

---

(١) رفيدة : أبوحى من العرب، يقال لهم الرفيدات ؛ كما يقال لآل هبيرة الهبيرات . اللسان .

الثانيـــة — فى الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أوّل ما تعـبّر ، لأن القوم قالوا : « أضغاث أحلام » ولم تقع كذلك ؛ فإن يوسف فسّرها على سِنيّ الجدب والخِصب، فكان كما عبر؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر، فإذا عبّرت وقعت .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا ﴾ يعنى ساقى الملك . « وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى بعد حين، عن ٱبن عباس وغيره؛ ومنه « إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وأصله الجملة من الحين . وقال ٱبن دُرُسْتَوَيه[1] : والأمّة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف، و إقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال — والله أعلم — : وادّكر بعد حين أمّةٍ ، أو بعـد زمن أمّة ، وما أشبه ذلك ؛ والأمّة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد، وفى المعنى جمع ؛ وكل جنس من الحيوان أمّة ؛ وفى الحديث : "لولا أن الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها" .

قوله تعالى : ﴿ وَٱدَّكَرَ ﴾ أى تذكر حاجة يوسف، وهو قوله : «ٱذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ» . وقرأ ٱبن عباس — فيما روى عفّان عن همّام عن قَتَادة عن عِكرمة عنه — «وادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ» . النحاس : والمعروف من قراءة ٱبن عباس وعِكرمة والضحاك «وَادَّكَرَ بعد أَمَهٍ» ، بفتح الهمزة وتخفيف الميم ؛ أى بعد نسيان ؛ قال الشاعر :

أَمِهْتُ وكنتُ لَا أَنسى حديثًا ✽ كذاكَ الدهرُ يُودِى بالعقولِ

وعن شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعى « بعـد أَمْهٍ » بفتح الألف و إسكان الميم وهاء خالصة ؛ وهو مثل الأَمَه ، وهما لغتان ، ومعناهما النّسيان ؛ و يقال : أَمِهَ يأمَهُ أَمَهًا إذا نَسِيَ ؛ فعلى هـذا

(١) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه (بضم الدال والراء) وضبطه ابن ماكولا (بفتحهما) .

« وَٱدَّكَرَ بعد أُمَه »؛ ذكره النحاس ؛ ورجل أَمْه ذاهب العقل . قال الجوهرى : وأما ما فى حديث الزهرى "أَمِه" بمعنى أقرّ واعترف فهى لغة غير مشهورة . وقرأ الأَشْهب العُقَيلى — « بَعْدَ إِمَّةٍ » أى بعد نعمة ؛ أى بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة . ثم قيل : نسى الفتى يوسف لقضاء الله تعالى فى بقائه فى السجن مدة . وقيل : ما نسى ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذى بسببه حبس هو والخبّاز ؛ فقوله : « وادّكر » أى ذكر وأخبر . قال النحاس : أصل ادّكر اذْتكر ؛ والذال قريبة المخرج من التاء ؛ ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ، والتاء مهموسة ، فلو أدغموا ذهب الجر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال ؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار اذْدَكَرَ ، فأدغموا الذال فى الدال لرخاوة الدال ولينها ؛ ثم قال : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أى أنا أخبركم . وقرأ الحسن « أَنَا آتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » وقال : كيف ينبئهم العِلْج[1] ؟ ! قال النحاس : ومعنى « أنبئكم » صحيح حسن ؛ أى أنا أخبركم إذا سألت . ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . ﴿ يُوسُفُ ﴾ نداء مفرد ، وكذا ﴿ الصِّدِّيقُ ﴾ أى الكثير الصدق . ﴿ أَفْتِنَا ﴾ أى فأرسلوه . فجاء إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله عن رؤيا الملك . « لَعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ » أى إلى الملك وأصحابه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ التعبير ، أو « لعلهم يعلمون » مكانك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعالى : قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسّرها له ، فقال : السبع من البقرات السّمان والسّنبلات الخضر سبع سنين مخصبات ؛ وأما البقرات العِجاف

(١) العلج : الكافر من العجم .

والسّنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات ؛ فذلك قوله : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أى متوالية متتابعة ؛ وهو مصدر على غير المصدر ، لأن معنى « تزرعون » تدأبون كعادتكم فى الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال ؛ أى دائبين . وقيل : صفة لسبع سنين ؛ أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب «دَأَبا» بتحريك الهمزة ؛ وكذا روى حفص عن عاصم ، وهما لغتان[1] ، وفيه قولان قول أبى حاتم : إنه من دَئِب. قال النحاس : ولا يعرف أهل اللغة إلا دَأَب. والقول الآخر — إنه حُرِّك لأن فيه حرفا من حروف الحلق ؛ قاله الفراء ، قال : وكذلك كل حرف فُتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة ، أو هاء ، أو عينا ، أو غينا ، أو حاء ، أو خاء ؛ وأصله العادة ؛ قال[2] :

* كَدأْبِكَ مِنْ أمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا *

وقد مضى فى « آل عمران »[3] القول فيه . ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ قيل: لئلا يسوس ، وليكون أبقى ؛ وهكذا الأمر فى ديار مصر . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أى آستخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة ؛ وهذا القول منه أمر ، والأول خبر . ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا ، وإن كان الأظهر منه الخبر؛ فيكون المعنى : « تزرعون » أى آزرعوا .

الثانيــة — هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ؛ فكل ما تضمن تحصيل شىء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يُفوّت شيئا منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا آستحقاق ؛ هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين ؛ وبسطه فى أصول الفقه .

---

(١) اللغتان « دأبا » بتحريك الهمزة و « دأبا » بسكونها وهى قراءة الجمهور من السبعة كما فى تفسير ابن عطية .

(٢) هو آمرؤ القيس ؛ وتمام البيت : * وجارتها أم الرباب بمأسل *

(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾

فيـه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ يعنى السّنين المجدبات . ﴿ يَأْكُلْنَ ﴾ مجاز ، والمعنى يأكل أهلهنّ . ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أى ما ادّخرتم لأجلهن ؛ ونحوه قول القائل :

نهارُكَ يا مغرورُ سَهوٌ وغَفْلَةٌ * ولَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لازمُ

والنهار لا يَسهو ، والليل لا ينام ؛ وإنما يُسهى فى النهار ، ويُنام فى الليل . وحكى زيد ابن أسلم عن أبيه : أن يوسف كان يضع طعام الآثنين فيقرّبه إلى رجل واحد فيأكل بعضه ، حتى إذا كان يومٌ قَرَّبه له فأكله كلّه ؛ فقال يوسف : هذا أوّل يوم من السّبع الشّداد . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ نصب على الآستثناء . ﴿ مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أى مما تحبسون لتزرعوا ؛ لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات . وقال أبو عبيدة : تحرزون . وقال قَتَادة : « تحصنون » تدّخرون ، والمعنى واحد ؛ وهو يدلّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة .

الثانيـة — هـذه الآية أصل فى صحة رؤيا الكافر، وأنها تُخرج على حسب ما رأى، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن ؛ فكيف إذا كانت آية لنبيّ، ومعجزة لرسول، وتصديقا لمصطفى التبليغ، وحجة للواسطة بين الله — جل جلاله — وعباده .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ ﴾ هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن فى رؤيا الملك، ولكنه من علم الغيب الذى آتاه الله . قال قَتَادة : زاده الله عِلم سَنَة لم يسألوه

عنها إظهارا لفضله ، و إعلاما لمكانه من العلم ومعرفته . ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ من الإغاثة أو الغوث ؛ غَوَّثَ الرجل قال واغوثاه ، والاسم الغَوْثُ والغُوَاث والغَوَاث ؛ واستغاثني فلان فأغثته ، والاسم الغِياث ؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . والغيث المطر ؛ وقد غاث الغيثُ الأرضَ أى أصابها ؛ وغاث الله البلادَ يَغِيثها غَيْثا ، وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثا ، فهى أرض مَغِيثة ومَغْيوثة ؛ فمعنى « يغاث الناس » يُمطَرون . ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهن ؛ ذكره البخاريّ . وروى حجّاج عن ابن جُرَيج قال : يعصرون العنب خمرا والسِّمسم دُهنا ، والزيتون زيتا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ؛ و يدلّ ذلك على كثرة النبات . وقيل : « يعصرون » أى يَنجُون ؛ وهو من العُصْرة ، وهى المَنْجاة . قال أبو عبيدة : والعَصَر بالتحريك المَلْجأ والمَنْجاة ، وكذلك العُصْرة ؛ قال أبو زُبَيد[1] :

صَادِيًا يَستغيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ * ولقد كَانَ عُصْرَةَ المَنْجودِ

والمَنْجود الفَزِع . واعتصرتُ بفلان وتَعصرتُ أى التجأت إليه . قال أبو الغوث : « يَعْصِرُون » يَسْتغِلّون ؛ وهو من عصر العنب . واعتصرت ماله أى استخرجته من يده . وقرأ عيسى « تُعْصَرُونَ » بضم التاء وفتح الصاد ، ومعناه : تُمطَرون ؛ من قوله : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا » وكذلك معنى « تُعْصِرُونَ » بضم التاء وكسر الصاد ، فيمن قرأه كذلك .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

---

(١) قاله فى رثاء ابن أخته وكان مات عطشا فى طريق مكة .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ أى فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: آئتونى به. ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أى يأمره بالخروج قال: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ أى حال النسوة. ﴿ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصحّ براءته للملك مما قُذف به، وأنه حبس بلا جرم. روى الترّمذىّ عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم][1] يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم — قال — ولو لَبثتُ فى السجن ما لَبِث ثم جاءنى الرسول أجبت — ثم قرأ — «فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فآسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن» — قال — ورحمةُ اللهِ على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد [إذ قال «لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد»][2] فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذِرْوة من قومه". وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له «أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى»" وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يرحم الله أخى يوسف لقد كان صابرا حليما ولو لبثت فى السجن ما لبثه أجبت الداعىَ ولم ألتمس العُذْر". وروى نحو هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، فى كتاب التفسير من صحيح البخارى، وليس لآبن القاسم فى الديوان غيره. وفى رواية الطبرىّ "يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلىّ لخرجت سريعا أنْ كان لحليما ذا أناة". وقال صلى الله عليه وسلم: "لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب"[3]. قال آبن عطية: كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرا، وطلبا لبراءة الساحة؛ وذلك أنه — فيما روى — خشى أن يخرج وينال من الملك

---

(١) الزيادة من صحيح الترمذى. (٢) الزيادة عن صحيح الترمذى.

(٣) الحديث فى تفسير الطبرى يختلف فى اللفظ عما هنا.

مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذى راود امرأة مولاه ؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبيّن براءته ، ويحقّق منزلته من العفّة والخير ؛ وحينئذ يخرج للأحظاء والمنزلة ؛ فلهذا قال للرسول : ارجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة ، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصى عن ذنبى ، وينظر فى أمرى هل سجنت بحق أو بظلم ؛ ونكّب عن امرأة العزيز حُسن عشرة ، ورعاية لزمام الملك العزيز له .

فإن قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه فى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأى ، له جهة أيضا من الجودة ؛ يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذرى بعد ذلك ؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هى معرّضة لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ؛ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الأحزم من الأمور ؛ وذلك أن ترك الحزم فى مثل هذه النازلة ، التاركَ فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ، ربما نَتَج له البقاء فى سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التى ذهب النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ ذكَر النّساء جملة ليدخل فيهنّ امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح ؛ وذلك حُسن عشرة وأدب ؛ وفى الكلام محذوف ، أى فاسأله أن يتعرّف مابال النسوة . قال ابن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز — وكان قد مات العزيز — فدعاهنّ فـ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أى ماشأنكنّ . ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلّمت يوسف فى حقّ نفسها ، على ما تقدّم ، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت امرأة العزيز ، فكان ذلك مراودة منهنّ . ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أى معاذ الله . ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى زنًى . ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ لما رأت إقرارهنّ ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقرّت

هى أيضا، وكان ذلك لطفا من الله بيوسف . و « حَصْحَصَ الحَقُّ » أى تبيّن وظهر؛ وأصله حَصَصَ، فقيل : حصحص، كما قال : كبكبوا فى كببوا ، وكفكف فى كفف؛ قاله الزجاج وغيره . وأصل الحَصّ آستئصال الشىء ؛ يقال : حَصَّ شعره إذا آستأصله جزًّا؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت :

قد حَصَّت البيضةُ رأسى فَمَا * أَطْعَمُ نومًا غيرَ تَهْجاعِ [(1)]

وسَنَةٌ حصّاء أى جرداء لا خير فيها ، قال جَرِير :

يأوِى إليكم بلَا مَنٍّ ولا جَحَدٍ * من ساقه السَّنَةُ الحَصَّاءُ والذِّيبُ

كأنه أراد أن يقول : والضّبع ، وهى السنة المجدبة ؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية ؛ ‌ممعنى « حصحص الحق » أى آنقطع عن الباطل بظهوره وثباته ؛ قال :

أَلَا مَن مُبلِغٌ عنّى خِدَاشًا فإنّهُ * كذوبٌ إذا ما حَصْحَصَ الحقُّ ظالمُ

وقيل : هو مشتق من الحِصّة ؛ فالمعنى : بانت حِصّة الحق من حِصّة الباطل . وقال مجاهد وقَتادة : وأصله مأخوذ من قولهم : حَصّ شَعْره إذا استأصل قطعه ، ومنه الحِصّة من الأرض إذا قطعت منها . والحِصْحِص بالكسر التراب والحجارة ؛ ذكره الجوهرى . ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا القول منها — و إن لم يكن سأل عنه — إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته ؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه ؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار ، حتى لا يخامر نفسا ظن ، ولا يخالطها شك . وشدّدت النون فى « خَطْبُكُنَّ » و « رَاوَدْتُنَّ » لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) ﴾

---

(١) البيضة : الخوذة ؛ والتهجاع : النومة الخفيفة .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ آختلف فيمن قاله ، فقيل : هو من قول آمرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى أقررتُ بالصدق ليعلم أنى لم أخُنْهُ بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحدت عن الخيانة ؛ ثم قالت : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » بل أنا راودته ؛ وعلى هذا هى كانت مقرّة بالصانع ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ؛ أى قال يوسف ذلك الأمر الذى فعلته ، من رد الرسول « لِيَعْلَمَ » العزيز « أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قاله الحسن وقَتادة وغيرهما . ومعنى « بالغيب » وهو غائب . وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « ليعلم » على الغائب توقيرا للملك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو فى السجن بعد ؛ قال آبن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ؛ فقال يوسف : «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» أى لم أَخُن سيّدى بالغيب ؛ فقال جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولا حين حَلَلْت الإزار ، وجلست مجلس الرجل من المرأة؟ ! فقال يوسف : «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» الآية . وقال السُّدى : إنما قالت له آمرأة العزيز ولا حين حَلَلْت سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » . وقيل : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » من قول العزيز ؛ أى ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب ، وأنى لم أغفل عن مجازاته على أمانته . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ معناه : أن الله لا يهدى الخائنين بكيدهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ قيل : هو من قول المرأة . وقال القُشَيرى : فالظاهر أن قوله « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » وقوله : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » من قول يوسف .

قلت : إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرّئ يوسف من حَلّ الإزار والسّراويل ؛ وإذا قدّرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدّمناه من القول المختار فى قوله : «وَهَمَّ بِهَا» . قال أبو بكر الأنبارى : من الناس من يقول : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام آمرأة العزيز ؛

لأنه متصل بقوله : « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » وهذا مذهب الذين ينفون الهمّ عن يوسف عليه السلام؛ فمن بنى على قولهم قال : من قوله « قَالَتِ ٱمْرَأَةُ الْعَزِيزِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل بعضه ببعض ، ولا يكون فيـه وقف تام على حقيقة ؛ ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه . وقال الحسن : لمـا قال يوسف « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » كره نبيّ الله أن يكون قد زكّى نفسه فقال : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » وتزكية النفس مذمومة؛ قال الله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ »[1] وقد بيناه فى « النساء » . وقيل : هو من قول العزيز؛ أى وما أبرئ نفسى من سوء الظن بيوسف. ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أى مشتهية له . ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ فى موضـع نصب بالاستثناء ؛ و « ما » بمعنى مَنْ ؛ أى إلا مَن رحم ربى فعصمه؛ و «ما» بمعنى مَن كثير؛ قال الله تعالى : «فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » وهو استثناء منقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء ؛ وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما تقولون فى صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرّ غاية و إن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية " قالوا : يا رسـول الله ! هـذا شرّ صاحب فى الأرض . قال : " فو الذى نفسى بيده إنها لنفوسكم التى بين جنوبكم " .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ لمـا ثبت للملك براءته مما نُسب إليه ؛ وتحقّق فى القصة أمانته ، وفهم أيضا صبره وجَلَده عظمت منزلته عنده، وتيقّن حسن جلاله قال : «ائتونى به أستخلصه لنفسى» فانظر إلى قول الملك أولا — حين تحقق علمه — « ائتونى به » فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال : « ائتونى به أستخلصه لنفسى » روى عن وهب بن مُنَبِّه قال : لمـا دُعى يوسف وقف بالباب فقال : حسبى ربّى من خلقه ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عزّ جارُه، وجلّ ثناؤه ولا إلهَ غيره؛ ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخرّ له ساجدا، ثم أقعده الملك معه على سريره فقال . ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ . ﴿ قال ﴾ له يوسف : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ ﴾ للخزائن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه تصرفاتها . وقيل : حافظ للحساب ،عليم بالألسن . وفى الخبر: "يرحم الله أخى يوسف لو لم يقل ٱجعلنى على خزائن الأرض لٱستعمله من ساعته ولكن أَخَّر ذلك سنة " . وقيل : إنما تأخّر تمليكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله . وقد قيل فى هذه القصة : إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال : اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره؛ ثم سلّم على الملك بالعبرانية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : هـذا لسان عمّى إسمعيل ، ثم دعا بالعبرانية فقال : ما هـذا اللسان ؟ قال : لسان آبائى إبراهيم و إسحق و يعقوب ؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا ، فكلما كلّم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان ، فأعجب الملك أمره ، وكان يوسف إذ ذاك ٱبن ثلاثين سـنة ؛ ثم أجلسه على سريره وقال : أحب أن أسمع منك رؤياى ، قال يوسف : نعم أيها الملك ! رأيتَ سبع بقرات سِمانٍ شُهْبا غُرّا حسانا ، كشف لك عنهن النِّيل فطلعن عليك من شاطئه تَشْخُب(1) أخلافها لبنا ؛ فبينا أنت تنظر إليهنّ وتتعجب من حسنهنّ إذ نَضَب النِّيل فغار ماؤه ، وبدا أُسُّـه ، فخرج من حَمَئه وَوَحَله سـبع بقرات عِجاف شُعْث غُبْر مُقَلَّصات البطـون ، ليس لهن ضروع ولا أخلاف ، لهن أنيـاب وأضراس ، وأكفّ كأكفّ الكلاب وخراطيم كخراطيم السّباع ، فاختلطن بالسِّمان فافترسنهنّ افتراس السّبـاع ، فأكلن لحومهنّ ، ومزّقن جلودهنّ ، وحطّمن عظامهنّ ، ومشمشن مخّهنّ ؛ فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل ! ثم لم يظهر منهنّ سِمَن ولا زيادة بعـد أكلهنّ ! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات ، ممتلئات حَبّا وماء ، و إلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة فى منبت واحد ، عروقهنّ فى الثّرى والمـاء ، فبينا أنت تقول فى نفسك : أى شىء هذا ؟ ! هؤلاء خضر مثمرات ، وهؤلاء سود يابسات ، والمنبت واحد ، وأصولهن

---

(1) تشخب : تسيل .

فى المـاء، إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النـار فأحرقتهنّ ؛ فصرن سودا مغبرات ؛ فانتبهتَ مذعورا أيها الملك ؛ فقال الملك : والله ما شأن هـذه الرؤيا و إن كان عجبا بأعجب ممـا سمعتُ منك ! فمـا ترى فى رؤياى أيها الصدّيق ؟ فقال يوسف : أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مَدَر لنبت، وأظهر الله فيه النّمـاء والبركة، ثم ترفع الزرع فى قصبه وسنبله تبنى له المخازن العظام ؛ فيكون القصب والسّنبل عَلَفا للدواب، وحَبُّه للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أهرائك الخُمْس ؛ فيكفيك من الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومَن حولها، ويأتيك الخلق من النواحى يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع لأحد قبلك ؛ فقـال الملك : ومن لى بتدبير هـذه الأمور ؟ ولو جمعت أهـل مصر جميعا ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء ؛ فقال يوسف عليه السلام : « ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى على خزائن أرضك؛ وهى جمع خِزَانة؛ ودخلت الألف واللام عوضا من الإضافة، كقول النابغـــة :

لَهُمْ شِيمَـةٌ لم يُعْطِهَـا الله غَـيْرَهُمْ * مِنَ ٱلجُودِ وَالْأَحْلَامُ غَيْرُ كَوَاذِبِ

قوله تعـالى : ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ وهذا يدل على أن قوله : « ذَٰلِكَ لِيَعْـلَمَ » جرى فى السّجن . ويحتمل أنه جرى عنـد الملك، ثم قال فى مجلس آخر : « ٱئْتُونِى بِهِ » تأكيدا . « أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى » أى أجعله خالصا لنفسى، أفوض إليـه أمر مملكتى ؛ فذهبـوا فجاءوا به؛ ودلّ على هـذا ﴿ فَلَمَّـا كَلَّمَهُ ﴾ أى كلّم الملك يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف؛ فـ ﴿ قَالَ ﴾ الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَـا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أى متمكن نافذ القول، « أمين » لا تخاف غدرا .

قوله تعـالى : قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض؛ أما سمعت إلى قوله : « ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ » أى على حفظهـا، فحذف المضاف . ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ لمـا وُلّيت ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأمره. وفى التفسير : إنى حاسب كاتب؛ وأنه أول من كتب فى القراطيس . وقيل : « حفيظ » لتقـدير الأقوات « عليم » بسنى المجاعات . قال جُويبر عن الضّحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أخى يوسف لو لم يقل ٱجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك عنـه سنة " . قال ابن عباس : لمـا انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوّجه وردّاه[1] بسيفه، ووضع له سريرا من ذهب، مكللا بالدرّ والياقوت، وضرب عليـه حُلّة من إِسْتَبرق؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع، عليـه ثلاثون فراشا وستون مِرْفَقـة[2]، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجا، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوّض اليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلّم سلطانه كله إليـه، وهلك قطفير تلك الليـالى، فزوّج الملك يوسف راعيل ٱمرأة العزيز، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟! فقالت : أيها الصديق لا تلمنى؛ فإنى كنت ٱمرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبى لا يأتى النساء ، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن فغلبتنى نفسى ، فوجدها يوسف عذراء فأصابهـا فولدت له رجلين : إفرائيم ابن يوسف ، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبّـه : إنمـا كان تزويجـه زليخا ٱمرأة العزيز بين دخلتى الإخوة ، وذلك أن زليخا مات زوجها و يوسف فى السجن ، وذهب مالها وعمى بصرها بكاء على يوسف ، فصارت تتكفّف الناس؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها ،

---

(١) رداه بسيفه : قلده به .	(٢) المرفقة (بالكسر) : المتكأ والمخدة .

وكان يوسف يركب فى كل أسبوع مرة فى موكب زُهَاء مائة ألف من عظماء قومه ، فقيل لها : لو تعرّضت له لعله يسعفك بشئ؛ ثم قيل لها : لا تفعلى، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك ، فقالت : أنا أعلم بخُلُق حبيبى منكم ، ثم تركته حتى إذا ركب فى موكبه ، فنادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم ، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم، فقال يوسف : ما هذه ؟ فأتوا بها ؛ فقالت : أنا التى كنت أخدمك على صدور قدمىّ ، وأُرَجِّل جُمَّتك بيدىّ، وتربيت فى بيتى ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط ما فرط من جهلى وعُتوّى فذقت وبال أمرى ، فذهب مالى، وتضعضع ركنى، وطال ذلّى، وعَمِى بصرى ، وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفّف الناس ، فمنهم من يرحمنى، ومنهم من لا يرحمنى ، وهذا جزاء المفسدين ؛ فبكى يوسف بكاء شديدا ، ثم قال لها : هل بقيت تجدين مما كان فى نفسك من حبك لى شيئا ؟ فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إلىّ من الدنيا بحذافيرها ، لكن ناولنى صدر سوطك، فناولها فوضعته على صدرها ، فوجد للسوط فى يده اضطرابا وارتعاشا من خَفَقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولا : إن كنتِ أَيِّماً تزوّجناك، وإن كنتِ ذات بعل أغنيناك ، فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بى الملك ! لم يُرِدْنى أيام شبابى وغناى ومالى وعزّى أفيريدنى اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟ ! فأعلمه الرسول بمقالتها، فلما ركب فى الأسبوع الثانى تعرّضت له ، فقال لها : ألم يبلّغك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهُيِّئت، ثم زُفّت إليه، فقام يوسف يصلّى ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكراما ليوسف عليه السلام لمّا عَفّ عن محارم الله ، فأصابها فإذا هى عذراء ، فسألها ؛ فقالت : يا نبىّ الله إن زوجى كان عِنّينا لا يأتى النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف؛ قال: فعاشا فى خَفْض عيش، كل يوم يجدّد الله لها خيرا ، وولدت له ولدين؛ إفرائيم ومنشا . وفيما روى

أن الله ألقى فى قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان فى قلبها، فقال لها : ما شأنك لاتحبيننى كما كنت فى أوّل مرة ؟ فقالت : لما ذقت محبة الله تعالى شغلنى ذلك عن كل شىء .

الثانية — قال بعض أهل العلم : فى هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه فى فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته و فجوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز؛ والأول أولى إذا كان على الشرط الذى ذكرناه . والله أعلم . قال الماوردى : فإن كان المولى ظالما فقد اختلف الناس فى جواز الولاية من قبله على قولين : أحدهما — جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلِّى من قبل فرعون، ولأن الاعتبار فى حقه بفعله لا بفعل غيره . الثانى — أنه لا يجوز ذلك ؛ لما فيه من تولّى الظالمين بالمعونة لهم ، وتزكيتهم بتقلّد أعمالهم ؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين : أحدهما — أن فرعون يوسف كان صالحا، و إنما الطاغى فرعون موسى. الثانى — أنه نظر فى أملاكه دون أعماله ، فزالت عنه التبعة فيه. قال الماوردى: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام : أحدها — ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد فى تنفيذه كالصدقات والزكوات ، فيجوز توليه من جهة الظالم ، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرّد أربابه به قد أغنى عن التقليد . والقسم الثانى — ما لا يجوز أن يتفردوا به و يلزم الاجتهاد فى مَصْرِفه كأموال الفىء ، فلا يجوز تولّيه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لايستحق . والقسم الثالث — ما يجوز أن يتولاه لأهله ، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام ، فعقد التقليد محلول ، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين ، وتوسطا بين مجبورين جاز ، وإن كان إلزام إجبار لم يجز .

الثالثة — ودلّت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا؛ فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسئلة وُكِلت إليها و إن أُعطيتها عن غير مسئلة أُعنت عليها ". وعن أبى بُرْدة قال قال أبو موسى : أقبلتُ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعريّين، أحدهما عن يمينى والآخرعن يسارى، فكلاهما سأل العمل، والنبى صلى الله عليه وسلم يستاك، فقال: "ما تقول يا أبا موسى – أو يا عبد الله بن قيس –" قال قلت : والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأنى أنظر إلى سِوَاكه تحت شفته وقد قَلَصت(1) ، فقال : " لن – أو – لا نستعمل على عملنا من أراده" وذكر الحديث؛ خرجه مسلم أيضا وغيره؛ فالجواب : أوّلا – أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرضا متعينا عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ، وكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق فى القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولّاها و يسأل ذلك ، ويخبر بصفاته التى يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام؛ فأما لو كان هناك من يقوم بها و يصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب ؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن : "لا تسأل الإمارة" فإن فى سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : "وُكِل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها ، ولخوفه من التقصير فى حقوقها فَرَّ منها ، ثم إن آبتلى بها فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : "أُعِينَ عليها" . الثانى – أنه لم يقل : إنى حسيب كريم ، و إن كان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم" ولا قال: إنى جميل مليح، إنما قال : « إنى حفيظ عليم » فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال . الثالث – إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله

(1) قلصت : آنقبضت وآنزوت .

تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » . الرابع — أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ، والله أعلم . ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ؛ قال الماوردى : وليس هذا على الإطلاق فى عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصلة ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراءاة ، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظَّفَر بأهله .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ أى ومثل هذا الإنعام الذى أنعمنا عليه فى تقريبه إلى قلب الملك ، وإنجائه من السجن مكنا له فى الأرض ؛ أقدرناه على ما يريد . وقال الكِيَا الطَّبَرى قوله : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض » دليل على إجازة الحيلة فى التوصّل إلى المباح ، وما فيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ » وحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ فى عامل خَيْبر ، والذى أدّاه من التَّمْر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله (١) .

قلت : وهذا مردود على ما يأتى . يقال : مكّنّاه ومكّنّا له ، قال الله تعالى : « مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » . قال الطَّبَرِىّ : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الرّيان يوسف على عمل قطفير وعَزَله ؛ قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ابن عباس : ملّكه بعد سنة

---

(١) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر ، فجاءه بتمر جنيب ، وهو نوع جيد من أنواع التمر ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل تمر خيبر هكذا" فقال : لا والله يارسول الله ، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة ، فقال : "لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا" . (البخارى) .

ونصف . وروى مقاتل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن يوسف قال إنى حفيظ عليم إن شاء الله لملك فى وقته" . ثم مات إطفير فزوّجه الوليد بزوجة إطفير راعيل ، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء، وولدت له ولدين : إفرائيم ومنشا، ابنى يوسف، ومن زعم أنها زليخا قال : لم يتزوّجها يوسف، وأنها لما رأته فى موكبه بكت، ثم قالت : الحمد لله الذى جعل الملوك عبيدا بالمعصية، والحمد لله الذى جعل العبيد بالطاعة ملوكا ، فضمّها إليه، فكانت من عياله حتى ماتت عنده، ولم يتزوّجها؛ ذكره الماوردى؛ وهو خلاف ما تقدّم عن وهب، وذكره الثعلبى؛ فالله أعلم . ولما فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدل ، فأحبّه الرجال والنساء ، قال وهب والسُّدّى وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون المخصِبة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم أن يتوسعوا فى الزراعة، فلما أدركت الغَلّة أمر بها فجمعت، ثم بنى لها الأهراء، فجمعت فيها فى تلك السنة غَلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها، ثم جمع عليه غَلّة كل سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا؛ فإن الله سلّط عليكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهل الحكمة : للجوع والقحط علامتان : إحداهما — أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية — أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا ويعزّ إلى الغاية، فاجتمعت هاتان العلامتان فى عهد يوسف، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع ! ! ويأكلون ولا يشبعون، وانتبه الملك ينادى الجوع الجوع ! ! قال : فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك ، ثم أصبح فنادى يوسف فى أرض مصر كلها؛ معاشر الناس ! لا يزرع أحد زرعا فيضيع البذر ولا يطلع شىء . وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف؛ قال ابن عباس : لما كان ابتداء القحط بينا الملك فى جوف الليل أصابه الجوع فى نصف الليل، فهتف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقال يوسف : هذا أوان القحط ؛ فلما دخلت أوّل سنة من سنى القحط هلك فيها كل شىء أعدوه فى السنين

المخصِبة ، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف ؛ فباعهم أوّل سـنة بالنقود ، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ؛ وباعهم فى السنة الثانية بالحلىّ والجواهر ، حتى لم يبق فى أيدى الناس منهـا شىء ؛ وباعهم فى السنة الثالثة بالمواشى والدواب ، حتى آحتوى عليها أجمع ، وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيـد والإماء ، حتى آحتوى على الكل ؛ وباعهم فى السنة الخامسة بالعقار والضّياع ، حتى ملكها كلها ؛ وباعهـم فى السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقّهم جميعا ؛ وباعهم فى السـنة السابعة برقابهم ، حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد إلا صار عبدا له ؛ فقال الناس : والله مارأينا ملكا أجلّ ولا أعظم من هذا ؛ فقال يوسف لملك مصر: كيف رأيت صُنع رَبى فيما خَوّلنى ! والآن كل هذا لك ، فما ترى فيه؟ فقال : فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت ، وإنما نحن لك تبع ؛ وما أنا بالذى يستنكف عن عبادتك وطاعتك ، ولا أنا إلا من بعض مماليكك ، وخَوَل من خَوَلك ؛ فقال يوسف عليه السلام : إنى لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أجرهم من البلاء لأكون عليهـم بلاء ؛ وإنى أشهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم ، ورددت عليك ملكك بشرط أن تسـتنّ بسنتى . ويروى أن يوسف عليه السـلام كان لا يشبع من طعام فى تلك السنين ، فقيـل له : أتجـوع وبيدك خزائن الأرض ؟ فقال : إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ؛ وأمر يوسـف طباخ الملك أن يجعـل غداءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين ؛ فمن ثَمّ جعل الملوك غداءهم نصف النهار .

قوله تعـالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بإحساننا ؛ والرحمة النعمة والإحسان . ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى ثوابهم . وقال آبن عباس ووهب : يعنى الصابرين ؛ لصبره فى الجبّ ، وفى الرقّ ، وفى السجن ، وفى صـبره عن محارم الله عمـا دعتـه إليه المرأة . وقال المـاوردىّ : وآختلف فيما أوتيه يوسف من هـذه الحال على قولين : أحدهما — أنه ثواب من الله تعالى على ما آبتلاه . الثانى — أنه أنعم عليه بذلك تفضلا منه عليه ، وثوابه باق على حاله فى الآخرة .

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أى ما نعطيه فى الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه فى الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم فى كل مؤمن متّق؛ وأنشدوا:

أمَا فى رسول الله يوسف أُسْوةٌ * لمثلك محبوسًا على الظُّلم والإفْكِ
أقام جَميلَ الصّبر فى الحبس بُرهة * فآل به الصّـبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

وكتب بعضهم إلى صديق له:

وراء مَضيقِ الخوف مُتّسعُ الأَمْنِ * وأول مفـروحٍ به آخرُ الحـزنِ
فلا تيأسنْ فالله مَلَّكَ يوسـفًا * خزائنَه بعد الخلاصِ من السّجنِ

وأنشد بعضهم:

إذا الحادثاتُ بَلَغْنَ النُّهى * وكادتْ تذوبُ لهُنَّ المُهَجْ
وحَلَّ البلاءُ وقَلَّ العَزاءُ * فعنـد التّنَاهى يكونُ الفَـرَجْ

والشعر فى هذا المعنى كثير.

قوله تعالى: وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أى جاءوا إلى مصر لمّا أصابهم القَحْط ليمتاروا؛ وهـذا من آختصار القرآن المعجز. قال آبن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط والشدّة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للمِيرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام فى الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدّة بالناس يجلس عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رءوسهم، لكل رأس وَسْقا[(١)]. ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم خلّفوه صبيا، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة، مع طول المدّة؛ وهى أربعون سنة. وقيل: أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر: وقيل: رأوه لابس حرير، وفى عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، وقد تزيّا بزىّ فرعون مصر، ويوسف

(١) الوسق ستون صاعا؛ والأصل فى الوسق الحمل.

رآهم على ما كان عهدهم فى الملبس والحلية . ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه . وقيل: أنكروه لأمر خارق آمتحانا آمتحن الله به يعقوب .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ يقال : جَهَّزْتُ القوم تجهيزا أى تكلفت لهم بجهازهم للسفر ؛ وجَهَاز العَروس ما يُحتاج إليه عند الإهداء إلى الزّوج ؛ وجوّز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم ؛ والجهاز فى هذه الآية الطعام الذى آمتاروه من عنده . قال السُّدّى : وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيرا ، وهم عشرة ؛ فقالوا ليوسف : إن لنا أخا تخلّف عنا ، وبعيره معنا ؛ فسألهم لِمَ تخلّف ؟ فقالوا : لحبّ أبيه إياه ؛ وذكروا له أنه كان له أخ أكبر منه نخرج إلى البرّية فهلَكَ ؛ فقال لهم : أردت أن أرى أخاكم هذا الذى ذكرتم ، لأعلم وجه محبة أبيكم إيّاه ، وأعلم صدقكم ؛ ويروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة ، حتى يأتوا بأخيه بنيامين . وقال آبن عباس : قال للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا ، وزيّكم مخالف لزيّنا ، فلعلكم جواسيس ؛ فقالوا : والله ! ما نحن بجواسيس ، بل نحن بنُو أبٍ واحد ، فهو شيخ صدّيق ؛ قال : فكم عِدّتكم؟ قالوا : كنا آثنى عشر فذهب أخ لنا إلى البرّية فهلك فيها ؛ قال : فأين الآخر ؟ قالوا عند أبينا ؛ قال : فمن يعلم صدقكم ؟ قالوا : لا يعرفنا هاهنا أحد ، وقد عرّفناك أنسابنا ، فبأى شئ تسكن نفسك إلينا ؟ فقال يوسف : ﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ إن كنتم صادقين ؛ فأنا أرضى بذلك « أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ » أى أتمّه ولا أبخسه ، وأزيدكم حمل بعير لأخيكم . « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى » توعدهم ألّا يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أنه رخّص لهم فى السعر فصار زيادة فى الكيل . والثانى — أنه كال لهم بمكيال واف . ﴿ وَأَنَا خَيْرُ

ٱلْمُنْزِلِينَ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم؛ قاله مجاهد . الثانى — وهو محتمل ؛ أى خير من نزلتم عليه من المأمونين؛ وهو على التأويل الأول مأخوذ من النُّزُل وهو الطعام ، وعلى الثانى من المنزل وهو الدار .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى ﴾ أى فلا أبيعكم شيئا فيما بعـد ، لأنه قد وفّاهم كيلهم فى هـذه الحال . ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أى لا أنزلكم عندى منزلة القريب ، ولم يرد أنهم يبعدوا منه ولا يعودوا إليه؛ لأنه على العَوْد حثّهم . قال السدّى : وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا ؛ فارتهن شمعون عنده؛ قال الكَلْبىّ : إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم الجبّ أجملهم قولا، وأحسنهم رأيا . و« تقربون » فى موضع جزم بالنهى ، فلذلك حذفت منه الياء ؛ لأنه رأس آية ؛ ولو كان خبرا لكان « تقربون » بفتح النون .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أى سنطلبه منـه ، ونسأله أن يرسله معنـا . ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ أى لضامنون المجىء به ، ومحتالون فى ذلك .

مسـألة — إن قيل : كيف آستجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيـه ؟ قيـل له : عن هـذا أربعة أجوبة : أحدها — يجوز أن يكون الله عزّ وجلّ أمره بذلك آبتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فآتبع أمره فيه . الثانى — يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقـوب على حال يوسف عليهما السلام . الثالث — لتتضاعف المسرّة ليعقـوب برجوع ولديه عليه . الرابع — ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته؛ لميل كان منـه إليه؛ والأول أظهر، والله أعلم .

قوله تعـالى : وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم ؛ وهو آختيار أبى حاتم والنحاس وغيرهما . وقرأ سائر الكوفيين « لِفِتْيَانِهِ » وهو آختيار أبى عبيد ؛ قال :

وهو فى مصحف عبد الله كذلك. قال الثعلبي: وهما لغتان جيدتان، مثل الصبيان والصبية. قال النحاس: «لفتيانه» مخالف للسواد الأعظم ؛ لأنه فى السواد لا ألف فيه ولا نون، ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع ؛ وأيضا فإن فتية أشبه من فتيان؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد، والقليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه. وكان هؤلاء الفتية يسوون جهازهم، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم فى رحالهم. ويجوز أن يكونوا أحرارا، وكانوا أعوانا له، وبضاعتهم أثمان ما اشتروه من الطعام. وقيل: كانت دراهم ودنانير. وقال ابن عباس: النعال والأدم ومتاع المسافر ويسمى رَحْلا ؛ قال ابن الأنبارى: يقال للوعاء رَحْل، وللبيت رَحْل. وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ لجواز ألا تسلم فى الطريق. وقيل: إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك ؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه. وقيل: ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام. وقيل: استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام. وقيل: ليروا فضله، ويرغبوا فى الرجوع إليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥)﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ لأنه قال لهم: «فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي» وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه، وأن شمعون مرتهن حتى يعلم صدق قولهم. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أى قالوا عند ذلك:

« فأرسل معنا أخانا نكتل » والأصل نكتال ؛ فحذفت الضمة من اللام للجزم ، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين . وقراءة أهل الحرمين وأبى عمرو وعاصم «نكتل» بالنون، وقرأ سائر الكوفيين « يكتل » بالياء ، والأول اختيار أبى عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال ؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده . قال النحاس : وهذا لا يلزم ؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين ؛ أن يكون المعنى : فأرسل أخانا يكتل معنا ؛ فيكون للجميع ، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير ؛ فيكون فى الكلام دليل على الجميع ، لقوله : « فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى » . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يناله سوء .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قد فرطتم فى يوسف فكيف آمنكم على أخيه ! . ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا ﴾ نصب على البيان ؛ وهذه قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين « حَافِظًا » على الحال . وقال الزجاج : على البيان ؛ وفى هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم ؛ ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه . قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب : «فالله خير حافظا» قال الله تعالى : وعزتى وجلالى لأردن عليك ابنيك كليهما بعد ما توكلت على .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ الآية ليس فيها معنى يشكل . ﴿ مَا نَبْغِي ﴾ « ما » استفهام فى موضع نصب ؛ والمعنى : أى شىء نطلب وراء هذا ؟ ! وفى لنا الكيل ، ورد علينا الثمن ؛ أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم . وقيل : هى نافية ؛ أى لا نبغى منك دراهم ولا بضاعة ، بل تكفينا بضاعتنا هذه التى ردت إلينا . وروى عن علقمة « رِدّت إلينا » بكسر الراء ؛ لأن الأصل رُدِدت ، فلما أدغمت قلبت حركة الدال على الراء . وقوله : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أى نجلب لهم الطعام ؛ قال الشاعر :

بعثتك مائرا فمكثت حولا * متى يأتى غياثك من تغيث

وقرأ السلمى بضم النون ، أى نعينهم على الميرة . ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أى حمل بعير لبنيامين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ تُؤْتُونِ ﴾ أى تعطونى. ﴿ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أى عهدا يوثق به . قال السدّى : حلفوا بالله ليردّنه إليه ولا يُسلمونه ؛ واللام فى ﴿ لَتَأْتُنَّنِى ﴾ لام القسم . ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال مجاهد: إلا أن تَهْلِكوا أوتموتوا . وقال قَتَادة: إلا أن تُغلبوا عليه. قال الزجاج : وهو فى موضع نصب . ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ للحلف . وقيل : حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل .

الثانيــة — هذه الآية أصل فى جواز ٱلحَمَالة[1] بالعين والوثيقة بالنفس ؛ وقد ٱختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هى جائزة إذا كان المحتمَل به مالا . وقد ضعّف الشافعى الحَمَالة بالوجه فى المال؛ وله قول كقول مالك . وقال عثمان البَتّى : إذا تكفّل بنفس فى قصاص أو جراح فإنه إن لم يجئ به لزمه الدية وأَرْش الجراح ، وكانت له فى مال الجانى ، إذ لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال فى الحمالة بالوجه . والصواب تفرقة مالك فى ذلك ، وأنها تكون فى المال ، ولا تكون فى حدّ أو تعزير ، على ما يأتى بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(١) الحمالة : الكفالة .

فيـه سبع مسائل :

الأولى — لما عزموا على الخروج خشى عليهم العين ؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب ؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لِرَجُل واحد، وكانوا أهل جَمال وكمال وبَسْطة ؛ قاله ابن عباس والضّحاك وقَتَادة وغيرهم .

الثانيـة — وإذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرّز من العين ، والعين حق ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العين لَتُدخِل الرجل القبر والجَمَل القِدْر". وفى تعوّذه عليه السلام: "أعوذ بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة" ما يدلّ على ذلك . روى مالك عن محمد بن أبى أُمامة بن سهل بن حُنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبو سهل بن حُنَيف بالخَرّار[(1)] فنزع جُبّة كانت عليـه ، وعامر بن ربيعة ينظر، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد، قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عَذْراء! ، فوُعِك سهل مكانه واشتدّ وَعْكه ، فأُتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُخبر أن سهلا وُعِك ، وأنه غير رائح معك يا رسول الله ؛ فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره سهل بالذى كان من شأن عامر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عَلَامَ يقتل أحدكم أخاه أَلَا بَرّكْت[(2)] إنّ العين حق توضأْ له " فتوضأ له عامر، فراح سهل مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ؛ فى رواية "اغتسلْ" فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيـه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره فى قدح ثم صبّ عليه ؛ فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبى وقاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشْحين؛ فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له ؛ ففى هذين الحديثين أن العين حق ، وأنها تقتل كما قال صلى الله عليه وسلم ؛ وهـذا قول علمـاء الأمّة ، ومذهب أهل السنة ؛ وقـد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمّة، وبما يشاهد من ذلك فى الوجود؛ فكم من رجل

(١) الخرّار: ماء بالمدينة . (٢) برّك : قال بارك الله فيه ؛ وهذا القول يبطل تأثير العين وسيأتى معناه .

أدخلته العين القبر ، وكم من جمل ظهير أدخلته القِدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال : « وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » . قال الأصمعى : رأيت رجلا عَيُونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شَخْبها فقال : أيتهنّ هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا جميعا ، المورَّى بها والمورَّى عنها . قال الأَصمعى . وسمعته يقول : إذا رأيتُ الشيء يعجبنى وجدتُ حرارة تخرج من عينى .

الثالثــة ـــ واجب على كل مسلم أعجبه شىء أن يُبَرِّك ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر : " أَلَا بَرَّكْت " فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرَّك العائن ، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك . والتّبريك أن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعــة ـــ العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبَرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال ، ويُجبر على ذلك إن أباه ؛ لأن الأمر على الوجوب ، لاسيما هذا ؛ فإنه قد يخاف على المَعين الهلاك ، ولا ينبغى لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو ، ولاسيما إذا كان بسببه وكان الجانى عليه .

الخامســة ـــ من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره ؛ وقد قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ؛ وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكفّ أذاه عن الناس . وقد قيل : إنه يُنفى ؛ وحديث مالك الذى ذكرناه يرد هذه الأقوال ؛ فإنه عليه السلام لم يأمر فى عامر بحبس ولا بنفى ، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا ، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسّق به ؛ ومن قال يحبس ويؤمر بلزوم بيته فذلك احتياط ودفع ضرر ، والله أعلم .

السادســة ـــ روى مالك عن حميد بن قيس المكّى أنه قال : دُخِل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنى جعفر بن أبى طالب فقال لحاضنتهما : " مالى أراهما ضَارِعين[1] " فقالت حاضنتهما : يا رسول الله ! إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقِى لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اسْتَرْقُوا لهما فإنه

(١) الضارع : النحيف الضاوى الجسم .

لو سبق شىء القدر سبقته العين " . وهذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عُميس الخَثْعَمية عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة متصلة صحاح؛ وفيه أن الرُّقَى مما يُستدَفع به البلاء ، وأن العين تؤثر فى الإنسان وتَضْرَعه، أى تضعفه وتنحله؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، والله أعلم .

السابعة — أمر صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى أُمامة العائن بالاغتسال للمَعين ، وأمر هنا بالاسترقاء؛ قال علماؤنا : إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن؛ وأما إذا عرف الذى أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبى أمامة، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى من شىء أحذره عليكم ؛ أى لا ينفع الحذر مع القدر . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ أى الأمر والقضاء . ﴿ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت ووثقت ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ﴾ أى من أبواب شتى . ﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم . ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء ليس من الأوّل . ﴿ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أى خاطر خطر بقلبه؛ وهو وصيته أن يتفرّقوا ؛ قال مجاهد : خشية العين ، وقد تقدّم القول فيه . وقيل : لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم

فيبطش بهم حسدا أو حذرا؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للعين هاهنا . ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه، و يرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعنى يعقوب . ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أى بأمر دينه . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه . وقيل : « لذو علم » أى عمل؛ فإن العلم أوّل أسباب العمل، فسمى ما هو بسببه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قال قتادة : ضمّه إليه، وأنزله معه . وقيـل : أمر أن ينزل كل اثنين فى منزل ، فبقى أخوه منفردا فضمّه إليـه وقال : أشفقت عليـه من الوحدة ، وقال له سِرًّا من إخـوته : ﴿ إِنِّى أَنَا أَخُـوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أى لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردّنى إليهم ، فقال : قد علمت اغتمام يعقوب بى فيزداد غمّه ، فأبى بنيامين الخروج ؛ فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعـد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك : فقال : لا أبالى ! فدسّ الصاع فى رحله ؛ إما بنفسه من حيث لم يَطّلع عليه أحد ، أو أَمَرَ بعض خواصّه بذلك . والتّجهيز التّسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جَهّز على الجريح أى قتله ، ونجز أمره . والسقاية والصواع شىء واحد؛ إناء له رأسان فى وسطه مَقْبِض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، و يكال الطعام بالرأس الآخر؛ قاله النقاش عن ابن عباس ، وكل شىء يشرب به فهو صواع؛ وأنشد :

* نَشربُ الخمــرَ بالصّواع جِهارًا[1] *

واختلف فى جنسه؛ فروى شعبة عن أبى بشر عن سـعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال : كان صـواع الملك شىء من فضة يشبه المَكُّوك ، من فضة مرصّع بالجوهر ، يجعـل على الرأس؛

(١) البيت تقدّم فى ص ١٧٨ من هذا الجزء .

وكان للعباس واحد فى الجاهلية ، وسأله مالك بن الأزرق ما الصواع؟ قال : الإناء ؛ قال فيه الأعشى :

له دَرْمَكٌ فى رأسه ومَشارِبٌ * وقِدْرٌ وطَبَّاخٌ وصاعٌ ودَيْسَقُ (١)

وقال عِكرمة : كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب ؛ وبه كال طعامهم مبالغة فى إكرامهم . وقيل : إنما كان يكال به لعزّة الطعام . والصاع يذكّر ويؤنّث ؛ فمن أنّثه قال : أَصْوُع ؛ مثل أَدْوُر ، ومن ذكّره قال أَصْوَاع ؛ مثل أثواب . وقال مجاهد وأبو صالح : الصاع الطِّرْجِهالة بلغة حِمْير . وفيه قراءات : « صُوَاع » قراءة العامة ؛ و « صُوْغ » بالغين المعجمة ، وهى قراءة يحيي بن يَعْمُر ؛ قال : وكان إناء أُصِيغ من ذهب . « وصُوع » بالعين غير المعجمة قراءة أبى رجاء . « وصُوْع » بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أبىّ . « وصُيَاع » بياء بين الصاد والألف ؛ قراءة سعيد بن جُبير . « وصاع » بألف بين الصاد والعين ؛ وهى قراءة أبى هُريرة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أى نادى منادٍ وأعلم . « وَأَذَّنَ » للتكثير ؛ فكأنه نادى مرارا « أيتها العير » . والعير ما آمتير عليه من الحمير والإبل والبغال . قال مجاهد : كان عِيرهم حميرا . قال أبو عبيدة : العير الإبل المرحولة المركوبة ؛ والمعنى : يا أصحاب العير ، كقوله : « وآسأل القرية » ويا خيل الله اركبى : أى أصحاب خيل الله ، وسيأتى . وهنا آعتراضان : الأوّل — إن قيل : كيف رضى بنيامين بالقعود طوعا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن ، ووافقه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم بَرَآء وهو — الثانى — فالجواب عن الأوّل : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثّر فيه فقد بنيامين كل التأثير ، أوَلا تراه لما فقده قال : « يا أسفا على يوسف » ولم يعرّج على بنيامين ؛ ولعلّ يوسف إنما وافقه على القعود بوَحْى ؛ فلا آعتراض . وأما نسبة

(١) الديسق : خوان من فضة . والبيت من قصيدة يمدح بها المحلق مطلعها .

أرقت وما هــذا السهاد المــؤرق * وما بى من سـقم وما بى معشــق

يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب : أن القوم كانوا قد سَرَقوه من أبيه فألقوه فى الجبّ ، ثم باعوه ؛ فاستحقّوا هذا الاسم بذلك الفعل ، فصدق إطلاق ذلك عليهم . جواب آخر — وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السُّرّاق ؛ والمعنى : إنّ شيئا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه . جواب آخر — وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه ، وفصله عنهم إليه ؛ وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدسّ الصاع فى رحله ، ولا أخبره بنفسه . وقد قيل : إن معنى الكلام الاستفهام ؛ أى أو إنكم لسارقون ، كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » أى أو تلك نعمة تمنها علىّ ؟ والغرض ألّا يعزى إلى يوسف الكذب .

قوله تعالى : قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ . البعير هنا الجمل فى قول أكثر المفسّرين . وقيل : إنه الحمار ، وهى لغة لبعض العرب ؛ قاله مجاهد واختاره . وقال مجاهد : الزعيم هو المؤذن الذى قال : « أيتها العير » . والزعيم والكفيل والحَميل والضّمين والقَبِيل سواء . والزعيم الرئيس .

قال[1] :

وإنّى زعيمٌ إنْ رجعتُ مُمَلَّكًا * بِسَيْرٍ تَرَى منهُ الفُرانِقَ أزْوَرَا

---

(١) هو امرؤ القيس . والفرانق : سبع يصيح بين يدى الأسد كأنه ينذر الناس به ؛ وهو فارسى معرب . والأزور : المائل فى شق ؛ أى إن ملكنى قيصر فانى أسير سيرا شديدا يميل منه الفرانق من شدّته بجانب .

وقالت ليلى الأخيلية ترثى أخاها (١) :

ومُخَـرَّقٍ عنهُ القميصُ تخَـالُهُ * يومَ اللِّقاءِ من الحياءِ سَقِيما
حَـتَّى إذا رَفَـعَ اللِّواءَ رأيتَـهُ * [تحتَ اللِّواءِ (٢)] على الخَمِيسِ زَعِيما

الثانيـة — إذ قيل : كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول ، وضمان المجهول لا يصح ؟ قيل له : حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوَسْق ؛ فصح ضمانه ، غير أنه بدل مالٍ للسارق ، ولا يحل للسارق ذلك ، فلعله كان يصحّ فى شرعهم ، أو كان هذا جعالة ، و بذل مال لمن يفتّش و يطلب .

الثالثـة — قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليلان : أحدهما — جواز الجُعْل وقد أجيز للضرورة ؛ فإنه يجوز فيـه من الجهالة ما لا يجوز فى غيره ؛ فإذا قال الرجل : من فعـل كذا فله كذا صحّ . وشأن الجُعْل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه ؛ بخلاف الإجارة ؛ فإنه يتقدّر فيها العوض والمعوض من الجهتين ؛ وهو من العقود الجائزة التى يجوز لأحدهما فسخه ؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع و بعده ، إذا رضى بإسقاط حقه ، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له فى العمل . ولا يشترط فى عقد الجُعْل حضور المتعاقدين ، كسائر العقود ؛ لقوله : « وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ » و بهـذا كله قال الشافعى .

الرابعـة — متى قال الإنسان : من جاء بعبدى الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به ؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة ؛ وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "من جاء بآبق فله أر بعون درهما" ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد ولهـذا قال أصحابنا : إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك ، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر .

قلت : وخالفنا فى هذا كله الشافعى .

---

(١) كذا فى الأصل ولعله ترثى تو بة . وفى صفته بخرق القميص أقوال : الأوّل — أن ذلك إشارة الى جذب العفاة له . الثانى — أنه يؤثر بجيد ثيابه فيكسوها و يكتفى بمعاوزها . الثالث — أنه غليظ المناكب ؛ و إذا كان كذلك أسرع الخرق الى قيصه . الرابع — أنه كثير الغزوات متصل الأسفار ؛ فقميصه منخرق لذلك .

(٢) كذا فى « أمالى القالى » « والشعر والشعراء » و « الحماسة » وفى الاصول : يوم الهياج .

الخامســـة — الدليل الثانى — جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام . قال علماؤنا : إذا قال الرجل تحمّلت أو تكفّلت أو ضمنت أو وأنا حَميل لك أو زعيم أو كَفيل أو ضامن أو قَبيـل ، أو هو لك عندى أو علىّ أو إلىّ أو قِبلى فذلك كله حَمَـالة لازمة . وقـد آختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه ؛ هل يلزمه ضمان المـال أم لا ؟ فقال الكوفيون : من تكفّل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذى على المطلوب إن مات ؛ وهو أحد قولى الشافعىّ فى المشهور عنـه . وقال مالك والليث والأوزاعىّ : إذا تكفّل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المـال ، و يرجع به على المطلوب ؛ فإن آشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا أضمن المـال فلا شىء عليه من المـال ؛ والحجـة لمن أوجب غرم المـال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدمٍ ، و إنمـا يطلب بمـال ؛ فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوّته عليه ، وعزه منه ؛ فلذلك لزمه المـال . وآحتج الطحاوىّ للكوفيين فقـال : أما ضمان المـال بموت المكفول فلا معنى له ؛ لأنه إنمـا تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمـال ، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادســـة — وآختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال ؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما ؟ فقال الثورىّ والكوفيون والأوزاعىّ والشافعىّ وأحمـد و إسحق : يأخذ من شاء حتى يستوفى حقه ؛ وهـذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب ؛ لأن التبدية بالذى عليه الحق أولى ، إلا أن يكون معـدما فإنه يؤخذ من الحميل ، لأنه معذور فى أخذه فى هـذه الحالة ؛ وهـذا قول حسن . والقياس أن للرجل مطالبة أىّ الرجلين شاء . وقال آبن أبى ليلى : إذا ضمن الرجل عن صـاحبه مالاً تحول على الكفيل و برئ صاحب الأصل ، إلا أن يشـترط المكفـول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء ؛ وآحتج ببراءة الميت من الدين بضمان أبى قَتادة[1] ؛ ونحوه قال أبو ثور .

---

(١) الحديث : روى سلمة بن الأكوع أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بجنازة فقال : "هل عليه من دين" قالوا : نعم ، قال : " هل ترك شيئا " قالوا : لا ، قال : " صـلوا على صاحبكم " قال أبو قتادة : صل عليه يارسول الله وعلىّ دينه ؛ فصلى عليه .

السابعـة — الزعامة لا تكون إلا فى الحقوق التى تجوز النيابة فيها ، مما يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان ثابتا مستقرا ؛ فلا تصح الحمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر ؛ لأن العبد إن عجز رَقَّ وآنفسخت الكتابة ؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه ، ويسجن المدعى عليه الحدّ ، حتى ينظر فى أمره . وشذ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة فى الحدود والقصاص ، وقالا : إذا قال المقذوف أو المدعى القصاص بينتى حاضرة كفله ثلاثة أيام ؛ وآحتج لهم الطحاوىّ بما رواه حمزة ابن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلما ، ولا يرعون زرع أحد ، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأكِمّة لئلا تعيث فى زروع الناس . ثم قال : ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يروى أنهم ردّوا البضاعة التى كانت فى رِحالهم ؛ أى فمن ردّ ما وَجَد فكيف يكون سارقا ؟! .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ المعنى : فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم؟ فأجاب إخوة يوسف : ﴿ جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أى يُسْتعبَد ويُسْترَقّ . «فجزاؤه» مبتدأ ، و «مَن وُجِد فى رحله» خبره ؛ والتقدير : جزاؤه آستعباد من وُجِد فى رحله ؛ فهو كناية عن الاستعباد ؛ وفى الجملة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أى كذلك نفعل فى الظالمين إذا سرقوا أن يُسترَقّوا ؛ وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هذا قول من لم يَسْترِب بنفسه ؛

لأنهم التزموا استرقاق من وجد فى رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفى ما أخذ؛ قاله الحسن والسدّى وغيرهما .

مســـئلة — قد تقدّم فى سورة « المائدة »(١) أن القطع فى السرقة ناسخ لما تقدّم من الشرائع، أو لما كان فى شرع يعقوب من ٱسترقاق السارق، والله أعلم .

قوله تعالى : فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ إنما بدأ يوسف برحالهم لنفى التهمة والرّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوِعاء يقال بضم الواو وكسرها، لغتان؛ وهو مايحفظ فيه المتاع ويصونه . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ يعنى بنيامين ؛ أى ٱستخرج السِّقاية أو الصّواع عند من يؤنث، وقال : « ولِمن جاء بِهِ » فذكر؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رءوسهم، وظنّوا الظنون كلها، وأقبلوا عليه وقالوا : ويلك يا بنيامين ! ما رأينا كاليوم قط ، ولدت أمك « راحيل » أخوين لِصّـين ! قال لهم أخوهم : والله ما سرقتـه ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى . ويروى أنهم قالوا له : يا بنيامين! أسرقت ؟ قال : لا والله؛ قالوا : فمن جعل الصُّواع فى رحلك ؟ قال : الذى جعل البضاعة فى رحالكم . ويقال : إن المفتش كان إذا فرغ من رَحْل رجل ٱستغفر الله عزّ وجلّ تائبا من فعله ذلك؛ وظاهر كلام قَتَادة وغيره أن المستغفر كان يوسف؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصّواع حتى فرغ منهم، وٱنتهى إلى رَحْل بنيامين فقال : ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئا، فقال له إخوته : والله لا نبرح حتى تفتشه ؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا ؛ ففتش فأخرج السقاية ؛ وهـذا التفتيش من يوسف يقتضى أن المؤذّن سَرّقهم برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى؛ ويقوّى ذلك قوله تعـالى : « كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » .

(١) راجع جـ ٦ ص ١٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ .

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « كِدْنَا » معناه صنعنا ؛ عن آبن عباس . القُتَبِيّ : دبّرنا . آبن الأنبارى : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادت وكِدت وتلك خيرُ إرادةٍ * لو عاد مِن عهد الصِّبَا ما قد مَضَى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحِيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا لأبى حنيفة فى تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول، وخَرَمت التحليل .

الثانيـة — أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف فى ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعى أنه لا يحل له التحيل ولا النقصان، ولا أن يفرّق بين مجتمع ، ولا أن يجمع بين متفرّق . وقال مالك : إذا فوّت من ماله شيئا ينوى به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند الحول ، أخذا منه بقوله عليه السلام : " خَشْيَةَ الصَّدَقة " . وقال أبو حنيفة : إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضرّه؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول ، ولا يتوجه إليه معنى قوله : " خَشْيَةَ الصَّدَقة " إلا حينئذ . قال آبن العربى : سمعت أبا بكر محمد بن الوليد الفِهْرى وغيره يقول : كان شيخنا قاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن على الدَّامَغَانِى صاحب عشرات آلاف من المال، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم : كَبِرَت سِنّى ، وضعفت قوّتى ، وهذا مال لا أحتاجه فهو لكم، ثم يخرجه فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دورِ بنيه؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا: يا أبانا ! إنما أملنا حياتك، وأما المال فأىّ رغبة لنا فيه مادمتَ حيا ؛ أنت ومالك لنا، نخذه إليك، ويسير الرجال به حتى يضعوه بين يديه، فيرده إلى موضعه؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأى أبى حنيفة فى التفريق بين المجتمع، والجمع بين المتفرّق؛ وهذا خطب عظيم؛ وقد صنف البخارىّ رضى الله عنه فى جامعه كتابا مقصودا فقال : « كتاب الحِيَل » .

قلت : وترجم فيه أبوابا منها : « باب الزكاة وألا يفرّق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرّق خشية الصدقة» . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة؛ وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس، الحديث؛ وفى آخره : " أفلح إن صَدَق " أو " دخل الجنة إن صَدَق " . وقال بعض الناس : فى عشرين ومائة بعير حِقّتان ؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهبها أو احتال فيها فِرارا من الزكاة فلا شىء عليه؛ ثم أردف بحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يكون كَنْز أحدِكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ويقول أنا كَنْزك " الحديث . قال المهلّب : إنما قصد البخارى فى هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد فى إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى، وفهم من قوله : " أفلح إن صدق " أن من رام أن ينقص شيئا من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عذره عند الله؛ وما أجازه الفقهاء من تصرف صاحب المال فى ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الهرب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط، والله حسيبه ؛ وهو كمن فرّ من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم، وٱستعمل سفرا لا يحتاج إليه، رغبة عن فرض الله الذى كتبه الله على المؤمنين ؛ فالوعيد متوجه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأى وجه متعمدا كيف تطؤه الإبل، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ؟ ! وهذا يدل على أن الفرار من الزكاة لا يحل، وهو مطالب بذلك فى الآخرة .

الثالثة — قال ٱبن العربى : قال بعض علماء الشافعية فى قوله تعالى « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ » دليل على وجه الحيلة إلى المباح، واستخراج الحقوق؛ وهذا وَهَم عظيم؛ وقوله تعالى : « وكذلِك مكّنّا ليوسف فِى ٱلارضِ » قيل فيه : كما مكّنّا ليوسف مِلْك نفسه عن ٱمرأة العزيز مكّنّا له مِلْك الأرض عن العزيز، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره . قال الشفعوى : ومثله قوله عز وجل : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِهِۦ وَلَا تَحْنَثْ» وهذا ليس

حيلة، إنما هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد. قال الشّفعوىّ: ومثله حديث أبى سعيد الخدرىّ فى عامل خيبر أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم بتمرٍ جَنِيب، الحديث؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعا(١) ويبتاع جَنِيبا من الذى باع منه الجمع أو من غيره. وقالت المالكية: معناه من غيره؛ لئلا يكون جَنِيبا بجمع، والدراهم ربا؛ كما قال ابن عباس: جريرة بجريرة(٢) والدراهم ربا.

قوله تعالى: ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أى سلطانه، عن ابن عباس. ابن عيسى: عادته، أى بظلم بلا حجة. مجاهد: فى حكمه؛ وهو استرقاق السّرّاق. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أى إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية فى رحله تَعِلّة وعذرا له. وقال قَتادة: بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين، ولكن شاء الله أن يجرى على ألسنتهم حكم بنى إسرائيل، على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أى بالعلم والإيمان. وقرئ «نرفع درجاتِ من نشاء» بمعنى: نرفع من نشاء درجات؛ وقد مضى فى «الأنعام»(٣) وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ روى إسرائيل عن سِماك عن عِكْرمة عن ابن عباس قال: يكون ذا أعلم من ذا، وذا أعلم من ذا، والله فوق كل عالم. وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جُبير قال: كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدّث بحديث فتعجب منه رجل فقال: سبحان الله! وفوق كل ذى علم عليم؛ فقال ابن عباس: بئس ما قلت؛ الله العليم وهو فوق كل عالم.

قوله تعالى: قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

---

(١) الجمع: تمر مختلط من أنواع متفرقة، وليس مرغوبا فيه. (٢) كذا فى الأصل وفى «إحكام القرآن لابن العربى». (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ المعنى : أى آقتدى بأخيه ، ولو آقتدى بنا ما سرق ؛ و إنما قالوا ذلك ليبرءوا من فعله ، لأنه ليس من أُمِّهم ؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عِرْق أخيه السّارق ؛ لأن الاشتراك فى الأنساب يشاكل فى الأخلاق . وقد آختلفوا فى السرقة التى نسبوا إلى يوسف ؛ فروى عن مجاهد وغيره أن عمة يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها مِنْطقة إسحق لسِنِّها ؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسنّ ، وهذا مما نُسخ حكمه بشرعنا ، وكان من سَرَق آستُعبِد . وكانت عمة يوسف حضنته وأحبّته حبًّا شديدا ؛ فلما ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب : سلّمى يوسف إلىّ ، فلست أقدر أن يغيب عنى ساعة ؛ فولعت به ، وأشفقت من فراقه ، فقالت له : دعه عندى أياما أنظر إليه . فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى مِنطَقة إسحق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدتُ مِنطَقة إسحق ، فانظروا مَن أخذها ومَن أصابها ؛ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا ؛ فوجدت مع يوسف . فقالت : إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت ؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ؛ فأمسكته حتى ماتت ؛ فبذلك عيّره إخوته فى قولهم : «إن يسرِق فقد سرق أخ له مِن قبل» . ومن ها هنا تعلّم يوسف وضع السقاية فى رَحْلِ أخيه كما عملت به عمته . وقال سعيد بن جُبير : إنما أمرته أن يسرِق صنما كان لجدّه أبى أمه ، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق ، وكان ذلك منهما تغييرا للنكر ؛ فرموه بالسرقة وعيّروه بها ؛ وقاله قَتَادة . وفى كتاب الزجاج أنه كان صنم ذهب . وقال عطية العَوْفى : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عَرْق[1] فخبأه فعيّروه بذلك . وقيل : إنه كان يَسرِق من طعام المائدة للساكين ؛ حكاه آبن عيسى . وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوا إليه ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أى أسرّ فى نفسه قولهم : «إن يسرِق فقد سرق أخ له من قبل» قاله آبن شجرة وآبن عيسى . وقيل : إنه أسرّ فى نفسه

---

(١) العرق (بالفتح) هنا القطعة من اللحم المطبوخ .

قوله : « أَنتُمْ شَرٌّ مَكَانًا » ثم جهر فقال : « والله أعلم بِما تصِفون » أى الله أعلم أنّ ما قلتم كذب، وإنْ، فكانت لله رضًا . وقد قيل : إن إخوة يوسف فى ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان فى تلك اللحظة بعزل الأوّل[1] أو موته . وقولهم : « إن له أبا شيخا كبيرا » أى كبير القدر، ولم يريدوا كبر السنّ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « فخذ أحدنا مكانه » أى عبدًا بدَلَه؛ وقد قيل : إن هذا مجاز؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقّه؛ و إنما هذا كما تقول لمن تكره فعله : آقتلنى ولا تفعل كذاوكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك مبالغ فى آستنزاله . ويحتمـل أن يكون قولهم : « فخـذ أحدنا مكانه » حقيقة؛ و بعيد عليهم وهم أنبياء أن يروا اسـترقاق حر، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمـالة؛ أى خذ أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه؛ و يعرف يعقوب جليّة الأمر؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك، إذ الحمالة فى الحدود ونحوها — بمعنى إحضار المضمون فقط — جائزة مع التراضى، غير لازم إذا أبى الطالب؛ و إنما الحمالة فى مثل هذا على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة، ولا يجوز إجماعا . وفى « الواضحة » أن الحمالة فى الوجه فقط فى الحدود جائزة، إلا فى النفس . وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس . وآختلف فيها عن الشافعىّ؛ فمـرّة ضعّفها، ومرّة أجازها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بمـا رأوا من إحسانه فى جميع أفعاله معهم، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحسانا علينا فى هذه اليد إن أسديتها إلينا؛ وهذا تأويل آبن إسحق .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ مصدر . ﴿ أَنْ نَأْخُذَ ﴾ فى موضع نصب؛ أى من أن نأخذ . ﴿ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا ﴾ فى موضع نصب بـ«نأخذ» . ﴿ مَتَاعَنَا عِنْدَهُۥٓ ﴾ أى معاذ الله أن نأخذ البرىء، بالمجرم، ونخالف ما تعاقدنا عليه . ﴿ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ أى أن نأخذ غيره .

---

(١) هو قطفير .

قوله تعالى : فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨٠)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْئَسُوا مِنْهُ ﴾ أى يَئِسوا ؛ مثل عَجِب وٱستعجب ، وسَخِر وٱستسخر . ﴿ خَلَصُوا ﴾ أى ٱنفردوا وليس هو معهم . ﴿ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال من المضمر فى « خلصوا » وهو واحد يؤدّى عن جمع ، كما فى هذه الآية ؛ ويقع على الواحد كقوله تعالى : « وقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا » وجمعه أَنْجِيَة ؛ قال الشاعر(١) :

إِنِّى إذا ما القومُ كانوا أَنْجِيَهْ * وٱضْطَرَبَ القومُ ٱضطِرابَ الْأَرْشِيَهْ

* هُنَاكَ أَوْصِينِى وَلَا تُوصِى بِيَهْ *

وقرأ ٱبن كثير « ٱسْتَايَسُوا » « وَلَا تَايَسُوا » « إِنه لَا يَايَس » « أَفَلَمْ يَايَس » بألف من غير همز على القلب ؛ قدّمت الهمزة وأخّرت الياء ، ثم قلبت الهمزة ألفا لأنها ساكنة قبلها فتحة ؛ والأصل قراءة الجماعة ؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء — يأسا — والإياس ليس بمصدر أَيِسَ ، بل هو مصدر أُسْتُه أَوْسًا وإِيَاسًا أى أعطيته . وقال قوم : أَيِس وَيئِس لغتان ؛ أى فلما يئسوا من ردّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس ، يتناجون فيما عَرَض لهم . والنَّجِىّ فعيل بمعنى المناجى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال قَتَادة : هو روبيل ، كان أكبرهم فى السنّ . مجاهد : هو شمعون ، كان أكبرهم فى الرأى . وقال الكلبىّ : يهوذا ؛ وكان أعقلهم . وقال محمد ابن كعب وابن إسحق : هو لَاوَى ، وهو أبو الأنبياء . ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم

---

(١) هو سحيم بن وثيل اليربوعى يصف قوما أتعبهم السير والسفر ، فرقدوا على ركابهم ، واضطربوا عليها ، وشدّ بعضهم على ناقته حذار سقوطه . وقيل : إنما ضربه مثلا لنزول الأمر المهم . والأرشية الحبال التى يستقى بها ، والمراد أنه ثابت الجأش . و (أوصينى ولا توصى) بالياء لأنه يخاطب مؤنثا .

مَوْثِقًا مِنَ اللهِ ﴾ أى عهدا من الله فى حفظ آبنه، وردّه إليه. ﴿ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ « ما » فى محل نصب عطفا على « أنّ » والمعنى : ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله، وتعلموا تفريطكم فى يوسف ؛ ذكره النحاس وغيره . و « مِن » فى قوله : « ومِن قبل » متعلقة بـ« تعلموا » . ويجوز أن تكون « ما » زائدة ؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما « من قبل » و « فى يوسف » بالفعل وهو « فرّطتم » . ويجوز أن تكون « ما » والفعل مصدرا، و « من قبل » متعلقا بفعل مضمر ؛ التقدير : تفريطكم فى يوسف واقع من قبل ؛ فما والفعل فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتعلق به « من قبل » . ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أى ألزمها، ولا أبرح مقيما فيها ؛ يقال : بَرِحَ بَرَاحًا وبُرُوحا أى زال، فإذا دخل النفى صار مثبتا . ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى ﴾ بالرجوع فإنى أستحى منه . ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِى ﴾ بالممر مع أخى فأمضى معه إلى أبى . وقيل : المعنى أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب وآخذ أخى ، أو أعجز فأنصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال : « لتأتُنّنى بِهِ إلا أن يحاط بكم » ومن حارب وعَجَز فقد أحيط به ؛ وقال ابن عباس : وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يردّ وجهه مائة ألف ؛ يقوم شعره فى صدره مثل المَسَالّ فتنفذ من ثيابه . وجاء فى الخبر أن يهوذا قال لأخوته — وكان أشدّهم غضبا — : إما أن تكفونى الملك ومن معه أكفكم أهل مصر؛ وإما أن تكفونى أهل مصر أكفكم المِلك ومن معه ؛ قالوا : بل آكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر ؛ فبعث واحدا من إخوته فعدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقا ؛ ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ! لئن لم تخلّ معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تُبقى فى مدينتك حاملا إلا أسقطت ما فى بطنها ؛ وكان ذلك خاصا فيهم عند الغضب ؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا وآشتدّ غضبه ، وآنتفجت شعراته ؛ وكذا كان كل واحد من بنى يعقوب ؛ كان إذا غضب ، آقشعرّ جلده ، وانتفخ جسده ، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب ، حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم ؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهدّم البنيان ، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم

والطير إلا وضعت ما فى بطنها، تماما أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما، أو تمسكه يد من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تم وكمل كَلَّم ولدا له صغيرا بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كتفى يهوذا من حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه وألقى السيف، فالتفت يمينا وشمالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم ير؛ فخرج مسرعا إلى إخوته وقال: هل حضرنى منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقيه، وقد احتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال: أذهب إلى السوق الذى وقع فى نصيبى أشدخ بها رءوس كل من فيه؛ قال: فارجع فردّها أو فألقها فى البحر، ولا تحدثنّ حَدَثا؛ فوالذى اتخذ إبراهيم خليلا! لقد مَسَّنى كَفٌّ من نَسْل يعقوب؛ ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدهم بطشا، فقال: يامعشر العبرانيين! أتظنون أنه ليس أحد أشدّ منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحون فركَله برجله فدحا به من خلف الجدار — الرَّكْلُ الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد رَكَله يَركُله؛ قاله الجوهرى — ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصَرَعه، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بصُواعِه فوضع بين يديه، ثم نقره نقرة فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبى هؤلاء همّ ولا غمّ ولا كرب إلا بسببهم، ثم نقر نقرة ثانية وقال: إنه يخبرنى أن هؤلاء أخذوا أخًا لهم صغيرا فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه؛ فقالوا: أيها العزيز! استر علينا ستر الله عليك، وامنن علينا منّ الله عليك؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم فى الجبّ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله؛ ثم نقره رابعة وقال: إنه يخبرنى أنكم أذنبتم ذنبا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه، ولم تتوبوا إليه؛ ثم نقره خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذى زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم نقر سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء أو بنى أنبياء ما كذبتم ولا عققتم والدكم؛ لأجعلنّكم نكالا للعالمين. ايتونى بالحدادين أقطع

أيديهم وأرجلهم ، فتضرّعوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا : لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حىّ لنكونن طوع يده ، وترابا يطأ علينا برجله ؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم : آخرجوا عنى ! قد خلّيت سبيلكم إكراما لأبيكم ، ولولا هو لجعلتكم نكالا .

قوله تعالى : ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ (٨١)

قوله تعالى : ﴿ ٱرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ ﴾ قاله الذى قال : « فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ » . ﴿ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ وقرأ آبن عباس والضحاك وأبو رَزِين « إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ » . النحاس : وحدثنى محمد بن أحمد بن عمر قال حدّثنا ابن شَاذَان[1] قال حدّثنا أحمد بن أبى سُرَيج البغدادىّ قال : سمعت الكسائىّ يقرأ « يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ » بضم السين وتشديد الراء مكسورة ؛ على مالم يُسمّ فاعله ؛ أى نُسب إلى السرقة ورُمى بها ؛ مثل خوّنته وفسّقته وفجّرته إذا نسبته إلى هذه الخلال . وقال الزجاج : « سُرِّقَ » يحتمل معنيين : أحدهما — علم منه السَّرَق ، والآخر — آتهم بالسَّرَق . قال الجوهرى : والسَّرِق والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو آسم الشىء المسروق ، والمصدر سَرَق يَسْرِق سَرَقًا بالفتح .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ .

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا » يريدون ما شهدنا قطّ إلا بما علمنا ، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب ؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : دَسّ هذا فى رحلى مَن دَسّ بضاعتكم فى رحالكم ؛ قال معناه آبن إسحق . وقيل المعنى : ماشهدنا عند يوسف بأن السارق يُسْتَرَقّ إلا بما علمنا من دينك ؛ قاله آبن زيد . ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ أى لم نعلم وقت أخذنا منك أنه يَسْرِق فلا نأخذه . وقال مجاهد وقتادة : ما كنا

(١) هو العباس بن الفضل بن شاذان ، كما فى « غاية النهاية » .

نعلم أن ٱبنك يُسترقّ ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطيق . وقال ٱبن عباس : يعنون أنه سَرَق ليلا وهم نيام، والغيب هو الليل بلغة حِمْير ؛ وعنه : ما كنا نعلم ما يصنع فى ليله ونهاره وذهابه وإيابه . وقيل : ما دام بمرأى منا لم يجر خَلَل ، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته . وقيل معناه : قد أُخِذت السَّرِقة من رَحْله ، ونحن أخرجناها وننظر إليها ، ولا علم لنا بالغيب، فلعلهم سَرَّقوه ولم يَسرِق .

الثانية — تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأى وجه حصل العلم بها ؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا ، فلا تسمع إلا ممن عَلِم، ولا تقبل إلا منهم ، وهذا هو الأصل فى الشهادات؛ ولهذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة؛ وكذلك الشهادة على الخطّ — إذا تيقّن أنه خطّه أو خطّ فلان — صحيحة ؛ فكل من حصل له العلم بشىء جاز أن يشهد به وإن لم يُشهِده المشهود عليه ؛ قال الله تعالى : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألَا أُخبركم بخير الشهداء خيرُ الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسألها " وقد مضى فى " البقرة "[1] .

الثالثة — ٱختلف قول مالك فى شهادة المرور؛ وهو أن يقول : مررت بفلان فسمعته يقول كذا ؛ فإن ٱستوعب القول شهِد فى أحد قوليه ، وفى القول الآخر لا يشهد حتى يُشهداه ؛ والصحيح أن الشهادة عند الٱستيعاب ؛ وبه قال جماعة العلماء ، وهو الحق ؛ لأنه حصل المطلوب ، وتعيّن عليه أداء العلم ؛ فكان خير الشهداء إذا أعلم المشهود له ، وشر الشهداء إذا كتمها .

الرابعة — إذا ٱدّعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردّت ؛ لأنه ٱدّعى باطلا فأكذبه العيان ظاهرا .

قوله تعالى : وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٩٩ طبعة أولى أو ثانية .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ﴾ حقّقوا بها شهادتهم عنده، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم بقولهم . « واسأل القرية » أى أهلها ؛ فحذف؛ ويريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها . وقيل المعنى : «واسأل القرية» وإن كانت جمادا، فأنت نبيّ الله، وهو يُنطق الجماد لك؛ وعلى هذا فلاحاجة إلى إضمار؛ قال سيبويه : ولا يجوز كلِّم هندا وأنت تريد غلام هند ؛ لأن هذا يُشكل . والقول فى العير كالقول فى القرية سواء. ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا .

الثانية — فى هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حقّ، وعلِم أنه قد يُظَنّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهَّم أن يرفع التهمة وكلّ ريبة عن نفسه ، ويصرّح بالحق الذى هو عليه، حتى لا يبقى لأحد مُتكلَّم ؛ وقد فعل هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفية يَقْلِبُها(١) من المسجد على رِسْلِكما إنما هى صفية بنت حيي فقالا : سبحان الله ! وكَبُر عليهما ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدّم وإنى خَشِيت أن يَقذِف فى قلوبكما شيئا " رواه البخارى ومسلم .

قوله تعالى : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زيّنت. ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ أن ابنى سَرَق وما سَرَق، وإنما ذلك لأمر يريده الله. ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى فشأنى صبر جميل؛ أو صبر جميل أولى بى، على ماتقدّم أوّل السورة .

(١) يقلبها : يردّها .

الثانيـــة — الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه فى نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميـل، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدى بيعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم. وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن قَتَادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرّعهما العبد أحبّ إلى الله من جرعة مصيبة يتجرّعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو. وقال ٱبن جُريج عن مجاهـد فى قوله تعالى: «فصبر جميـل» أى لا أشكو ذلك إلى أحد. وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبى رَبَاح عن أبى هُريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ بثّ لم يَصْبِر". وقد تقدّم فى «البقرة»[1] أن الصبر عند أول الصّدمة، وثواب من ذكر مصيبته وٱسترجع وإن تقادم عهدها. وقال جُوَيبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال: إن يعقوب أُعطى على يوسـف أجر مائة شهيد، وكذلك من ٱحتسب من هذه الأمة فى مصيبته فله أجر يعقوب عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت، وإنمـا غاب عنه خبره؛ لأن يوسف حُمِل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئا، ثم ٱشتراه الملك فكان فى داره لا يظهر للنـاس، ثم حُبس، فلما تمكن ٱحتال فى أن يعـلم أبوه خبره؛ ولم يُوجّه برسول لأنه كرِه من إخوته أن يعرفوا ذلك، فلا يدعوا الرسول يَصلُ إليه. وقال: «بهم» لأنهم ثلاثة؛ يوسف وأخوه، والمتخلّف من أجل أخـيه، وهو القائل: «فلن أبرح الأرض». ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالى. ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يقضى.

قوله تعـالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

فيـه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أى أعرض عنهم؛ وذلك أن يعقوب لمـا بلغه خبر بنيامين تَتَامَّ حزنه، وبلغ جهـده، وجدّد الله مصيبتـه له فى يوسف فقال: ﴿يَا أَسَفَا

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧٤، ١٧٥ طبعة ثانية.

عَلَى يُوسُفَ ﴾ ونَسِىَ ٱبنه بنيامين فلم يذكره؛ عن ٱبن عباس . وقال سعيد بن جُبير : لم يكن عند يعقوب ما فى كتابنا من الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال : « يا أسفا على يوسف» . قال قَتَادة والحسن : والمعنى يا حزناه ! وقال مجاهد والضحاك : يا جزعاه ! ؛ قال كُثَيِّر :

فيا أَسفا للقلب كيف ٱنصرافُهُ * وللنَّفْسِ لمّا سُلِّيت فَتَســلَّتِ

والأسف شدّة الحزن على ما فات . والنداء على معنى : تعال يا أسف فإنه من أوقاتك . وقال الزجاج : الأصل يا أسفِى ؛ فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة . ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُـزْنِ ﴾ قيل : لم يبصر بهما ستّ سنين ، وأنه عَمِىَ ؛ قاله مقاتل . وقيل : قد تبيضّ العين ويبقى شىء من الرؤية ، والله أعلم بحال يعقوب ؛ وإنما ٱبيضّت عيناه من البكاء ، ولكن سبب البكاء الحزن ، فلهذا قال : « من الحزن » . وقيل : إن يعقوب كان يصلّى ، ويوسف نائما معترضا بين يديه ، فَغطَّ فى نومه ، فالتفت يعقوب إليه ، ثم غَطَّ ثانية فالتفت إليـه ، ثم غَطَّ ثالثـة فالتفت إليــه سرورا به وبغطيطه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ملائكته « ٱنظروا إلى صَفيّى وٱبن خليلى قائما فى مناجاتى يلتفت إلى غيرى ، وعِزّتى وجَلَالى ! لأنزعنّ الحدقتين اللتين التفت بهما ، ولأفرقنّ بينه وبين من التفت إليــه ثمانين سنة ؛ ليعلم العالمون أن من قام بين يدىّ يجب عليه مراقبة نظرى » .

الثانيــــة — هذا يدلّ على أن الالتفات فى الصلاة — وإن لم يُبطل — يدلّ على العقوبة عليها ، والنقص فيها ، وقد رَوى البخارى عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة فقال : " هو ٱختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبـد " . وسيأتى ما للعلماء فى هذا فى أوّل سورة « المؤمنين » موعبا إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة — قال النحاس : فإن سأل قــوم عن معنى شـدّة حزن يعقوب — صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا — فللعلماء فى هــذا ثلاثة أجوبة : منها — أن يعقوب صلى الله عليــه وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حَىٌّ خاف على دِينه ، فاشتدّ حزنه لذلك . وقيل : إنما حزن لأنه سلّمه إليهم صغيرا ، فندم على ذلك . والجواب الثالث — وهو أبينها — هو أن

الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الوَلْوَلة وشقّ الثياب، والكلام بما لا ينبغي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " تَدمع العين ويَحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الربّ " . وقد بيّن الله جلّ وعزّ ذلك بقوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يَبثّه؛ ومنه كَظْم الغيظ وهو إخفاؤه؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال الله تعالى : « إذ نادى وهو مكظوم » أي مملوء كربا . ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم؛ وهو المشتمل على حزنه . وعن آبن عباس : كظيم مغموم؛ قال الشاعر :

فإنْ أَكُ كاظِمًا لِمُصابِ شاسٍ * فإنّي اليومَ مُنطلقٌ لساني

وقال آبن جُريج عن مجاهد عن آبن عباس قال : ذهبت عيناه من الحزن « فهو كظيم » قال : فهو مكروب . وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن آبن عباس في قوله : «فهو كظيم» قال : فهو كَمِد؛ يقول : يعلم أن يوسف حيّ، وأنه لا يدري أين هو؛ فهو كَمِد من ذلك . قال الجوهري : الكَمَد الحزن المكتوم؛ تقول منه كَمِد الرجلُ فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ . النحاس : يقال فلان كَظِيم وكاظم؛ أي حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر :

فَحَضَضْتُ قَوْمِي وٱحتسبتُ قِتالَهمْ * والقومُ من خوف المَنَايا كُظَّمُ

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي قال له ولده : «تالله تفتأ تذكر يوسف» قال الكسائي : فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعل ذلك؛ أي مازلتُ . وزعم الفراء أن «لا» مضمر؛ أي لا تفتأ؛ وأنشد (١) :

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعِدًا * ولو قَطَعُوا رأسي لَدَيك وأَوْصَالِي

(١) البيت لامرئ القيس و « يمين » بالرفع على الابتداء وإضمار الخبر؛ والتقدير: يمين الله لازمني؛ وبالنصب على إضمار فعل، وهو كثير في كلام العرب كقولهم : أمانة الله . وقد وصف أنه طرق محبوبته نخوفته الرقباء، وأمرته بالانصراف، فقال لها هذا، وأراد : لا أبرح فحذف « لا » . والأوصال (جمع وصل) وهي المفاصل .

أى لا أبرح ؛ قال النحاس : والذى قال حسن صحيح . وزعم الخليل وسيبويه أن «لا» تضمر فى القسم ، لأنه ليس فيه إشكال ؛ ولو كان واجبا لكان باللام والنون ؛ وإنما قالوا له ذلك لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك ؛ يقال : ما زال يفعل كذا ، وما فتِئ وفَتَأ فهما لغتان ، ولا يستعملان إلا مع الجحد ؛ قال الشاعر(١) :

فما فَتِئَتْ حتّى كأنّ غُبَارَها(٢) * سُرَادِقُ يومٍ ذى رياحٍ تُرَفَّعُ

أى ما برِحت فتفتأ تبرح . وقال ٱبن عباس : تزال . ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى تالفا . وقال ابن عباس ومجاهد : دَنِفا من المرض ، وهو ما دون الموت ؛ قال الشاعر :

سَرَى هَمِّى فأمرضَنِى * وقِدْمًا زادنى مَرَضَا

كذاكَ الحبُّ قبلَ اليو * مِ ممَّا يُورِثُ الحَرَضَا

وقال قَتَادة : هرِما . الضحاك : بالِيًا دائِرًا . محمد بن إسحق : فاسدا لاعقل لك . الفراء : الحارض الفاسد الجسم والعقل ؛ وكذا الحَرَض . ابن زيد : الحَرَض الذى قد رُدّ إلى أرذلِ العمر . الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم . المؤرِّج : ذابا من الهمّ . وقال الأخفش : ذاهبا . ٱبن الأنبارىّ : هالكا ، وكلها متقاربة . وأصل الحَرَض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرَم ، عن أبى عُبيدة وغيره ؛ وقال العرْجىّ :

إنِّى ٱمرؤٌ لَجَّ بِى حُبٌّ فأحْرَضَنِى * حتّى بَلِيتُ وحتى شَفَّنى السَّقَمُ

قال النحاس : يقال حَرَض حَرَضًا وحَرُض حُرُوضا وحُرُوضةً إذا بلِى وسقِم ، ورجل حارِض وحَرَض ، إلا أن حَرَضا لا يثنى ولا يجمع ، ومثله قَمِن وحَرِى لا يثنيان ولا يجمعان . الثعلبىّ : ومن العرب من يقول حارِض للذكر ، والمؤنثة حارِضة ، فإذا وصف بهذا اللفظ ثنّى وجمع وأنّث . ويقال : حَرِض يحرَض حَرَاضةً فهو حَرِيض وحَرِضٌ . ويقال : رجل مُحْرَض ، ويُنْشَد :

طَلَبَتْهُ الخيلُ يومًا كاملا * ولَوَ ٱلْفتهُ لأَضْحَى مُحْرَضَا

---

(١) هو أوس بن حجر التميمى الجاهلى . (٢) الضمير للخيل .

وقال آمرؤ القيس :

أَرَى المرءَ ذا الأَذْوَادِ يُصبِحُ مُحْرَضًا * كإِحْرَاضِ بِكْرٍ فى الدِّيارِ مَرِيضِ (١)

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ إذا أسقمه ، ورجل حارض أى أحمق . وقرأ أنس «حُرضا» بضم الحاء وسكون الراء ، أى مثل عود الأُشْنَان . وقرأ الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهرى : الحَرَض والحُرُض الأُشْنَان . ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ أى الميّتين ، وهو قول الجميع ؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه ، وإن كانوا السبب فى ذلك .

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ حقيقة البثّ فى اللغة مايرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التى لا يتهيأ له أن يخفيها ؛ وهو من بثثته أى فرقته ، فسميت المصيبة بثًّا مجازا ؛ قال ذو الرُّمَّة :

وَقَفْتُ على رَبعٍ لمِيَّــةَ نَاقَــتِي * فما زِلْتُ أَبْكِي عِنْــدَهُ وأُخَاطِبُهْ

وأَسْــقِيه حتى كاد مما أُبِثُّــهُ * تُكَلِّمُــنِي أَحْجَارُهُ ومَلاعِبُــه (٢)

وقال ابن عباس : « بَثّى » هَمِّى . الحسن : حاجتى . وقيـل : أشد الحزن ، وحقيقته ماذ كرناه . ﴿وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوف عليه ، أعاده بغير لفظه . ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى سأسجد له . قاله آبن عباس . وقَتَادة : إنى أعلم من إحسان الله تعالى إلىّ مايوجب حسن ظنى به . وقيل : قال يعقوب لملك الموت هل قبضت رُوح يوسف ؟ قال : لا ، فأكّد هذا رجاءه . وقال السدّى : أعلم أن يوسف حىّ ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخُلُقه وقوله أحسّت نَفْس يعقوب أنه ولده فطمع ، وقال : لعله يوسف .

قوله تعالى : ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

(١) الأذواد : جمع ذود ، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع . والبكر : الفتى من الإبل ؛ يقول : أرى المرء ذا المال يدركه الهرم والمرض ، والفناء بعد ذلك فلا تغنى كثرة ماله ، كما أن البكر يدركه ذلك .

(٢) أسقيه : أدعو له بالسقيا .

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ هـذا يدل على أنه تيقن حياته ، إما بالرؤيا ، و إما بإنطاق الله تعالى الذئب كما فى أول القصـة ، و إما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض رُوحه ؛ وهو أظهر . والتَّحسُّس طلب الشيء بالحواسّ ؛ فهو تفعّل من الحِسّ ، أى آذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم ، وآحتال عليكم فى أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه ؛ و يروى أن ملك الموت قال له : آطلبه من هاهنا ! وأشار إلى ناحيـة مصر . وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف بردّ البضاعة ، وآحتباس أخيه ، و إظهار الكرامة ؛ فلذلك وجّههم إلى جهـة مصر دون غيرها . ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ ﴾ أى لا تقنطوا من فرج الله ؛ قاله آبن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط فى الشدّة . وقال قتادة والضحاك : من رحمة الله . ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر ، وهو اليأس ، وسيأتى فى « الزُّمَر »[1] بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَـٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَأَيُّهَا العَزِيزُ ﴾ أى الممتنع . ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر ؛ وفى الكلام حذف ، أى نخرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : « مَسَّنَا » أى أصابنا « وأهلنا الضُّر » أى الجوع والحاجة ؛ وفى هذا دليل على جواز الشكوى عند الضُّر ، أى الجوع ؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضّر من الفقر وغيره أن يبـدى حالته إلى من يرجو منه النفع ؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجـه ؛ ولا يكون ذلك قدحا فى التوكل ، وهـذا ما لم يكن التشكى على سبيل التّسخط ؛ والصبر والتّجلد فى النّوائب أحسن ، والتّعفف عن المسئلة أفضل ؛ وأحسن الكلام

(١) فى تفسير قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ... » آية ٥٣ من السورة المذكورة .

فى الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون » أى من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعائدته على عباده ؛ فأما الشكوى على غير مُشْكٍ فهو السفه ، إلا أن يكون على وجه البث والتسلى ؛ كما قال ٱبن دُرَيْد :

لَا تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنى ضارعٌ * لِنَكْبةٍ تَعْرِقُنِى عَرْقَ المُدَى
مَارَسْتَ مَنْ هَوَتِ الأفلاكُ مِنْ * جَوَانِبِ الجوِّ عليه ما شَكَا
لكنّها نَفْثَةُ مَصْدورٍ إذا * جَاشَ لُغَامٌ[1] مِن نَوَاحِيهَا غَمَا

قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شىء ؛ تقول : أبضعت الشىء وٱستبضعته أى جعلته بضاعة ؛ وفى المثل : كمستبضع التمر إلى هَجَر[2] .

قوله تعالى : ﴿ مُزْجَاةٍ ﴾ صفة لبضاعة ؛ والإزجاء السَّوْق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَاباً » والمعنى أنها بضاعة تُدفع ، ولا يقبلها كل أحد . قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامّة . وٱختلف فى تعيينها ؛ فقيل : كانت قَدِيدَ وَحْشٍ ؛ ذكره الواقدىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقيل : خَلَقُ الغَرَائِرِ والحِبال ؛ روى عن ٱبن عباس . وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث . وقيل : الحبة الخضراء والصَّنَوبر وهو البُطْم ، حبّ شجرٍ بالشام ، يؤكل و يعصر الزيت منه لعمل الصابون ، قاله أبو صالح ؛ فباعوها بدراهم لا تَنفُق فى الطعام ، وتَنْفق فيما بين الناس ؛ فقالوا : أخذها منا بحساب جيادٍ تَنفُق فى الطعام . وقيل : دراهم رديئة ؛ قاله ٱبن عباس أيضا . وقيل : ليس عليها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف . وقال الضحاك : النعال والأدم ؛ وعنه كانت سويقا منخلا . والله أعلم .

---

(١) اللغام : الزبد ؛ وهو ما يلقيه البعير من فمه ؛ وغما : سقط ؛ يقال : غما البعير الزبد إذا رماه بنفض رأسه ومشفره .   (٢) هجر : مدينة بالبحرين .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ .

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : « فأوف لنا الكيل » يريدون كما تبيع بالدراهم الجياد لا تنقصنا بمكان دراهمنا ؛ هذا قول أكثر المفسرين . وقال ٱبن جُرَيج : « فأوف لنا الكيل » يريدون الكيل الذى كان قد كاله لأخيهم . « وتصدق علينا » أى تفضل علينا بمـا بين سعر الجياد والرديئة ، قاله سعيد بن جُبَير والسدّى والحسن ؛ لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى : « تصدّق علينا » بالزيادة على حقّنا ؛ قاله سفيان بن عُيَيْنة . قال مجاهد : ولم تحرم الصـدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليـه وسلم . وقال ٱبن جُرَيج : المعنى « تصـدّق علينا » بردّ أخينا إلينا . وقال ٱبن شجرة : « تصدّق علينا » تَجوَّز عنا ؛ وٱستشهد بقول الشاعر :

تَصدَّقْ علينا يا ٱبن عَفَّان وٱحْتَسِبْ * وأَمِّرْ علينـا الأشـعرىّ لَيَـالِيَا

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ يعنى فى الآخرة ؛ يقال : هذا من مَعَاريض الكلام ؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يجزيك بصدقتك ، فقالوا لفظا يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجه بالتأويل ؛ قاله النقاش . وفى الحديث : " إن فى المَعَاريض (١) لمندوحةً عن الكذب " .

الثانيـــة ـــ ٱستدلّ مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع ؛ قال ٱبن القاسم وٱبن نافع قال مالك : قالوا ليوسـف « فأوف لنا الكيل » فكان يوسف هو الذى يكيل ، وكذلك الوَزَّان والعدّاد وغيرهم ؛ لأن الرجل إذا باع عِدّة معلومة من طعامه ، وأوجب العقد عليه ، وجب عليـه أن يبرزها ويميز حق المشترى من حقه ، إلا أن يبيع منه مُعيَّنا ـــ صُبْرة أو ما لا حقّ توفية فيه ـــ فخلّى بينه و بينه ، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع ؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن ، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية ، و إن تلف فهو منه قبل التوفية .

(١) المعاريض : جمع معراض ، من التعريض وهو خلاف التصريح من القول .

الثالثة — وأما أجرة النقد فعلى البائع؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول : إنها طَيِّبة، فأنت الذى تدّعى الرداءة فأنظر لنفسك؛ وأيضا فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه، وكذلك لا يجب على الذى عليه القصاص؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه، إلا أن يمكّن من ذلك طائعا؛ ألا ترى أن فرضا عليه أن يفدى يده، و يصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه، فأجر القطّاع على المقتص . وقال الشافعى فى المشهور عنه : إنها على المقتص منه كالبائع .

الرابعة — يكره للرجل أن يقول فى دعائه : اللهم تصدّق علىّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغى الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا ربّ غيره؛ وسمع الحسن رجلا يقول : اللهم تصدّق علىّ؛ فقال الحسن : يا هذا! إن الله لا يتصدّق إنما يتصدّق من يبتغى الثواب؛ أَمَا سمعتَ قول الله تعالى : « إن الله يجزى المتصدقين » قل : اللهم أعطنى وتفضّل علىّ .

قوله تعالى : قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ آستفهام بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذى قال الله : « لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِم »[1] . ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ دليل على أنهم

(١) أى تصديق قول الله ، كما فى تفسير الفخر .

كانوا صغارا فى وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدلّ على أنه حسنت حالهم الآن؛ أى فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال؛ قال معناه ابن عباس والحسن؛ ويكون قولهم: «وإن كنا لخاطئين» على هذا، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفا منه. وقيل: جاهلون بما تؤول إليه العاقبة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا: «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» فخضعوا له وتواضعوا رقَّ لهم، وعرّفهم بنفسه، فقال: «هل علِمتم ما فعلتم بِيوسف وأخِيه» فتنبّهوا فقالوا: «أئِنك لأنت يوسف» قاله ابن إسحق. وقيل: إن يوسف تبسّم فشبهوه بيوسف وآستفهموا. قال ابن عباس لما قال لهم: «هل علمتم ما فعلتم بيوسف» الآية، ثم تبسم يوسف — وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم — فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الآستفهام: «أئنك لأنت يوسف». وعن ابن عباس أيضا أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان فى قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم: «هل علِمتم ما فعلتم بِيوسف» رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا: «أئِنك لأنت يوسف». وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب ردّ آبنه، وفى الكتاب: من يعقوب صفىّ الله آبن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر — أما بعد — فإنّا أهل بيت بلاء ومحن، ابتلى الله جدّى إبراهيم بنمرود وناره، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبح، ثم آبتلانى بولد كان لى أحبّ أولادى إلىّ حتى كُفَّ بصرى من البكاء، وإنى لم أسرق ولم ألد سارقا والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب آرتعدت مفاصله، واقشعرّ جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعِيل صبره فباح بالسرّ. وقرأ ابن كثير «إنك» على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ». ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ أى أنا المظلوم والمراد قتله، ولم يقل أنا هو تعظيما للقصة. ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أى بالنجاة والملك. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أى يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصى. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى الصابرين فى بلائه، القائمين بطاعته. وقرأ آبن كثير «إنه من يتقى» بإثبات الياء، والقراءة به جائزة على أن تجعل

«مَنْ» بمعنى الذى، وتدخل «يتَّقِ» فى الصلة ، فتثبت الياء لا غير، وترفع « ويصبر» . وقد يجوز أن تجزم « ويصبر» على أن تجعل « يتّق » فى موضع جزم « ومن » للشرط ، وتثبت الياء، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التى كانت فى الياء على الأصل؛ كما قال :

ثم نادِى إذا دَخلتَ دِمشقًا * يا يزيدُ بنَ خالدِ بنِ يزيد

وقال آخــر :

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى * بما لَاقتْ لَبُونُ بنِى زيادِ

وقراءة الجماعة ظاهرة، والهاء فى « إنه » كناية عن الحديث، والجملة الخبر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الأصل همزتان خفّفت الثانية، ولا يجوز تحقيقها ، وٱسم الفاعل مُؤْثِر، والمصـدر إيثار . ويقال أثَرْتُ التراب إثارةً فأنا مُثـير ؛ وهو أيضا على أَفْعَل ثم أُعِلّ، والأصل أَثْيَر[1] نقلت حركة الياء على الثاء، فانقلبت الياء ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين . وأَثَرتُ الحـديث على فَعَلْتُ فأنا آثِرٌ؛ والمعنى : لقـد فضّلك الله علينا ، وٱختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك . ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أى مذنبين من خَطِئ يَخْطَأ إذا أتى الخطيئـة ، وفى ضمن هـذا سؤال العفـو . وقيل لابن عبـاس : كيف قالوا « وإن كنا لخاطِئين » وقد تعمدوا لذلك؟ قال: وإن تعمّدوا لذلك، وما تعمدوا حتى أخطئوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تَخطّى المنهاج الذى عليه من الحق، حتى يقع فى الشبهة والمعصية .

قوله تعـالى : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أى قال يوسف — وكان حليما موفّقا — : « لا تثريب عليـكم اليوم » وتمّ الكلام . ومعنى « اليـوم » : الوقت . والتثريب التّعيير والتوبيخ، أى لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثورىّ وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام: "إذا زنت أمة أحدكم فليجلِدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها" أى لا يُعيِّرها؛ وقال بِشر:

فعفَوتُ عنهــم عفْوَ غيرِ مُثَرِّبٍ * وتركتهم لعقابِ يومٍ ســرمَدِ

(١) كذا فى الأصل وإعراب القرآن للنحاس. ويلاحظ أن عين الفعل واو لا ياء، وعليه فالأصل أثور، نقلت حركة الواو إلى ما قبلها فقلبت ألفا ، ثم حذفت — عند اتصال الفعل بضمير متحرك — لالتقاء الساكنين .

وقال الأصمعي : ثَرَّبْتُ عليه وعَرَّبْتُ عليه بمعنى إذا قبحتَ عليه فعله . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بيني و بينكم من الحرمة، وحقّ الإخوة، ولكم عندى العفو والصفح؛ وأصل التثريب الإفساد ، وهى لغة أهل الحجاز . وعن ابن عباس أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعُضَادَتَى الباب يوم فتح مكة، وقد لاَذَ النـاسُ بالبيت فقال : "الحمد لله الذى صدق وَعْدَه ونصر عَبْدَه وهَزَم الأحزاب وحدَه" ثم قال : " ماذا تظنون يا معشر قريش" قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وٱبنُ أخ كريم وقـد قَدَرت؛ قال : " وأنا أقـول كما قال أخى يوسف «لا تثريب عليكم اليوم»" فقال عمر رضى الله عنه : ففِضتُ عَرَقا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسـلم؛ ذلك أنى كنت قـد قلت لهم حين دخلت مكة : اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ٱستحييت من قولى . ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ مستقبل فيـه معنى الدعاء؛ سأل الله أن يستر عليهم و يرحمهم . وأجاز الأخفش الوقف على «عليكم» والأول هو المستعمل؛ فإن فى الوقف على «عليكم» والابتداء بـ«ـاليوم يغفر الله لكم» جَزْم بالمغفرة فى اليـوم ، وذلك لا يكون إلا عن وحى ، وهذا بيّن . وقال عطاء الخراسانى : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم تر قول يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » وقال يعقوب : « سوف أستغفِر لكم ربى » .

قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَٰذَا ﴾ نعت للقميص، والقميص مذكر، فأما قول الشاعر:(١)

تَدْعو هَوازِنُ والقميصُ مُفاضَـةٌ * فـوق النِّطاقِ تُشَـدُّ بالأزرارِ

فتقديره : [والقميص] دِرْع مُفاضَةٌ(٢) . قاله النحاس . وقال ابن السدّى عن أبيه عن مجاهد : قال لهم يوسف «ٱذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجهِ أبِى يأتِ بصِيرا» قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدّ على يعقوب بصره، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله فى النار من حرير الجنـة، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قَصَبة من فضـة وعلّقه فى عُنق يوسف ، لِمَا كان يخاف عليـه من

(١) هو جرير . (٢) الزيادة عن النحاس .

العين، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يقع على سليم ولا مُبتلًى إلا عُوفى . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذى حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذى أحمله الآن لأسره، وليعود إليه بصره، فحمله؛ حكاه السدّى . ﴿ وأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لتتخذوا مصر دارا . قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين، ما بين رجل وامرأة . وقد قيل : إن القميص الذى بعثه هو القميص الذى قُدّ من دُبره، ليعلم يعقوب أنه عُصم من الزنى؛ والقول الأول أصح، وقد روى مرفوعا من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره القُشَيرى والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أى خرجت منطلقة من مصر إلى الشام، يقال : فَصَلَ فُصُولا، وفصلته فَصْلًا، فهو لازم ومتعد . ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أى قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده : ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ . وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه، فقال لمن بقى : «إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ» . قال ابن عباس : هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال . وقال الحسن : مسيرة عشر ليال؛

وعنه أيضا مَسيرة شهر . وقال مالك رضى الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتدّ إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد : هبّت ريح فصَفَقَت(١) القميصَ فراحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس فى الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : «إنى لأجد» أى أشُمّ ، فهو وجود حاسة الشمّ . ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُسفّهون ، ومنه قول النابغة :

إلّا سليمانَ إذ قال المليكُ لَهُ * قُمْ فى البريّةِ فاْحدُدْها عنِ الفَنَدِ(٢)

أى عن السَّفَه . وقال سعيد بن جُبير والضحاك : لولا أن تكذّبون . والفَنَد الكذب . وقد أَفْنَدَ إفْنادا كَذَب ، ومنه قول الشاعر :

هل فى ٱفتخار الكريم من أَوَدِ(٣) * أمْ هل لقول الصَّدُوقِ من فَنَدِ

أى من كذب . وقيل : لولا أن تُقبّحون ، قاله أبو عمرو ، والتفنيد التقبيح ، قال الشاعر :

ياصاحبىّ دعا لومِى وتَفنِيدِى * فليس ما فاتَ مِن أمرِى بمردودِ

وقال ٱبن الأعرابى : « لولا أن تفنّدون » لولا أن تُضعّفوا رأيى ، وقاله ابن إسحق . والفند ضعف الرأى من كِبر . وقول رابع : تُضلّلون ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلومونى ، والتفنيد اللوم وتضعيف الرأى . وقال الحسن وقَتادة ومجاهد أيضا : تُهرّمون ، وكله متقارب المعنى ، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأى ، يقال فَنَّده تفنيدا إذا أعجزه ، كما قال :

* أهلكنى باللوم والتفنيد *

ويقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ، والفَنَد الخطأ فى الكلام والرأى ، كما قال النابغة :

* ... فٱحددها عنِ الفَنَدِ *

أى ٱمنعها عن الفساد فى العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ، قال الشاعر :

يا عاذلىّ دَعَا المَلَامَ وأَقْصِرا * طالَ الهَوَى وأطلتما التَّفْنِيدا

(١) صفقت الريح الشىء ، وصفقته إذا قلبته يمينا وشمالا وردّدته . (٢) شبه الشاعر النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام لعظم ملكه ؛ وقبل البيت :

ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه * ولا أحاشى من الأقوام من أحد

(٣) أود : عوج .

ويقال : أَفْنَدَ فلاناً الدهرُ إذا أفسده؛ ومنه قول ابن مُقْبِل :

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ ما أرادَ فإنَّهُ * إذا كُلِّفَ الإفنادَ بالناسِ أَفْنَدَا

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أى لفى ذهاب عن طريق الصواب . وقال ابن عباس وابن زيد : لفى خطئِك الماضى من حبّ يوسف لاتنساه . وقال سعيد بن جُبير : لفى جنونك القديم . قال الحسن : وهذا عقوق . وقال قَتادة وسفيان : لفى محبتك القديمة . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذى قال له ذلك من بق معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغارا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أى على عينيه . ﴿فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ «أَنْ» زائدة، والبشير قيل هو شمعون. وقيل: يهوذا قال: أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُلَطَّخا بالدّم؛ قاله ابن عباس . وعن السدّى أنه قال لإخوته : قد علمتم أنى ذهبت إليه بقميص التَّرْحة فدعونى أذهب إليه بقميص الفَرْحة . وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أىّ دِينٍ تركت يوسف؟ قال : على الإسلام؛ قال : الآن تمت النعمة؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يُثيبه به ؛ فقال : والله ما أصبتُ عندنا شيئا ، وما خبزنا شيئا منذ سبع ليال ، ولكن هوّن الله عليك سكراتِ الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر . وفى الباب حديث كعب بن مالك — الطويل — وفيه : « فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشّرنى نزعت ثوبىّ فكسوتهما إياه ببشارته » وذكر الحديث ، وقد تقدّم بكماله فى قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا[1]، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به ، وهو دليل على

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

جواز إظهار الفرح بعد زوال الغمّ والتَّرح . ومن هذا الباب جواز حَذاقة[1] الصبيان، وإطعام الطعام فيها، وقد نحر عمر بعد سورة «البقرة» جَزُورا . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكَّرهم قوله : «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» .

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ فى الكلام حذف، التقدير: فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا؛ وهذا يدل على أن الذى قال له : «تالله إنك لفى ضلالك القديم» بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لاولده؛ فإنهم كانوا غُيَّبا، وكان يكون ذلك زيادة فى العقوق . والله أعلم . وإنما سألوه المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن مالم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما فى نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له؛ فإنه يجب عليه أن يَتحلَّل له ويخبره بالمَظْلِمة[2] وقدرها؛ وهل ينفعه التَّحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لاينفع؛ فإنه لو أخبره بمظلِمة لها قَدْرٌ وبَالٌ ربما لم تَطب نفس المظلوم فى التَّحلُّل منها . والله أعلم . وفى صحيح البخارى وغيره عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كانت له مَظْلِمة لأخيه من عِرْضه أو شىءٌ فليتحلّله منه اليوم قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهمٌ إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مَظلِمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه" قال المهلَّب فقوله صلى الله عليه وسلم : "أُخذ منه بقدر مَظْلِمته" يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارا إليها مبيّنة، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى﴾ قال ابن عباس : أَخَّر دعاءه إلى السَّحَر . وقال المُثنَّى بن الصَّبَّاح عن طاوس قال : سَحَر ليلة الجمعة، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفى دعاء الحفظ — من كتاب الترمذى — عن ابن عباس أنه قال : بينما نحن عند رسول الله

(١) حذق الغلام القرآن : مهر فيه . (٢) مظلمة (بكسر اللام) وحكى فتحها .

صلى الله عليه وسلم إذ جاءه على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقال : — بأبى أنت وأمى — تَفَلَّتَ هذا القرآنُ من صدرى ، فما أجدنى أقدر عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفلا أعلمك كلماتٍ يَنفعُكَ الله بهنّ ويَنفع بهنّ من علّمته ويُثبِّت ما تعلمتَ فى صدرك " قال : أَجَلْ يارسول الله ! فَعلِّمنى ، قال : " إذا كان ليلة الجمعةِ فإن ٱستطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخرِ فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخى يعقوب لبنيه « سوف أستغفر لكم ربى » يقول حتى تأتى ليلة الجمعة " وذكر الحديث . وقال أيوب بن أبى تميمة السَّخْتِيَانى عن سعيد بن جُبير قال : «سوف أستغفر لكم ربى» فى الليالى البيض ، فى الثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب . وعن عامر الشّعبى قال : « سوف أستغفر لكم ربى» أى أسأل يوسف إن عفا عنكم ٱستغفرت لكم ربى ؛ وذكر سُنَيد بن داود قال : حدّثنا هشام قال حدّثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دِثَار عن عمّه قال : كنت آتى المسجد فى السَّحر فأمُرّ بدار ٱبن مسعود فأسمعه يقول : اللهم إنك أمرتنى فأطعت ، ودعوتنى فأجبت ، وهذا سَحَرٌ فاغفرلى ؛ فلقيت ٱبن مسعود فقلت : كلمات أسمعك تقولهن فى السحر؟ فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السَّحَر بقوله : «سوف أستغفر لكم ربى» .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أى قصرًا كان له هناك . ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ قيل : إن يوسف بعث مع البشير مائتى راحلة وجهازا ، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعا ؛ فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه ، أى ضمّ ؛ ويعنى بأبويه أباه وخالته ، وكانت أمّه قد ماتت فى ولادة أخيه بنيامين . وقيل : أحيا الله أمّه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له ، قاله الحسن ؛ وقد تقدّم فى «البقرة» أن الله تعالى أحيا لنبيه عليه السلام أباه وأمه فآمنا به .

قوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ ﴾ قال ٱبن جُرَيج : أى سوف أستغفر لكم ربى إن شاء الله ؛ قال : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره ؛ قال النحاس : يذهب ٱبن جُرَيج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول : « ٱدخلوا مصر إن شاء الله » . وقيل : إنما قال « إن شاء الله » تبرُّكًا وجَزْمًا . « آمنين » من القَحْط ، أو من فرعون ؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازه .

قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾

قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال قَتادة : يريد السَّرير، وقد تقدمت محامله؛ وقد يُعبّر بالعرش عن المُلْك والمَلِك نفسه؛ ومنه قول النابغة الذُّبْيانيّ :

* عُروشٌ تفانَوْا بعد عِزٍّ وأَمْنةٍ *

وقد تقدّم[1].

قوله تعالى : ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» الهاء في «خَرُّوا لَهُ» قيل : إنها تعود على الله تعالى؛ المعنى : وخرّوا شكرا لله سجدا؛ و يوسف كالقِبْلة لتحقيق رؤياه، وروى عن الحسن؛ قال النّقاش : وهـذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى فى أول السورة : «رأيتهم لى ساجدين» . وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف، والصغير للكبير؛ سجد يعقوب وخالته وإخوته ليوسف عليه السلام، فاقشعرّ جلده وقال : «هذا تأويل رؤياى من قبل» وكان بين رؤيا يوسف و بين تأويلها آثنتان وعشرون سنة . وقال سلمان الفارسيّ وعبد الله بن شدّاد : أربعون سـنة ؛ قال عبد الله بن شـدّاد : وذلك آخر ما تبطئ الرؤيا . وقال قَتادة : خمس وثلاثون سنة . وقال السدّى وسعيد بن جُبير وعِكرمة : ست وثلاثون سنة . وقال الحسن وجَسْر آبن فَرْقَد وفُضَيل بن عِيَاض : ثمانون سنة . وقال وهب بن مُنَبِّه : أُلقى يوسف فى الجُبّ وهو آبن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثا وعشرين

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفى التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من امرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة امرأة أيوب . وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة . وقيل : إن يعقوب بقى عند يوسف عشرين سنة ، ثم توفى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثمانى عشرة سنة . وقال بعض المحدّثين : بضعا وأربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال ابن إسحق : ثمانى عشرة سنة ، والله أعلم .

الثانيــة — قال سعيد بن جُبَير عن قَتَادة عن الحسن — فى قوله « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّـدًا » — قال : لم يكن سجودا ، ولكنه سُنَّة كانت فيهم ، يُومِئون برءوسهم إيماء ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثورى والضحاك وغيرهما : كان سجودا كالسجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم . وقيل : كان انحناء كالركوع ، ولم يكن خرورا على الأرض ؛ وهكذا كان سلامهم بالتَّكَفِّى والانحناء ، وقد نسخ الله ذلك كله فى شرعنا ، وجعل الكلام بدلا عن الانحناء . وأجمع المفسِّرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة ؛ قال قَتَادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

قلت : هـذا الانحناء والتَّكَفِّى الذى نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعنـد العجم ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أن أحدهم إذا لم يُقَم له وجَدَ فى نفسه كأنه لا يُؤْبَه به ، وأنه لا قَدْر له ؛ وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثة مستقرة ، لا سيما عنـد التقاء الأمراء والرؤساء ؛ نَكَبوا عن السِّنَن ، وأعرضوا عن السنن . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ! أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : "لا"؛ قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضا؟ قال "لا" . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضا؟ قال "نعم" . خرجه أبو عمر فى « التمهيد » . فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قوموا إلى سيِّدكم وخَيْرِكم " — يعنى سعد بن معاذ — قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعيَّنة ؛ وقد قيل : إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار ؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثِّر ذلك فى نفسه ، فإن أثَّر فيـه وأعجب به ورأى لنفسه حظّا لم يجزْ عَوْنه على ذلك ؛

لقوله صلى الله عليه وسلم : " من سرّه أن يَتمثَّل له الناسُ قياما فليتبوأ مقعده من النار " .
وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرَمَ عليهم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفون من كراهته لذلك .

الثالثة — فإن قيل : فما تقول فى الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بَعُد عنك ، لتعيّن له به وقت السّلام ، فإن كان دانياً فلا ، وقد قيل بالمنع فى القرب والبعد ؛ لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تَشبَّه بغيرنا فليس منا " . وقال : " لا تُسلِّموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكُفّ والنّصارى بالإشارة " . وإذا سَلَّم فإنه لا يَنحنى ، ولا أن يُقبِّل مع السّلام يده ، ولأن الآنحناء على معنى التواضع لا ينبغى إلا لله . وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التى أحدثوها تعظيما منهم لكبرائهم ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لا تقوموا عند رأسى كما تقوم الأعاجم عند رءوس أكاسرتها " فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ؛ فقد صافح النبى صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبى طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : " تصافحوا يذهب الغِلّ " وروى غالب التّمّار عن الشّعْبى أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانو إذا التقوا تَصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تَعانقوا ؛ فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة ؛ وذهب إلى هذا سُحْنون وغيره من أصحابنا ؛ وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذى يدل عليه معنى ما فى الموطأ ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السَّلف والخَلَف . قال ابن العربى : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمرا عاما فى الدّين ، ولا منقولا نقل السلام ؛ ولو كانت منه لاستوى معه .

قلت : قد جاء فى المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها ، والدّأب عليها والمحافظة ، وهو ما رواه البَرَاء بن عازب قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدى فقلت : يارسول الله ! أن كنت لأحسب أن المصافحة للاعاجم ؟ فقال : " نحن أحق بالمصافحة منهم مامن مسلمَين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما " .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الجُبّ آستعمالا للكرم؛ لئلا يُذَكِّر إخوته صنيعهم بعد عفوه بقوله : « لا تثريب عليكم » .

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذِكْرُ الجفا في وقت الصَّفا جفا؛ وهو قول صحيح دَلَّ عليه الكتاب . وقيل : لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله : « ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » وكان في الجُبّ بإرادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان في السجن مع اللصوص والعُصَاة ، وفي الجبّ مع الله تعالى؛ وأيضا فإن المِنّة في النّجاة من السّجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أَمْرٍ هَمَّ به ؛ وأيضا دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيّ » فكان الكَرْب فيه أكثر؛ وقال فيه أيضا : « آذكرني عند ربك » فعوقب فيه .

﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان، وكانوا أهل مواشٍ وبَرِّيّة ؛ وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسَكَنها، وأن الله لم يبعث نبيا من أهل البادية . وقيل : إنه كان خرج إلى بَدَا ، وهو موضع ؛ وإياه عنى جَمِيل بقوله :

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَغْبًا[1] إلى بَدًا * إليّ وأوطاني بلادٌ سِواهُما

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بَدَا القومُ بَدْوًا إذا أَتَوا بَدَا ، كما يقال : غَارُوا غَوْرًا أي أَتَوا الغَوْر ؛ والمعنى : وجاء بكم من مكان بَدَا ؛ ذكره القُشَيْرِيّ ، وحكاه الماوَرْدِيّ عن الضحاك عن آبن عباس . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ بإيقاع الحسد؛ قاله آبن عباس . وقيل : أفسد ما بيني وبين إخوتي؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكرّما منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أي رفيق بعباده . وقال الخَطَّابِيّ : اللطيف هو البَرّ بعباده الذي يَلْطُف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبّب لهم مصالحهم من حيث لا يَحتسبون ؛ كقوله : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء » . وقيل : اللطيف العالِم بدقائق الأمور؛ والمراد هنا الإكرام والرفق . قال قَتادة : لطف بيوسف بإخراجه من السجن، وجاءه بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان . ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشارَف أرض مصر وبلغ ذلك يوسف آستأذن فرعون — وآسمه الريان — أن يأذن له في تَلَقِّي أبيه يعقوب، وأخبره

(١) شغب : موضع بين المدينة والشام . و (بدا) يروى منونا وغير منون .

بقدومه فأذن له ، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه ؛ فخرج يوسف والملك معه فى أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلْقٌ الله أعلم بهم ؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب ، فكان يعقوب يمشى متكئا على يد يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيـل والناس والعساكر فقال : يايهوذا ! هذا فرعون مصر ؟ قال : لا، بل هذا ابنك يوسف؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمُنع[1] من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل؛ فابتدأ يعقوبُ بالسلام فقـال : السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان، وبكى وبكى معه يوسف؛ فبكى يعقوب فرحا، وبكى يوسف لمـا رأى بأبيه من الحزن ؛ قال آبن عباس : فالبكاء أربعة؛ بكاء من الخوف، وبكاء من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاء رياء. ثم قال يعقوب: الحمد لله الذى أقرّ عينى بعد الهموم والأحزان، ودخل مصر فى آثنين وثمانين من أهل بيته؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف ؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام؛ رواه عِكْرِمة عن آبن عباس . وحكى آبن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا مابين رجل وآمرأة ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة وسبعون ألفا . وقال الربيع بن خَيْثَم : دخلوها وهم آثنان وسبعون ألفا ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف . وقال وهب : دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا مابين رجل وآمرأة وصغير، وخرجوا منها مع موسى فِرارا من فرعون؛ وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين ، سـوى الذرية والهَرْمى والزَّمْنى؛ وكانت الذرّية ألف ألف ومائتى ألف سوى المقاتلة . وقال أهل التواريخ : أقام يعقوب بمصر أربعا وعشرين سنة فى أغبط حال ونعمة، ومات بمصر، وأوصى إلى آبنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل ، ثم آنصرف إلى مصر . قال سعيد ابن جُبَير : نقل يعقوب صلى الله عليه وسلم فى تابوت من ساج إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يوم مات عِيصُو، فدفنـا فى قبر واحد؛ فمن ثَمَّ تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، مَنْ فَعَل ذلك منهم ؛ وولد يعقوب وعِيصُو فى بطن واحد ، ودفنا فى قبر واحد ، وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة .

(١) أى منعه يعقوب عليه السـلام لأن القادم يسـلم ؛ قاله العينى فى « عقد الجمان » . وقال الألوسى : ليعلم أن يعقوب أكرم على الله منه .

قوله تعالى : رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال قتادة : لم يتمنّ الموت أحد ؛ نبيّ ولا غيره إلا يوسف عليه السلام ؛ حين تكاملت عليه النِّعم وجُمع له الشمل آشتاق إلى لقاء ربه عزّ وجلّ . وقيل : إن يوسف لم يتمنّ الموت ، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام ؛ أى إذا جاء أَجَلِي توفّنى مسلما ؛ وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : لا يَتمنّى الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاء الله عزّ وجلّ ؛ وثبت فى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يتمنّين أحدُكم الموت لضُرٍّ نزل به فإن كان لابدّ متمنيا فليقل اللهم أَحْيِنى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيرا لى" رواه مسلم . وفيه عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يَتمنّى أحدُكم الموت ولا يَدْعُ[1] به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم آنقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمنَ عُمُرُه إلا خيرا" .

وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تمنّى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل ؟ هذا بعيد ! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا فى شرعه ؛ أَمّا أنه يجوز تمنى الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيّناه فى كتاب «التذكرة» . «ومِن» من قوله : «مِن المُلْكِ» للتبعيض ؛ وكذلك قوله : «وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» لأن مُلْك مصر ما كان كل المُلْك ، وعِلم التّعبير ما كان كلّ العلوم . وقيل : «مِن» للجنس ؛ كقوله : «فآجتنِبوا الرجس مِن الأوثان» . وقيل : للتأكيد . أى آتيتنى الملك وعلمتنى تأويل الأحاديث .

(١) قيل : وجه صحة عطفه على النفى من حيث إنه بمعنى النهى . وقال ابن حجر : فيه إيماء إلى أن الأول نهى على بابه ، ويكون قد جمع بين لغتى حذف حرف العلة وإثباته .

قوله تعـالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب على النعت للنـداء ، وهو ربّ ، وهو نداء مضاف ؛ والتقدير : ياربّ ! ويجوز أن يكون نداء ثانيا . والفاطر الخالق ؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات ، أى خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شىء ، ولا مثال سبق ؛ وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة »(١) مستوفى ؛ عند قوله : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » وزدناه بيانا فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى. ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي ﴾ أى ناصرى ومتولّى أمورى فى الدنيا والآخرة. ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يريد آباءه الثلاثة ؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فتوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر ، ودفن فى النيل فى صندوق من رخام ؛ وذلك أنه لما مات تَشاحّ الناس عليه ؛ كلٌّ يحبّ أن يدفن فى مَحَلَّتهم ، لِما يَرجون من بركته ؛ وآجتمعوا على ذلك حتى هَمُّوا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه فى النّيل من حيث مَفرِق الماء بمصر ، فيمرّ عليه الماء ، ثم يتفرّق فى جميع مصر ، فيكونوا فيه شَرعا ففعلوا ؛ فلما خرج موسى ببنى إسرائيل أخرجه من النّيـل ، ونقل تابوته بعـد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنـوه مع آبائه لدعوته : « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسـبعة أعوام . وعن الحسن قال : أُلقى يوسف فى الجبّ وهو آبن سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جُمع له شمله فعاش بعـد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد إفرائيم ، ومنشا ، ورحمة ، زوجة أيوب ؛ فى قول آبن لَهِيعة . قال الزهرىّ : وولد لإفرائيم — ابن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشـع بن نون ، وهو فتى موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونبأه الله فى زمن موسى عليه السلام ؛ فكان بعده نبيا ، وهو الذى آفتتح أَرِيحاء ، وقتل من كان بها من الجبابرة ، وآستوقفت له الشمس حسب ما تقدّم فى « المائدة »(٢) . وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبـل موسى بن عمران ؛ وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منـه حتى أدركه ، والعالم هو الذى خرق

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ وما بعدها طبعة ثانية .

(٢) راجع جـ ٦ ص ١٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ ؛ وكان ابن عباس ينكر ذلك ؛ والحق الذى قاله ابن عباس ؛ وكذلك فى القرآن . ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون، وكان فيما بينهما شعيب، صلوات الله عليهم أجمعين .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان . قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى، و « نوحيه إليك » خبره؛ أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعنى هو الذى قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب « نوحيه إليك » أى نعلمك بوحى هذا إليك . ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى مع إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ فى إلقاء يوسف فى الجبّ . ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أى بيوسف فى إلقائه فى الجبّ . وقيل : « يمكرون » بيعقوب حين جاءوه بالقميص مُلطَّخا بالدم ؛ أى ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ظنّ أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون ، فلم يؤمنوا ؛ فنزلت الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول : حَرَص يحرِص، مثل : ضَرَبَ يَضرِب . وفى لغة ضعيفة حَرِص يَحرَص مثل حَمِد يحمَد . والحِرْص طلب الشىء باختيار .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ « مِن » صلة ؛ أى ما تسألهم جُعْلا . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى ما هو؛ يعنى القرآن والوحى . ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أى عظة وتذكرة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال الخليل وسيبويه : هي « أيّ » دخل عليها كاف التشبيه وبُنيت معها ، فصار في الكلام معنى كَمْ ، وقد مضى في «آل عمران» القول فيها مستوفى (١) . ومضى القول في آية «السموات والأرض» في «البقرة» (٢) . وقيل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة؛ أي هم غافلون معرضون عن تأملها . وقرأ عِكْرِمة وعمرو بن فائد « وَالْأَرْضُ » رفعا آبتداء ، وخبره « يَمُرُّونَ عَلَيْهَا » . وقرأ السدّي « وَالْأَرْضَ » نصباً بإضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ آبن مسعود « يمشون عليها » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ نزلت في قوم أقرّوا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر والشَّعبي وأكثر المفسرين . وقال عِكْرِمة هو قوله : «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ» ثم يصفونه بغير صفته ويجعلون له أندادا ؛ وعن الحسن أيضا أنهم أهل كتاب معهم شِرْكٌ وإيمان، آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح إيمانهم؛ حكاه ابن الأنباري . وقال ابن عباس : نزلت في تلبية مشركي العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملَك . وعنه أيضا أنهم النصارى . وعنه أيضا أنهم المشبّهة ، آمنوا مجملا وأشركوا

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة ثانية .

مُفَصَّلا . وقيل : نزلت فى المنافقين؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماوردىّ عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هـذا فى الدعاء؛ وذلك أن الكفار ينْسَون ربهم فى الرّخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء؛ بيانه : « وظَنُّوا أَنَّهم أُحِيطَ بِهِم » الآية . وقوله : « وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ » الآية؛ وفى آية أخرى « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » . وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللصّ، ونحو هـذا؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : قد يقع فى هـذا القول والذى قبله كثير من عوامّ المسلمين؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقيل : نزلت هـذه الآية فى قصة الدُّخَان ؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدُّخَان فى سِنِىّ القَحْط قالوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فذلك إيمانهم ، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب ؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » والعود لا يكون إلا بعد ابتداء؛ فيكون معنى « إلا وهم مشركون » أى إلا وهم عائدون، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : مُجَلِّلَة[1] . وقال مجاهد : عذاب يغشاهم؛ نظيره « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وقال قتادة : وقيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصّواعِق والقَوارِع . ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ يعنى القيامة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ نصب على الحال؛ وأصله المصدر . وقال المبرِّد : جاء عن العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم : وَقَع أمرُهم بَغْتَةً وفَجْأَةً؛ قال النحاس : ومعنى « بغتة » إصابة من حيث لم يتوقّع . ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهو توكيد . وقوله «بغتة» قال ابن عباس : تَصيح الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم ومواضعهم، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتى .

(١) مجلّلة : عامّة التغطية .

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ ابتداء وخبر؛ أى قل يا محمد هذه طريقى وسُنّتى ومنهاجى؛ قاله ابن زيد . وقال الرّبيع : دعوتى . مقاتل : دينى ، والمعنى واحد؛ أى الذى أنا عليه وأدعو إليه يؤدّى إلى الجنة. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أى على يقين وحقّ؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا . ﴿أَنَا﴾ توكيد. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف على المضمر. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى قل يا محمد : «وسبحان الله» . ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ هذا ردّ على القائلين : «لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» أى أرسلنا رجالا ليس فيهم امرأة ولا جِنّىّ ولا مَلَك؛ وهذا يردّ ما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن فى النِّساء أربع نبيّات حَوّاء وآسية وأمّ موسى ومريم". وقد تقدم فى «آل عمران» شيء من هذا .[1] «مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ» يريد المدائن؛ ولم يبعث الله نبيّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية قطّ، ولا من النِّساء، ولا من الجنّ . وقال قَتادة : «مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ» أى من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلم وأحلم . وقال العلماء : مِن شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا ؛ وإنما قالوا آدميا تحرّزا؛ من قوله : «يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ» والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذّبة لأنبيائهم فيعتبروا . ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ابتداء وخبره . وزعم الفراء أن الدار هى الآخرة ؛ وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ، كيوم الخميس، و بارحة الأولى؛ قال الشاعر :

ولو أَقْوَتْ عليكَ دِيارُ عَبْسٍ[1] * عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ اليقينِ

أى عِرْفَانا يقينا؛ واحتجّ الكسائىّ بقولهم: صلاة الأولى؛ واحتجّ الأخفش بمسجد الجامع. قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرّف به ؛ والأجود الصلاة الأولى، ومن قال صلاة الأولى فمعناه : عند صلاة الفريضة الأولى؛ و إنما سميت الأولى لأنها أوّل ما صُلّى حين فُرضت الصّلاة، وأول ما أظهر ؛ فلذلك قيل لها أيضا الظُّهْر . والتقدير : ولدار حال الآخرة خير، وهذا قول البصريين؛ والمراد بهذه الدار الجنة ؛ أى هى خير للتقين . وقرئ « وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ » . وقرأ نافع وعاصم و يعقــوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا تَعقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر .

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ تقدّم القراءة فيه ومعناه.[2] ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ وهذه الاية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لايليق بهم . وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، ينبغى الوقوف عليه لئلا يزِلّ الإنسان فيكون فى سواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك يامحمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أممهـم بالعقاب « حتى إذا آستيأس الرســل » أى يئسوا من إيمـان قومهم « وظَنّـوا أَنّهم قَدْ كُذِّبوا » بالتشديد؛ أى أيقنوا أن قومهم كذّبوهم . وقيل المعنى : حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذّبوهم، لَا أَنَّ القوم كذّبوا، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يُكذّبونهم؛ أى خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شكّ؛ فيكون «وظنّوا» على بابه فى هذا التأويل . وقرأ ابن عبــاس وآبن مسعود وأبو عبــد الرحمن السُّلَمىّ وأبو جعفر بن القَعْقَاع والحسن وقَتَــادة وأبو رَجاء العُطَارِدىّ وعاصم وحمــزة والكسائى ويحيى بن وثّاب والأعمش وخَلَف « كُذِبُوا » بالتخفيف؛ أى ظنّ القوم أن الرســل كذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب،

---

(١) وفى رواية : «فإنك لو حللت ديار عبس» .	(٢) راجع ص ٢٤١ من هذا الجزء .

ولم يَصدُقوا . وقيل: المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كَذَبوا فيما وعَدُوا به من نصرهم . وفى رواية عن ابن عباس ؛ ظنّ الرسلُ أن الله أخلف ما وعدهم . وقيـل : لم تصح هذا الرواية ؛ لأنه لا يَظنّ الرسلُ هذا الظنّ ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحقّ النّصر ؛ فكيف قال : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؟ ! قال القُشَـيرى أبو نصر : ولا يبعـد إن صحّت الرواية أن المـراد خطر بقلوب البشر هـذا من غير أن يتحققوه فى نفوسهم ؛ وفى الخبر : " إن الله تعالى تجاوز لأمّتى عما حدّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به " . ويجوز أن يقـال : قربوا من ذلك الظنّ ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أى قربت منه . وذكر الثعلبى والنحاس عن ابن عبـاس قال : كانوا بشرا فضَعُفوا من طول البـلاء ، ونَسُوا وظنُّـوا أنّهُمْ أُخلِفوا ؛ ثم تـلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معـه متى نصر الله » . وقال التِّرمذى الحكيم : وجهه عنـدنا أن الرسل كانت تخاف بعـد ما وعد الله النصر ، لا من تهمة بوعد الله ، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حَدَثا يَنْقُض ذلك الشرط والعهد الذى عهد إليهم ؛ فكانت إذا طالت المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدوى عن ابن عباس : ظنّت الرُّسل أنهـم قد أُخْلِفُوا على ما يلحق البشر ؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحيي الْمَوْتى » الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرأ مجاهـد وحميد — «قَدْ كَذَبوا» بفتح الكاف والذال مُخَفّفا ، على معنى : وظنّ قوم الرسـل أن الرسل قد كَذَبوا ، لما رأوا من تفضّل الله عزّ وجلّ فى تأخير العذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و [لما] أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا . وفى البخارى عن عُرْوة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ : « حتى إذا آستيأس الرسـل » قال قلت : أَكُذِبُوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشـة : كُذِّبوا . قلت : فقد آستيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن؟ قالت : أَجَلْ ! لعمرى ! لقد آستيقنوا بذلك ؛ فقلت لها : « وَظَنُّو أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا » قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل [الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، وآستأخر عنهم النصر حتى إذا آستيأس الرسل[1]]

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

ممن كذّبهم من قومهــم ، وظنّت الرسل أن أتباعهم كذّبوهم جاءهم نصرنا عنــد ذلك .
وفى قوله تعالى : « جاءهم نصرنا » قولان : أحدهما — جاء الرسلَ نصرُ الله ؛ قاله مجاهد .
الثانى — جاء قومَهم عذابُ الله ؛ قاله ٱبن عباس . ﴿ فَنُجِّىَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ قيل : الأنبياء ومن آمن معهم . وروى عن عاصم « فَنُجِّىَ مَنْ نَشَاءُ » بنون واحدة مفتوحة الياء ، و « مَنْ » فى موضع رفع ، ٱسم ما لم يُسَمَّ فاعله ؛ وٱختار أبو عُبيد هــذه القراءة لأنها فى مصحف عثمان وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة . وقرأ ٱبن محيصن « فَنَجَا » فعل ماض ، و « مَنْ » فى موضع رفع لأنه الفاعل ، وعلى قراءة الباقين نصبا على المفعول . ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى الكافرين المشركين .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ ﴾ أى فى قصة يوسف وأبيه و إخوته ، أو فى قصص الأمم ﴿ عِبْرَةٌ ﴾ أى فكرة وتذكرة وعظة . ﴿ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ ﴾ أى العقول . وقال محمد بن إسحق عن الزهرىّ عن محمــد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْمىّ : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا وأربعين ســنة ، وتُوفّى أخوه عِيصُو معــه فى يوم واحد ، وقُبِرا فى قبر واحد ؛ فذلك قوله : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » إلى آخر السورة . ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ أى ما كان القرآن حديثا يفترى ، أو ما كانت هذه القصة حديثا يفترى . ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى ما كان قبله من ٱلتوراة وٱلإنجيل وسائر كتب الله تعالى ؛ وهذا تأويل من زعم أنه القرآن . ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام ، والشرائع والأحكام ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

———

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ســـورة الرعـــد

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنيـة فى قول الكلبى ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة، وهما قوله عزّ وجلّ : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » [إلى آخرهما](١) .

قوله تعالى : الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ تقدم القول فيها . ﴿ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى وهذا القرآن الذى أنزل إليك ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقّ ﴾ لا كما يقول المشركون : إنك تأتى به من تلقاء نفسك، فاعتصم به، وٱعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « والذى » فى موضـع رفع عطفا على « آيات » أو على الابتـداء، و « الحق » خبره ؛ ويجـوز أن يكون موضـعه جرا على تقدير : وآيات الذى أنزل إليك ، وارتفاع «الحقّ» على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره : ذلك الحقّ؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ » يعنى ذلك الحقّ . قال الفرّاء : وإن شئت جعلت « الذى » خفضا نعتا للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أتانا هـذا الكتاب عن أبى حفص والفاروق ؛ ومنـه قول الشاعر :

إلى الملكِ القَــرْمِ وٱبن الهُمَامِ * ولَيْثِ الْكَتِيبَـةِ فِى الْمُزْدَحَـمْ(٢)

يريد : إلى الملك القرم بن الهمام، ليث الكتيبة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) الزيادة من تفسير البحر . (٢) القرم (بفتح القاف) : السيد؛ والكتيبة : الجيش؛ والمزدحم : محل الازدحام .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٢)

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الآية . لمّا بيّن تعالى أن القرآن حق، بيّن أن من أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا فى مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته؛ وقد تقدم هـذا المعنى . وفى قوله : « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » قولان : أحدهما — أنها مرفوعة بغير عمد ترونها؛ قاله قَتَادة وإياس بن معاوية وغيرهما . الثانى — لها عمد، ولكنا لا نراه؛ قال ٱبن عباس : لها عمـد على جبل قاف؛ ويمكن أن يقال على هـذا القول : العمد قدرته التى يُمسك بها ٱلسموات وٱلأرض، وهى غير مرئيـة لنا؛ ذكره الزّجاج . وقال ٱبن عباس أيضا : هى توحيـد المؤمن . أعمـدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . والعَمَد جمع عمود؛ قال النابغة :

وخَيِّسِ الجِنَّ إنِّى قـد أَذِنتُ لَهُمْ * يَبْنُـونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ (١)

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدم الكلام فيه (٢) . ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أى ذلّلهما لمنافع خلقه ومصالح عباده؛ وكل مخلوق مُذلَّل للخالق . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة ٱلتى عندها تُكوّر الشمس، ويُخسَف القمر، وتنكدر النّجوم، وتنتثر الكواكب . وقال ٱبن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها لا يجاوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمّى أن القمر يقطع فلكه فى شهر، والشمس فى سنة . ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أى يصرفه على ما يريد . ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ أى يُبيِّنها؛ أى من قدر على هذه الأشياء يقدر على ٱلإعادة؛ ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

---

(١) ويروى : وخبر الجن . وخيس : ذلل؛ وتدمر : بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام . والصُّفّاح حجارة عراض رقاق . وعمد : جمع عمود .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لما بيّن آيات السموات بين آيات الأرض ؛ أى بسط الأرض طولا وعرضا . ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ﴾ أى جبالا ثوابت ؛ واحدها راسية ، لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت ؛ والإرساء الثبوت ؛ قال عَنْتَرة :

فصَبَرْتُ عَارِفَةً لذلك حُرَّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ (١)

وقال جَميل :

أُحِبُّها والذى أَرْسَى قواعِدَهُ * حُبًّا إذا ظَهَرَت آياتُه بَطَنَا

وقال ٱبن عباس وعطاء : أوّل جبل وضع على الأرض أبو قُبَيس (٢) .

مسـألة — فى هـذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة ، وردّ على من زعم أن الأرض تَهوِى أبوابها عليها ؛ وزعم ابن الرَّاوندى أن تحت الأرض جسما صَعَّادا كالرِّيح الصعَّادة ؛ وهى منحدرة فاعتـدل الهاوى والصعّادى فى الجِرْم والقوة فتوافقا . وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعَد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها ، وأن حركتها إنما تكون فى العادة بزلزلة تصيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى مياها جارية فى الأرض ، فيها منافع الخلق . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة : الزوج واحد ، ويكون ٱثنين . الفراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى ؛ وهـذا خلاف

---

(١) قبل البيت :

وعرفت أن منيتى إن تأتنى * لا ينجنى منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

النّص . وقيــل : معنى « زوجين » نوعان ، كالحُلْو والحامض ، والرطب واليابس ، والأبيض والأســود ، والصغير والكبير . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات وعلامات ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

فيــه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ في الكلام حذف؛ المعنى : وفى الأرض قِطع متجاورات وغير متجاورات؛ كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » والمعنى : وتقيكم البَرْد، ثم حذف لعلم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : « متجاورات » أى قُرًى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد ، وفيهـا زروع وجنات ، ثم تتفاوت فى الثمار والتمر؛ فيكون البعض حُلْوا ، والبعض حامضا ؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصّغر والكِبر واللون والمطعم ، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفى هــذا أدلّ دليل على وحدانيته وعِظم صمديته ، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته ؛ فإنه نبَّه سبحانه بقوله : « تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ » على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ؛ وهــذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لمـا وقع الاختلاف . وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع ؛ فمن تربة عذبة ، ومن تربة سَبِخة مع تجاورهما ؛ وهــذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جل وعز تعالى عمـا يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا .

الثالثـــة — ذهبت الكفرة — لعنهم الله — إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع ؛ وآدّعوا ذلك فى الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقرّوا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض . وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للاعراض فاعلا؛ والدليل على أن الحادث لابدّ له من مُحدِث أنه يَحدُث فى وقت، ويَحدُث ما هو من جنسه فى وقت آخر؛ فلو كان حدوثه فى وقته لاختصاصه به لوجب أن يَحدُث فى وقته كل ماهو من جنسه؛ و إذا بطل اختصاصه بوقته صح أن آختصاصه به لأجل مُخصِّص خَصَّصه به ، لولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه فى وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وآستيفاء هذا فى علم الكلام.

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ قـرأ الحسن « وَجَنَّاتٍ » بكسر التاء، على تقدير: وجعل فيها جنات؛ فهو محمول على قوله : «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ» . ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على « كل » التقدير : ومن كل الثمرات، ومن جنات . الباقون: «جَنَّاتٌ» بالرفع على تقدير : و بينهما جنات. ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ بالرفع. آبن كثير وأبو عمرو وحفص عطفا على الجَنَّات؛ أى على تقدير : وفى الأرض زرع ونخيل. وخفضها الباقون نَسَقا على الأعناب ؛ فيكون الزرع والنخيل من الجَنَّات؛ ويجوز أن يكون معطوفا على « كل » حسب ماتقدّم فى «وجنّات» . وقرأ مجاهد والسُّلَمىّ وغيرهما «صُنْوَانٌ» بضم الصاد ، الباقون بالكسر ؛ وهما لغتان ؛ وهما جمع صِنْوٍ، وهى النَّخَلات والنّخلتان ، يجمعهنّ أصل واحد، وتتشعب منه رءوس فتصير نخيلا ؛ نظيرها قِنْوان، واحدها قِنْو. وروى أبو إسحق عن البَرَاء قال : الصِّنْوان المجتمع ، وغير الصِّنْوان المتفرق ؛ النحاس : وكذلك هو فى اللغة ؛ يقال للنخلة إذا كانت فيهـا نخلة أخرى أو أكثر صِنْوان . والصِّنو المِثل ؛ ومنـه قول النبى صلى الله عليه وسـلم : " عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه " . ولا فرق فيها بين التّثنية والجمع ، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية ؛ قال الشاعر :

العلمُ والحلمُ خَلّتَـا كَرَمٍ * للمرءِ زَينٌ إذا هُمَا آجْتَمَعَا
صِنْوانِ لا يُسْتَتَمُّ حُسنُهمَا * إلّا بجمعِ ذا وذاكَ معَـا

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ كصالح بنى آدم وخبيثهم ، أبوهم واحد ، قاله النحاس والبخارى . وقرأ عاصم وابن عامر « يُسْقَى » بالياء ، أى يُسقى ذلك كله . وقرأ الباقون بالتاء ، لقوله : « جنات » واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة ؛ قال أبو عمرو : والتأنيث أحسن ، لقوله : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ ولم يقل بعضه . وقرأ حمزة والكسائى وغيرهما « ويُفَضِّل » بالياء ردًّا على قوله : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » و « يُفَصِّلُ » و « يُغْشِي » . الباقون بالنون على معنى : ونحن نفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلى رضى الله عنه : " الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة " ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله : « يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » و « الأكل » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض والفارسى والدَّقل[1] . وروى مرفوعا من حديث أبى هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى قوله تعالى : «وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ» قال : "الفارسى والدَّقل والحُلْو والحامض" ذكره الثعلبى . قال الحسن : المراد بهذه الآية المثَل ؛ ضربه الله تعالى لبنى آدم ، أصلهم واحد ، وهم مختلفون فى الخير والشر والإيمان والكفر ، كاختلاف الثمار التى تسقى بماء واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

النـاسُ كالنَّبتِ والنَّبتُ ألوان * منها شجر الصَّندلِ والكافورِ والبان
* ومنها شجر يَنضَحُ طولَ الدّهرِ قطران *

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾

---

(١) الدقل : ردىء التمر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ؛ والله تعالى لا يتعجّب ، ولا يجوز عليه التعجّب ؛ لأنه تغيُّر النفس بما تخفى أسبابه ؛ وإنما ذكر ذلك ليتعجّب منه نبيُّه والمؤمنون . وقيل المعنى : أى إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق ؛ لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ؛ أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغيّر فهو محل التعجّب ؛ ونظم الآية يدل على الأول والثانى ؛ لقوله : ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ أى أنبعث إذا كنا ترابا ؟ ! . ﴿ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقرئ «إنَّا» . و﴿ الأَغْلَالُ ﴾ جمع غُلّ ؛ وهو طَوْق تُشدّ به اليد إلى العُنق ؛ أى يُغلّون يوم القيامة ؛ بدليل قوله : « إِذِ الأغلال فِى أعناقِهِم » إلى قوله : « ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب ؛ قيل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » . قال قَتَادة : طلبوا العقوبة قبل العافية ؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيل : « قبل الحسنة » أى قبل الإيمان الذى يرجى به الأمان والحسنات . و﴿ الْمَثُلَاتُ ﴾ العقوبات ؛ الواحدة مَثُلَة . ورُوى عن الأعمش أنه قرأ « الْمُثْلَات » بضم الميم وإسكان الثاء ؛ وهذا جمع مُثْلَة ، ويجوز

« المَثْلَات » تبدل من الضمة فتحة لثقلها ؛ وقيل : يُؤْتى بالفتحه عِوَضا من الهاء . ورُوِى عن الأعمش أنه قرأ « المَثْلَات » بفتح الميم وإسكان الثاء؛ فهذا جمع مُثْلة ، ثم حَذف الضمة لثقلها؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله . وعلى قراءة الجماعة واحده مَثُلة ، نحو صَدُقه؛ وتميم تضم الثاء والميم جميعا، واحدها على لغتهم مُثْلة ، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثل : غُرْفة وغُرُفات ؛ والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثُلُ مَثْلا، بفتح الميم وسكون الثاء . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أى لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا ، وعن المذنبين إذا تابوا . وقال ابن عباس : أرجى آية فى كتاب الله تعالى « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إذا أصرّوا على الكفر . ورَوى حمّاد بن سَلَمَة عن علىّ بن زيد عن سعيد بن المسيّب قال : لما نزلت «وإن ربك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هَنَأَ أحدا عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتّكل كل أحد " .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا ﴾ أى هَلّا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ أى مُعلِم . ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أى نبىّ يدعوهم إلى الله . وقيل : الهادى الله؛ أى عليك الإنذار، والله هادى كل قوم إن أراد هدايتهم .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ﴾ أى من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدّم فى سورة « الأنعام »[١] أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده

(١) راجع جـ ٧ ص ١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مفاتيح الغيب خمس" الحديث . وفيه "لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله" . واختلف العلماء فى تأويل قوله : ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فقال قتادة : المعنى ما تُسقِط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال ابن عباس . وقال مجاهد : إذا حاضت المرأة فى حملها كان ذلك نقصانا فى ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لما نقص ؛ وعنه : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداد منه . وقيل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : الغيض انقطاع دم الحيض «وما تزداد» بدم النفاس بعد الوضع .

الثانيـة — فى هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعى فى أحد قوليه . وقال عطاء والشعبى وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفه ؛ ودليله الآية . قال ابن عباس فى تأويلها : إنه حيض الحبالى، وكذلك رُوى عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتى النساء الحوامل إذا حِضْن أن يَتْرُكْن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها ، فصار كالإجماع ؛ قاله ابن عباس . قال ابن القصّار : وذُكر أن رجلين تنازعا ولدا، فترافعا إلى عمر رضى الله عنه فعرضه على القَافَة، فألحقه القافة بهما، فعَلاه عمر بالدِّرَّة، وسأل نسوة من قريش فقال : انظُرْن ماشأن هذا الولد؟ فقُلْن : إن الأول خلا بها وخلّاها، فحاضت على الحمل، فظنت أن عِدّتها انقضت؛ فدخل بها الثانى، فانتعش الولد بماء الثانى؛ فقال عمر : الله أكبر! وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لاتحيض، ولا قال ذلك أحد من الصحابة؛ فدل أنه إجماع، والله أعلم . احتجّ المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض، وكان ماتراه المرأة من الدم حيضا لما صح استبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع . وروى عن مالك فى كتاب محمد مايقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثـة — فى هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبدالملك بن مروان ولد لستة أشهر .

الرابعــة — وهذه الستة الأشهر هي بالأهلّة كسائر أشهر الشّريعــة؛ ولذلك قد روى في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنــه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطيه .

الخامســـة — وآختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جُرَيج عن جَميلة بنت سعد عن عائشــة قالت : لا يكون الحمــل أكثر من سنتين قدر ما يتحوّل ظِلّ المِغْــزَل ؛ ذكره الدّارَقُطْني . وقالت جميلة بنت سعد — أخت عبيد بن سعد وعن الليث بن سعد — : إن أكثره ثلاث سنين . وعن الشافعي أربع سنين؛ وروى عن مالك في إحدى روايتيه، والمشهور عنه خمس سنين؛ وروى عنــه لا حدّ له، ولو زاد على العشرة الأعوام؛ وهي الرواية الثالثة عنه . وعن الزهري ست وسبع . قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع؛ والشافعي : مُدّة الغاية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : سنتان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر . وداود يقول : تسعة أشهر، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر : وهذه مسئلة لا أصل لهـا إلا الاجتهاد، والرّد إلى ماعُرِف من أمر النساء، وبالله التوفيق . رَوى الدّارَقُطْنيّ عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمـالك بن أنس إني حدّثت عن عائشة أنها قالت : لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قَدْر ظِلّ المِغْزَل، فقال : سبحان الله ! مَن يقول هذا؟ ! هذه جارتنا آمرأة محمد بن عَجْلان، تحمل وتضع في أربع سنين، آمرأة صدق، وزوجها رجل صدق؛ حملت ثلاثة أبطن في آثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره المبارك ابن مجاهد قال : مشهور عنــدنا كانت آمرأة محمد بن عَجْلان تحمــل وتضع في أربع سنين، وكانت تسمى حاملة الفيــل . وروى أيضا قال : بينما مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقــال : يا أبا يحيى ! آدع لآمرأة حبلى منــذ أربع سنين قــد أصبحت في كرب شــديد ؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القــوم إلا أنّا أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هــذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنهـا الساعة ، وإن كان في بطنها جارية فأبدلهـا غلاما ، فإنك تَمْحُو ما تشاء وتُثْبِت ، وعندك

أمّ الكتّاب ، ورفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال : أدرك امرأتك ، فذهب الرجل؛ فما حطّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْد قَطَطٌ[1]، ابن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ماقُطِعت سراره[2]؛ ورُوى أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إنى غبت عن امرأتى سنتين فجئت وهى حبلى؛ فشاور عمر الناس فى رجمها، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما فى بطنها سبيل؛ فاتركها حتى تضع، فتركها، فوضعت غلاما قد خرجت ثنيتاه ؛ فعرف الرجل الشبه فقال : ابنى ورب الكعبة ! ؛ فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ؛ لولا معاذ لهلك عمر . وقال الضحاك : وضعتنى أمّى وقد حملت بى فى بطنها سنتين ، فولدتنى وقد خرجت سِنّى . ويذكر عن مالك أنه حمل به فى بطن أُمه سنتان، وقيل : ثلاث سنين . ويقال إن محمد بن عجلان مكث فى بطن أُمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه . وقال حمّاد ابن سلمة : إنما سمى هَرِم بن حِبان هَرِما لأنه بقى فى بطن أُمه أربع سنين . وذكر الغَزْنَوى أن الضحّاك وُلد لسنتين ، وقد طلعت سِنّه فسُمّى ضحّاكا . عباد بن العوّام : ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه، فمرّ به طير فقال : كش .

السادسـة — قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد؛ لأن علم ذلك استأثر الله به، فلا يجوز أن يحكم فى شىء منه إلا بقَدْرِ ما أظهره لنا، ووُجِد ظاهرا فى النساء نادرا أو معتادا؛ ولمّا وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك ، والنفاس والحيض لمّا لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعنا فيه إلى ما يوجد فى النادر منهنّ .

السابعـة — قال ابن العربى : نقل بعض المتساهلين عن المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر؛ وهذا ما لم ينطق به قطّ إلا هالكىّ ، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبّر الحمل

---

(١) جعد قطط : شديد الجعودة . (٢) سرر الصبي : ما تقطعه القابلة .

فى الرَّحِم الكواكب السبعة؛ تأخذه شهرا شهرا، ويكون الشهر الرابع منها للشمس؛ ولذلك يتحرك ويضطرب، وإذا تكامل التداول فى السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد فى الشهر الثامن إلى زُحَل، فيُبْقِله بِبَرْده؛ فياليتنى تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم ! ما بال المرجع بعد تمام الدّور يكون إلى زُحَل دون غيره ؟ آلله أخبركم بهذا أم على الله تفترون ؟ ! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لايجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة ! .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يعنى من النّقصان والزّيادة . ويقال: « بمقدار » قَدْر خروج الولد من بطن أمّه، وقَدْر مكثه فى بطنها إلى خروجه . وقال قَتَادة: فى الرزق والأجل . والمقدار القَدْر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم .

قلت : هذه الآية تمدّح الله سبحانه وتعالى بها بأنه عالم الغيب والشهادة؛ أى هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهدوه . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبَّه سبحانه على انفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذى يخفى على الخلق، فلايجوز أن يشاركه فى ذلك أحد؛ فأما أهل الطبّ الذين يستدلّون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تُرِكوا وماهم عليه، ولم يَقدَح ذلك فى الممدوح؛ فإن العادة يجوز انكسارها، والعلم لا يجوز تبدّله . و ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذى كل شىء دونه . ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ عما يقول المشركون، المستعلى على كل شىء بقدرته وقَهْره؛ وقد ذكرناهما فى شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله .

قوله تعالى : سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ إسرار القول : ما حدّث به المرءُ نفسه، والجهر ماحدَّث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر . و« منكم » يحتمل أن يكون وصفا لـ«سواء» التقدير : سِرُّ من أَسَرَّ وجَهْرُ من جَهَر سواء منكم؛ ويجوز أن يتعلق « بسواء » على معنى : يستوى منكم، كقولك : مررت بزيد . ويجوز أن يكون على تقدير : سِر من أَسَرّ منكم وجَهْر من جَهَر منكم . ويجوز أن يكون التقدير . ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، كما تقول عدل زيد وعمرو أى ذوا عدلٍ . وقيل : «سواء» أى مستوٍ، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف . ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أى يستوى فى علم الله السرّ والجهر، والظاهر فى الطرقات، والمستخفى فى الظلمات . وقال الأخفش وقُطْرُب المستخفى بالليل الظاهر؛ ومنه خَفَيتُ الشيء وأَخْفَيته أى أظهرتُه؛ وأخفيت الشيء أى آستخرجته؛ ومنه قيل للنَّبَّاش المختفى . وقال آمرؤ القيس :

خَفَاهُنَّ مِن أَنْفَاقِهِنَّ[1] كَأَنَّمَا * خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

والسّارب المتوارى، أى الداخل سَرَبا؛ ومنه قولهم : آنْسَرَب الوحشىُّ إذا دخل فى كِنَاسه . وقال ابن عباس : « مستخف » مستتر، « وسارب » ظاهر . مجاهد : « مستخف » بالمعاصى، « وسارب » ظاهر . وقيل : معنى « سارب » ذاهب؛ الكسائى : سَرَب يَسْرُب سَرَبًا وسُرُوبًا إذا ذهب؛ وقال الشاعر[2] :

وكُلُّ أُنَاسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ * وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ

أى ذاهب . وقال أبو رجاء : السّارب الذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشاعر[3] :

* أَنَّى سَرَبْتِ وكُنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقال القُتَبىّ : « سارب بالنهار » أى منصرف فى حوائجه بسرعة؛ من قولهم : آنْسَرَب الماء . وقال الأصمعىّ : خَلِّ سِرْبَه أى طريقه .

---

(١) أنفاق (جمع نفق) : وهو سرب فى الأرض إلى موضع آخر، واستعاره امرؤ القيس لجحرة الفترة والودق : المطر . وغيث مجاب : مصوّت، و يروى محلب (بالحاء) . (٢) هو الأخنس بن شهاب التغلبى و يريد أن الناس أقاموا فى موضع واحد لا يجترئون على النقلة، وحبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفا أن يغار عليها، ونحن أعزاء خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء . (٣) هو قيس بن الخطيم، وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

قوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (١١)

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ أى لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صَعِدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . وقال : « مُعَقِّبَاتٌ » والملائكة ذُكْران لأنه جمع مُعَقِّبة ؛ يقال : مَلَك مُعَقِّب ، وملائكة مُعَقِّبة ، ثم مُعَقِّبات جمع الجمع . وقرأ بعضهم — « لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ومِن خَلْفِهِ » . ومعاقيب جمع مُعْقِب[1] ؛ وقيل للملائكة معقّبة على لفظ الملائكة . وقيل : أنّث لكثرة ذلك منهم ؛ نحو نسّابة وعلّامة وراوية ؛ قاله الجوهرى وغيره . والتّعقب العود بعد البدء ؛ قال الله تعالى : « وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع ؛ وفى الحديث[2] : "مُعَقِّباتٌ لا يَخيبُ قائلُهنّ — أو — فاعلُهنّ" فذكر التّسبيح والتّحميد والتّكبير . قال أبو الهيثم : سُمّين « مُعَقِّبات » لأنهن عادت مرّة بعد مرّة ، فِعْل من عَمِل عملًا ثم عاد إليه فقد عقَّب . والمعقّبات من الإبل اللواتى يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض ؛ فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى . وقوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى المستخفى بالليل والسارب بالنهار . ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ اختلف فى الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوامّ والأشياء المضرّة ، لطفا منه به ، فإذا جاء القَدَر خلّوا بينه و بينه ؛ قاله ابن عباس وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما . قال أبو مِجْلَز : جاء رجل من مُراد[3] إلى علىّ فقال : احترس فإن ناسا من مُراد يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل

---

(١) قال الزمخشرى : جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيهما ، والياء عوض من حذف إحدى القافين فى التكسير . وقال ابن جنى : إنه تكسير معقب كمطعم ومطاعيم ، كأنه جمع على معاقبة ، ثم حذفت الهاء من الجمع وعوضت الياء عنها ؛ قال الألوسى : ولعله الأظهر . « روح المعانى » .

(٢) الحديث فى الدعاء وهو بتمامه فى « صحيح مسلم » : "معقبات لا يخيب قائلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة" . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها تقال عقب كل صلاة .

(٣) مراد (بالضم وآخره دال مهملة) : قبيلة من قبائل العرب سميت باسم أبيها .

رجل مَلَكين يحفظانه مالم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَر خَلَّيا بينه و بين قَدَر الله، و إن الأجل حِصن حصينة؛ وعلى هـذا « يحفظونه من أمر الله » أى بأمر الله وبإذنه؛ فـ « مِن » بمعنى الباء؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض . وقيل : « مِنْ » بمعنى « عن » ؛ أى يحفظونه عن أمر الله ، وهذا قريب من الأوّل؛ أى حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم ؛ وهذا قول الحسن ؛ تقول : كسوته عن عُرْى ومن عُرْى ؛ ومنـه قوله عز وجل : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ » أى عن جوع . وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب،حتى لا تحلّ به عقوبة؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من النّعمة والعافية حتى يُغيّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر؛ فإذا أَصرُّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النّقمة ، وتزول عنهم الحَفَظة المعقِّبات . وقيل : يحفظونه من الجنّ؛ قال كعب : لولا أن الله وَكَّل بكم ملائكة يَذبُّون عنكم فى مَطْعَمكم ومَشْربكم وعوراتكم لَتخطَّفتكم الجنّ وملائكة العـذاب من أمر الله ؛ وخصّهم بأن قال : « من أمرِ الله » لأنهـم غير معايَنين ؛ كما قال : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » أى ليس ممـا تشاهدونه أنتم . وقال الفرّاء فى الكلام تقديم وتأخير، تقديره : له معقِّبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفـه يحفظونه ؛ وهو مروىّ عن مجاهـد وآبن جُرَيج والنَّخَعىّ ؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجنّ من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير. وقال آبن جُرَيج : إن المعنى يحفظون عليه عمله ،فحذف المضاف . وقال قَتَادة : يكتبون أقواله وأفعاله . ويجوز إذا كانت المعقّبات الملائكة أن تكون الهاء فى « له » لله عزّ وجل ، كما ذكرنا؛ ويجوز أن تكون للمستخفى، فهذا قول . وقيل : « له معقّبات من بين يديه ومن خلفه » يعنى به النبى صلى الله عليه وسلم؛أى أن الملائكة تحفظه من أعدائه؛ وقد جرى ذكر الرسول فى قوله : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به فى أنه لا يضرّ النبى صلى الله عليه وسلم،بل له معقّبات يحفظونه عليه السلام؛ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال : « ولكل قوم هاد » أى يحفظون الهـادى من بين يديه ومن خلفه . وقول رابع ــ أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعِكْرِمة ؛ وكذلك قال الضّحاك : هو السّلطان المتحرّس من أمر الله المشرِك . وقد قيل : إن فى الكلام على هذا التأويل نفيا محذوفا، تقـديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره المـاوردىّ . قال المهدوىّ : ومن جعل المعقّبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمـه . وقيل : سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصى، و يحفظونه من أن ينجع فيه وعظ ؛ قال القُشَيرِىّ : وهذا لا يمنع الربّ من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب؛ وهو إذا غيّر هـذا العاصى ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سـببا للعقوبة؛ فكأنه الذى يحلّ العقوبة بنفسه؛ فقوله : «يحفظونه من أمر الله» أى من امتثال أمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد: المعقّبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه فى عباده؛ قال المـاوردىّ : ومن قال بهذا القول ففى تأويل قوله « يحفظونه من أمر الله » وجهان : أحدهمـا — يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل؛ قاله الضحاك . الثـانى — يحفظونه من الجنّ والهوامّ المؤذية، ما لم يأت قَدَر؛ — قاله أبو أُمامة وكعب الأحبار — فإذا جاء المقدور خلّوا عنه؛ والصحيح أن المعقّبات الملائكة، وبه قال الحسن ومجاهـد وقَتادة وآبن جُرَيج ؛ وروى عن ابن عباس، واختاره النحاس،وآحتجّ بقول النبى صلى الله عليه وسلم : ” يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار “ الحديث، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عَمرو عن ابن عباس قرأ — «معقّبات من بين يديه ورقباء من خلفه [من أمر الله][1] يحفظونه» فهذا قد بيّن المعنى . وقال كِنانة العَدَوىّ : دخل عثمان رضى الله تعالى عنه على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! أخبرنى عن العبد كم معه من مَلَك ؟ قال : ” مَلَك عن يمينك يكتب الحسـنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذى على اليمين أمير على الذى على الشمال فإذا عَمِلت حسـنة كُتبت عشرا و إذا عَمِلت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين أأكتب قال لا لعـله يستغفر الله تعـالى و يتوب فإذا قال ثلاثا قال نعم آكتب أراحنا الله تعالى منه

(١) الزيادة من تفسير الطبرى .

فبئس القـرين هو ما أقلّ مراقبتـه لله عز وجل وأقل آستحياءه منا يقـول الله تعـالى « ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وملَكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » [وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعتَ لله رفعـك و إذا تجبّرتَ على الله قصَمَكَ][1] وملَكان على شفتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملَك قائم على فِيك لا يدع أن تدخل الحية فى فِيك وملَكان على عينيك فهـؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى يتـداولون ملائكة الليل على ملائكة النهـار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى و إبليس مع آبن آدم بالنهار وولده بالليل " . ذكره الثعلبي . قال الحسن : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صـلاة الفجر . وآختار الطّـبرى أن المعقّبات المواكب بين أيدى الأمراء وخَلْفهم؛ والهاء فى « له » لهنّ؛ على ما تقدّم . وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين : أحدهما — قضى حلوله ووقوعه بصاحبه؛ فذلك لا يدفعـه أحد ولا يغيره . والآخر — قضى مجيئـه ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفـظ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهـم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرّماة بأنفسهم، إلى غير هـذا من أمثلة الشّريعة؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال صلى الله عليه وسـلم — وقد سُئل أَنَهلِك وفينا الصّالحون ؟ قال — : " نعم إذا كَثُر الخُبْثُ[2] " . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ﴾ أى هلاكا وعذابا ﴿ فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ . وقيل : إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه . وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى

(١) الزيادة من تفسير الطبرى وغيره . (٢) المراد بالخبث الفسق والفجور .

أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفّه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أى ملجأ؛ وهو معنى قول السُّدىّ . وقيل : من ناصر يمنعهم من عذابه؛ وقال الشاعر :

* ما فى السماء سوى الرحمن من وال *

ووالٍ وولىّ كقادر وقدير .

قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أى بالمطر. «والسّحاب» جمع، والواحدة سَحَابة، وسُحُب وسَحَائب فى الجمع أيضا . ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ قد مضى فى « البقرة »(١) القول فى الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز؛ أى يريكم البرق فى السماء خوفا للمسافر، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق؛ قال الله تعالى : « أَذًى مِنْ مَطَرٍ » وطمعا للحاضر أن يكون عقبه مطر وخِصْب؛ قال معناه قَتَادة ومجاهد وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق، وطمعا فى غيثه المزيل للقحط . ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ قال مجاهد : أى بالماء . «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ» من قال إن الرّعد صوت السّحاب فيجوز أن يُسبّح الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرّعد ملَكا لدخل فى جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى « من خيفته » من خيفة الله؛ قاله الطَّبرىّ وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

خائفـون من الله ليس كخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال: الرّعد مَلَك يَسوق السّحاب، و إن بخار الماء لفى نُقْرة إبهامه، وأنه مُوَكّل بالسّحاب يصرفه حيث يؤمر، وأنه يسبّح الله؛ فإذا سبّح الرّعد لم يبق مَلَك فى السّماء إلا رفع صوته بالتّسبيح، فعندها ينزل القَطْر؛ وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الرّعد قال: سبحان الذى سَبَّحتَ له . وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الرّعد قال: سبحان الذى يُسبِّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول: إن هـذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل: إنه مَلَك جالس على كرسىّ بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سَبّح الجميع من خوف الله، و إذا أقبل على يساره وسَـبّح سَـبّح الجميع من خوف الله .

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر الماوردىّ عن ابن عباس وعلىّ بن أبى طالب ومجاهد: نزلت فى يهودىّ قال للنبىّ صلى الله عليه وسـلم: أخبرنى! مِن أىّ شىء ربّك، أمِن لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقته . وقيل: نزلت فى بعض كفّار العرب؛ قال الحسن: كان رجل من طواغيت العرب بعث النبى صلى الله عليه وسلم نَفَرا يدعونه إلى الله و رسوله والإسلام فقال لهم: أخبرونى عن ربّ محمد ما هو، ومِمّ هو، أمِن فضة أم من حديد أم نُحاس؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال: أُجيبُ محمـدا إلى ربّ لا يعرفه! فبعث النبى صلى الله عليـه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هـذا؛ فبينا النَّفَر ينازعونه و يدعونه إذ ٱرتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صـلى الله عليـه وسلم؟ فقالوا: ٱحترق صاحبـكم، فقالوا: من أين علمتم؟ قالوا: أوحى الله إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» ذكره الثعلبى عن الحسن، والقُشيرىّ بمعناه عن أنس، وسـيأتى . وقيل: نزلت الآية فى أربد بن ربيعة أخى لَبيد بن ربيعة، وفى عامر بن الطُّفَيْل؛ قال ابن عباس: أقبـل عامر بن الطُّفَيْل وأَرْبَد بن ربيعة

العامريان يريدان النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد جالس فى نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجمل الناس؛ فقال رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله عامر بن الطُّفَيْل قد أقبل نحوك؛ فقال : "دَعْه فإن يُرِد الله به خيرا يَهْدِه" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا محمد مالى إن أسلمت؟ فقال : "لك ما للسلمين وعليك ما على المسلمين" . قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟ قال : "ليس ذاك إلىّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء" . قال : أفتجعلنى على الوَبَر وأنت على المَدَر ؟ قال : "لا" . قال : فما تجعل لى ؟ قال : "أجعل لك أَعِنة الخيل تغزو عليها فى سبيل الله" . قال : أو ليس لى أعنّة الخيل اليوم ؟ قم معى أكلمك ؛ فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر اومأ إلى أَرْبَد : إذا رأيتنى أكلمه فدُرْ من خلفه وآضربه بالسيف ؛ فجعل يخاصم النبى صلى الله عليه وسلم ويراجعه ؛ فاخترط أَرْبَد من سيفه شبرا ثم حبسه الله ، فلم يقدر على سَلّه ، وَيبست يده على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقة فى يوم صائفٍ صاحٍ فأحرقته، وولّى عامر هاربا وقال : يا محمد ! دعوت ربك على أربد حتى قتله ، والله لأملأنها عليك خيلا جُرْدا، وفتيانا مُرْدا؛ فقال عليه السلام: "يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة" يعنى الأَوْس والخَزْرَج؛ فنزل عامر بيت آمرأة سَلُولية؛ وأصبح وهو يقول : والله لئن أَصْحَر[(1)] لى محمدٌ وصاحبه — يريد مَلَك الموت — لأنفذنهما برمحى ؛ فأرسل الله مَلَكا فلطمه بجناحه فأذراه[(2)] فى التراب ؛ وخرجت على ركبته غُدَّة عظيمة فى الوقت ؛ فعاد إلى بيت السّلولية وهو يقول : غُدّة كغدة البعير، وموت فى بيت سَلُولية؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره . ورَثَى لَبِيد بن ربيعة أخاه أَرْبَد فقال :

يا عينُ هلّا بَكَيتِ أَرْبَدَ إذْ قُمْـ * ـنَا وقَامَ الخُصُـوم فى كَبَـد[(3)]
أَخْشَى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ وَلَا * أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ وَالأَسَـد
فَجَّعَنِي الرّعْدُ والصَّـوَّاعِقُ بالفا * رِسِ يَـوْمَ الكَرِيهَـة النَّجِد[(4)]

---

(١) أصحر الرجل : إذا خرج إلى الصحراء .
(٢) أذراه : قلعه ورمى به .
(٣) كبد : شـدّة وعناء .
(٤) النجد : السريع الإجابة .

وفيـه قال :

إنّ الرَّزِيَّةَ لا رزيَّةَ مِثْلُهَا * فِقْدَانُ كلِّ أخٍ كضوءِ الْكَوْكَبِ

يا أَرْبَدَ الخيرِ الكريمَ جُدُودُهُ * أفردتَني أَمْشِي بقَرْنٍ أَعْضَبِ [(١)]

وأسلم لبيد بعد ذلك رضى الله عنه .

مسئلة — روى أَبَان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تأخذ الصاعقة ذاكرًا لله عزّ وجلّ" . وقال أبو هُريرة رضى الله عنه : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرّعد يقول : "سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خِيفته وهو على كل شىء قدير فإن أصابته صاعقة فعلىّ ديته" . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علىّ عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كنّا مع عمر فى سفر فأصابنا رعد وبَرْد، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خِيفته ثلاثا عوفى مما يكون فى ذلك الرعد؛ ففعلنا فعوفينا؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا بَرَدَة [(٢)] قد أصابت أنفه فأثّرت به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : بَرَدَة أصابت أنفى فأثّرت ، فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عُوفى مما يكون فى ذلك الرعد؛ فقلنا فعوفينا؛ فقال عمر : أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة» [(٣)] .

قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعنى جدال اليهودىّ حين سأل عن الله تعالى : من أىّ شىء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جُرَيج : جدال أَرْبَد فيما هَمّ به من قتل النبى صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون «وهم يجادلون فى الله» حالا ، ويجوز أن يكون منقطعا . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عزّ وجل ، فقال لرسول الله : أخبرنى عن إلهك هـذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس ؟

---

(١) قرن أعضب : مكسور . (٢) البرد (بالتحريك) : حب الغمام .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

فاستعظم ذلك، فرجع إليه فأعلمه، فقال: "ارجع إليه فادعه" فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وهم يجادلون فى الله» . ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن الأعرابى : «المحال» المكر، والمكر من الله عزّ وجلّ التدبير بالحق. النحاس : المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدى عن أبى زيد «وهو شديد المحال» أى النقمة . وقال الأزهرى : «المحال» أى القوة والشدة . والمَحْل : الشدة، الميم أصلية، وماحَلْتُ فلانا مِحَالًا أى قاويته حتى يتبين أينا أشدّ . وقال أبو عبيد : «المحال» العقوبة والمكروه . وقال ابن عَرَفة : «المحال» الجدال؛ يقال : ماحَل عن أمره أى جادل . وقال القُتَبِى : أى شديد الكيد؛ وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت . وقال الأزهرى : غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هى أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوّله ميم مكسورة فهى أصلية؛ مثل: مِهاد ومِلاك ومِراس، وغير ذلك من الحروف . ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجىء بإظهار الواو مثل : مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر، وغيرها من الحروف؛ وقال[(1)] : وقرأ الأعرج – «وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالَ» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الهَرَوى، إلا ما ذكرناه أولا عن ابن الأعرابى؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهى ثمانية : أولها – شديد العداوة، قاله ابن عباس . وثانيها – شديد الحَوْل، قاله ابن عباس أيضا . وثالثها – شديد الأخذ، قاله علىّ بن أبى طالب . ورابعها – شديد الحقد، قاله ابن عباس . وخامسها – شديد القوة، قاله مجاهد . وسادسها – شديد الغضب، قاله وهب بن مُنَبِّه . وسابعها – شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضا . وثامنها – شديد الحيلة؛ قاله قَتَادة . وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المِحال والمماحلة المماكرة والمغالبة؛ وأنشد للأعشى :

فرع نَبْعٍ يهتزّ فى غُصُنِ المَجْـ ‍ ‍ * ‍ ‍ ـدِ كثير النَّدَى شديد المحال

---

(1) أى الأزهرى كما فى اللسان مادة «محل» .

وقال آخـر[1] :

وَلَبْسٍ بَيْنَ أقوامٍ فكُلٌّ * أَعَدَّ له الشَّغَازِبَ والمِحَالَا

وقال عبد المطلب :

لاهُـمَّ إنّ المَـرْءَ يمْـ * ـنَع رَحْلَه فَامْنَعْ حِلَالَك[2]

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُـم ومِحَا * لُهُـمْ عَـدْوًا مِحَالَك

قوله تعالى : لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ (١٤)

قوله تعالى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ أى لله دعوة الصدق . قال ابن عباس وقَتَادة وغيرهما : لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص فى الدعاء هو دعوة الحق ؛ قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » ؛ قال المَاوَرْدِىّ : وهو أشبه بسياق الآية ؛ لأنه قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأصنام والأوثان . ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ﴾ أى لا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء . ﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلا ليأسهم من الإجابة لدعائهم ؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مَثَلا بالقابض الماء باليد ؛ قال :

فأصبحتُ فيما كان بينى وبينها * من الودّ مثلَ القابضِ الماءَ باليدِ

---

(١) هو ذو الرمة ، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبى بردة بن أبى موسى . واللبس : الاختلاط . والشغازب قال الأصمعى : الشغزبية ضرب من الحيلة فى الصراع ، وهو أن يُدخل الرجل بين رجلى صاحبه فيصرعه ؛ والمعنى : فكل رجل من القوم أعد له حجة وكيدا .

(٢) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون ؛ يريد بهم سكان الحرم .

وفى معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها — أن الذى يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذى يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا ، لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء ببالغ إليه ؛ قاله مجاهد . الثانى — أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى الماء وقد بسط كفّه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه ، وفساد توهمه ؛ قاله ابن عباس . الثالث — أنه كباسط كفّيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجد فى كفه شىء منه .
وزعم الفراء أن المراد بالماء هاهنا البئر ؛ لأنها معدن للماء ، وأن المثل كمن مدّ يده إلى البئر بغير رِشاء ؛ وشاهده قول الشاعر :

فإنّ الماءَ ماءُ أَبِي وجَدِّى * وبِئْرِى ذُو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

قال على رضى الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا الماء يرتفع إليه ؛ ومعنى « إلا كباسط » إلا كاستجابة باسط كفيه « إلى الماء » فالمصدر مضاف إلى الباسط ، ثم حذف المضاف ؛ وفاعل المصدر المضاف مراد فى المعنى وهو الماء ؛ والمعنى : إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء ؛ واللام فى قوله : «ليبلغ فاه» متعلقة بالبسط ؛ وقوله : « وما هو ببالغه» كناية عن الماء ؛ أى وما الماء ببالغ فاه . ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم ؛ أى ما الفم ببالغ الماء . ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أى ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال ، لأنها شرك . وقيل : إلا فى ضلال أى يضلّ عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منه سبيلا ؛ كما قال : « أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » . وقال ابن عباس : أى أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا ، والكافر يسجد كَرها بالسيف . وعن قتادة أيضا يسجد الكافر كارها حين لا ينفعه الإيمان . وقال الزجاج : سجود الكافر كَرها ما فيه من الخضوع وأثر الصّنعة .

وقال ابن زيد : «طوعا» من دخل فى الإسلام رغبة،و «كَرها» من دخل فيه رهبة بالسيف.
وقيل : « طوعا » من طالت مدة إسـلامه فألف السجود، و « كَرها » من يكره نفسه لله
تعالى؛ فالآية فى المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى « والأرض » وبعض من فى الأرض . قال
القُشَيْرىّ : وفى الآية مسلكان : أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد
طوعا، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمنافقين؛ فالآية محمولة على هؤلاء؛ ذكره
الفراء . وقيل على هذا القول : الآية فى المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود،
ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقّة، ولكنهم يتحملون المشقّة إخلاصا وإيمانا،
إلى أن يألفوا الحق ويَمْرُنوا عليه. والمسلك الثانى — وهو الصحيح — إجراء الآية على التعميم؛
وعلى هذا طريقان : أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذ
به . والثانى — وهو الحق — أن المؤمن يسجد ببدنه طوعا، وكل مخلوق من المؤمن والكافر
يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهـذا كقوله : « وَإِنْ مِنْ
شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة . ﴿ وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾
أى ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنهـا تبين فى هذين الوقتين، وتميل من
ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريف الله إياها على مايشاء؛ وهو كقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى
مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» قاله ابن عباس
وغيره . وقال مجاهد : ظِلّ المؤمن يسجد طوعا وهو طائع ، وظلّ الكافر يسجد كَرها وهو
كاره . وقال ابن الأنبارىّ : يجعـل للظلال عقول تسـجد بها وتخشع بها، كما جعل للجبال
أفهام حتى خاطبت وخوطبت . قال القُشَيرى : فى هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن
يكون له عقل بشرط تقدير الحيـاة ، وأما الظلال فآثار وأعراض ، ولا يتصور تقدير الحياة
لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال : سجدت النخلة
أى مالت . و«الآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو مابين العصر إلى الغروب،
ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلىّ :

لَعمرِى لَأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهلَهُ * وأَقعـدُ فى أَفْيائه بالأَصَائِل

و « ظِلَالُهُمْ » يجوز أن يكون معطوفا على « مَنْ » ويجوز أن يكون آرتفع بالآبتـداء والخبر محذوف؛ التقدير : وظلالهم سُجَـدٌ بالغدو والاصال . « والغدوّ » يجوز أن يكون مصـدرا، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوّى كونه جمعا مقابلة الجمع الذى هو الآصال به .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ ﴾ أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للشركين : « قل من رب السمواتِ والأرض » ثم أمره أن يقول : هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا مَن هو . ﴿ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ هذا يدّل على آعترافهم بأن الله هو الخالق [و إلا] لم يكن للاحتجاج بقوله : «قل أفتخذتم مِن دونه أولياء » معنى؛ دليله قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أى فإذا آعترفتم فلم تعبدون غيره؟ ! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرّ؛ وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهم مثـلا فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ فكذلك لا يستوى المؤمن الذى يبصر الحق، والمشرك الذى لا يبصر الحق . وقيل : الأعمى مَثَلٌ لمـا عبدوه من دون الله، والبصير مَثَلُ الله تعالى : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَٱلنُّورُ ﴾ أى الشرك والإيمـان . وقرأ آبن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائى «يستوى» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيق . الباقون بالتاء؛ واختاره أبو عبيد، قال : لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل . و « الظلمات والنور» مثـل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك . ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا من تمام الآحتجاج؛ أى خَلَق غير الله مثل

خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم . ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى قل لهم يا محمـد : الله خالق كل شيء ، فلزم لذلك أن يعبـده كل شيء . والآية ردّ على المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ قبل كل شيء . ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب لكل شيء ، الذى يغلب فى مراده كل مريد . قال القُشَيرى أبو نصر : ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع ؛ أى سَلْهم عن خالق السموات والأرض ، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن عَجْز الجماد وعَجْز كل مخلوق عن السموات والأرض معلوم ؛ وإذا تقرّر هذا وبَانَ أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبيّن فى أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لا شتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟ ! .

قوله تعالى : أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ ضرب مثلا للحق والباطل ؛ فشبّه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء ، فإنه يضمحلّ ويعلق بجنبات الأودية ، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحلّ ، على ما نبيّنه . قال مجاهد :

« فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » قال : بقدر ملئها . وقال ابن جُرَيج : بقدر صغرها وكبرها . وقرأ الأشهب العُقَيلي والحسن « بِقَدْرِها » بسكون الدال، والمعنى واحد . وقيل : معناها بما قدّر لهـا . والأودية جمـع الوادى ؛ وسمّى واديا لخروجه وسيلانه ؛ فالوادى على هـذا آسم للمـاء السائل . وقال أبو على : « أودية » توسع ؛ أى سال ماؤها فحذف، قال : ومعنى « بقدرها » بقدر مياهها ؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها . « فَٱحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى طالعا عاليا مرتفعا فوق المـاء، وتمّ الكلام ؛ قاله مجاهد . ثم قال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ وهو المثل الثانى . ﴿ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ أى حليـة الذهب والفضة . ﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ قال مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زبد مِثـله » أى يعلو هـذه الأشياء زبد كما يعلو السيل ؛ و إنما احتمل السيل الزبد لأن المـاء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا، كذلك ما يوقد عليه فى النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبثّ فى الأرض من المعادن فقد خالطه التراب ؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ قال مجاهد : جمودا . وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو ابن العلاء : أَجْفَأَتِ القِـدْرُ إذا غلَت حتى ينصبّ زَبَدها، و إذا جَمَد فى أسفلها . والجُفَاء ما أجفأه الوادى أى رمَى به . وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ «جُفَالًا» قال أبو عبيدة : يقال أَجْفَلَتِ القِدْرُ إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته . ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : هو المـاء الخالص الصّافى . وقيـل : المـاء وما خلص من الذهب والفضـة والحديد والنحاس والرصاص ؛ وهو أن المثلين ضربهما الله للحقّ فى ثباته، والباطل فى اضمحلاله ؛ فالبـاطل و إن علا فى بعض الأحـوال فإنه يضمحلّ كاضمحلال الزّبد والخبَث . وقيـل : المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ؛ فَشبّه القرآن بالمطر لعموم خيره و بقـاء نفعه ، وشَبّه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل فى الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » قال قـرآنا ؛ « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَـدَرِهَا » قال : الأودية قـلوب العباد . قال صاحب

«سوق العروس»[1]: إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثّل القرآن بالماء، ومثّل القلوب بالأودية، ومثل المُحْكَم بالصّافى، ومثل المتشابِه بالزّبد. وقيل: الزّبد مخايل النفس وغوائل الشكّ ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلعها، كما أن ماء السيل يجرى صافيا فيرفع مايجد فى الوادى باقيا؛ وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السّنية، والأخلاق الزكية، التى بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرأ حميد وابن محيصن ويحيي والأعمش وحمزة والكسائى وحفص «يوقدون» بالياء؛ واختاره أبو عبيد لقوله: «ينفع الناس» فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا. الباقون بالتاء لقوله فى أوّل الكلام: «أَفَٱتَّخَذتم من دونه أولياء» الآية. وقوله: «فى النار» متعلق بمحذوف، وهو فى موضع الحال، وذو الحال الهاء التى فى «عليه» التقدير: ومما توقدون عليه ثابتا فى النار أو كائنا. وفى قوله: «فى النار» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التى هى آسم ذى الحال. ولا يستقيم أن يتعلق «فى النار» بـ«يوقدون» من حيث لا يستقيم أوقدتُ عليه فى النار؛ لأن الموقَد عليه يكون فى النار، فيصير قوله «فى النار» غير مفيد. وقوله: «ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ» مفعول له. «زَبَدٌ مِثْلُهُ» ابتداء وخبر؛ أى زبد مثل زبد السّيل. وقيل: إن خبر «زبد» قوله: «فى النار». الكسائى: «زبد» ابتداء، و«مثله» نعت له، والخبر فى الجملة التى قبله، وهو «مما يوقدون». ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أى كما بيّن لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بيّنات. تمّ الكلام، ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى أجابوا؛ استجاب بمعنى أجاب؛ قال[2]:

* فلَمْ يَستَجِبهُ عند ذاكَ مُجِيب *

وقد تقدّم؛ أى أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوّات. ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنها فى نهاية الحسن. وقيل: من الحسنى النصر فى الدنيا، والنعيم المقيم غدا. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾

---

(١) هو: أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبرى، نزيل مكة المكرمة، المتوفى بها سنة ٤٧٨ وكتابه: «سوق العروس» فى علم القراءات. (كشف الظنون).

(٢) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار، وصدر البيت: * وداع دعا يا من يجيب إلى الندى *

أى لم يجيبوا إلى الإيمان به. ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أى من الأموال. ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ ملك لهم ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة؛ نظيره فى « آل عمران » « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا »، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » حسب ما تقدّم بيانه هناك[(١)]. ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فَرْقَد السَّبَخِىّ[(٢)] قال إبراهيم النَّخعىّ: يا فرقد! أتدرى ما سوء الحساب؟ قلت: لا! قال: أن يحاسَب الرجل بذنبه كلّه لا يفقد منه شىء. ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أى مسكنهم ومقامهم. ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى الفراش الذى مهدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ هذا مثل ضربه الله للؤمن والكافر، ورُوى أنها نزلت فى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، وأبى جهل لعنه الله. والمراد بالعَمَى عَمَى القلب، والجاهل بالدين عَمِىّ القلب. ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾.

قوله تعالى: ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾

فيه مسئلتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ هذا من صفة ذوى الألباب؛ أى إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله. والعهد آسم للجنس؛ أى بجميع عهود الله، وهى أوامره ونواهيه التى وصّى بها عبيده؛ ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصى. وقوله: ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق، أى إذا عقدوا فى طاعة الله عهدا لم ينقضوه. قال قَتادة: تقدّم الله إلى عباده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذى أخذه

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١ وما بعدها، ص ١٣١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) السبخى (بفتحتين) إلى السبخة موضع بالبصرة.

الله على عباده حين أخرجهم من صُلْب أبيهم آدم . وقال القَفّال : هو ما ركّب فى عقـولهم من دلائل التوحيد والنبوّات .

الثانيـة — روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمـانية أو تسعة فقال : "ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم" وكنّا حديث عهد ببيعة فقلنا : قد بايعناك [حتى قالها ثلاثا ؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه ، فقال قائل : يا رسول الله! إنا قد بايعناك](1) فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : "أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتُصلّوا الصلوات الخمس وتَسمعوا وتُطيعوا — وأَسَرّ كلمة خفيـة — قال لا تسألوا الناس شيئا" قال : ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط سَـوْطه فما يسأل أحدا أن يناوله إيّاه . قال ابن العربيّ : من أعظم المواثيق فى الذّكر ألا يُسأل سواه ؛ فقـد كان أبو حمزة الخراسانى من كبار العباد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله صلى الله عليـه وسلم ألا يسألوا أحدا شيئا ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : رَبِّ ! إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه ، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحدا شيئا ؛ قال : فخرج حَاجًّا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشى فى الطريق من الليل إذ بقى عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشى إليهم إذ سقط فى بئر على حاشية الطريق ؛ فلما حَلَّ فى قعره قال : أستغيث لعل أحدا يسمعنى . ثم قال : إن الذى عاهـدته يرانى ويسمعنى ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مرّ بذلك البئر نفر ، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغى سدّ هذا البئر ؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطّوها بالتراب ؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ؛ ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدتَ من يراك ؟ فسكَتَ وتَوكّل ، ثم استند فى قعر البئر مفكرا فى أمره فإذا بالتراب يقع عليه ، والخشب يرفع عنه ، وسمع فى أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيته يدى فأقلّنى فى مرة واحدة إلى فم البئر ، فخرجت فلم أر أحدا ؛ فسمعت هاتفا يقول : كيف رأيت ثمرة التوكل ؛ وأنشد :

---

(١) الزيادة من كتب الحديث .

نهانِي حَيائِي منكَ أن أكشفَ الهَوَى * فأغنيتَنِي بالعِلْمِ منكَ عنِ الْكَشْفِ
تلطفْتَ فى أمرِى فأبديت شاهِدِى * إلى غائِبِى واللّطفُ يُدرَكُ باللُّطْفِ
تراءيتَ لى بالعلم حتّى كأنما * تُخَبِّرُنِى بالغيبِ أنكَ فِى كَفِّ
أرانى وبى من هَيْبتِى لكَ وَحْشَةٌ * فتؤنِسُنِى باللُّطفِ منكَ وبالعطفِ
وتُحيِي مُحِبًّا أنتَ فى الحبِّ حَتْفُهُ * وذا عَجَبٌ كيف الحياةُ مَعَ الْحَتْفِ

قال ٱبن العربى : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا . قال أبو الفرج الجوزى : سكوت هذا الرجل فى هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه، وذلك لا يحل ؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافى استغاثته فى تلك الحالة ؛ كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفائه الخروج من مكة ، وٱستئجاره دليلا، واستكتامه ذلك الأمر، وٱستتاره فى الغار، وقوله لسُرَاقة : "ٱخْفِ عنّا". فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور؛ وسكوت هذا الواقع فى البئر محظور عليه؛ وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمى آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطّلها مدّعيا للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل، وردّا لحكمة التواضع؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطع الأسباب؛ ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار؛ قاله سفيان الثورى وغيره ، لأنه قد دُلّ على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه . وقال أبو الفرج : ولا التفات إلى قول أبى حمزة : «فجاء أسد فأخرجنى» فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله ٱتفاقا ، وقد يكون لطفا من الله تعالى بالعبد الجاهل؛ ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به، إنما ينكر فعله الذى هو كَسْبه، وهو إعانته على نفسه التى هى وديعة لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ

بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهر فى صلة الأرحام؛ وهو قول قَتَادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: فى قطع الرحم . وقيل : فى جميع المعاصى . ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ « سوء الحِساب » الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن نُوقِش الحساب عُذِّب . وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: معنى « يصلون ما أمر الله به » الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم . الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم . ويحتمل رابعا : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح، «ويخشون ربهم» فيما أمرهم بوصله ، «ويخافون سوء الحساب» فى تركه؛ والقول الأول يتناول هـذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل : «الذين» مستأنف؛ لأن «صبروا» ماضٍ فلا ينعطف على «يوفون» . وقيل : هو من وصف من تقدّم، ويجوز الوصف تارة بلفظ المـاضى، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولمـا كان «الذين» يتضمن الشرط [و] المـاضى فى الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال : «الذين يوفون» ثم قال : «والذين صبروا» ثم عطف عليه فقال : «ويدرءون بِالحسنةِ السيئة» . قال آبن زيد: صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله . وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب . وقال أبو عِمْران الجَوْنِى : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أدّوها بفروضها وخشوعها فى مواقيتها . ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعنى الزكاة المفروضة؛ عن آبن عباس، وقد مضى القول فى هذا فى «البقرة»[1] وغيرها . ﴿وَيَدْرَءُونَ

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أى يدفعون بالعمل الصالح السّىء من الأعمال؛ قاله ابن عباس. ابن زيد: يدفعون الشر بالخير. سعيد بن جُبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضحاك: يدفعون الفحش بالسلام. جُوَيبر: يدفعون الظلم بالعفو. ابن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القُتَبِىّ: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسفه السيئة، والحلم الحسنة. وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: "وأَتْبِـع السيّئةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها وخَالِقِ الناسَ بخُلُق حَسَن".

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أى عاقبة الآخرة، وهى الجنة بدل النار، والدار غدا داران: الجنة للطيع، والنار للعاصى؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عنى بالدار دار الدنيا؛ أى لهم جزاء ما عملوا من الطاعات فى دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أى لهم جنات عدن؛ فـ«جنات عدن» بدل من «عقبى». ويجوز أن تكون تفسيرا لـ«عقبى الدار» أى لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عقبى الدار» حَدَث، و«جنات عدن» عين، والحدث إنما يفسر بحَدَث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جنات عدن» خبر ابتداء محذوف. و«جنات عدن» وسط الجنة وقَصَبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيرِىّ أبو نصر عبد الرحيم. وفى صحيح البخارى: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تَفَجّر أنهار الجنة". فيحتمل أن يكون «جنات» كذلك، إن صحّ فكذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن فى الجنة قصرا يقال له عَدْن، حوله البُرُوج والمُرُوج، فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[1] لا يدخله إلا نبىّ أو صدّيق أو شهيد. و«عدن» مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتى بيانه فى سورة «الكهف»[2] إن شاء الله. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يجوز أن

(١) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها): ضرب من البرود اليمنية منمّر. (٢) آية ٣١.

يكون معطوفا على « أولئك » المعنى : أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير المرفوع فى « يدخلونها » وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم ، أى من كان صالحا؛ لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « مَنْ » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم، و إن لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال آبن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول؛ ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعيّة . قال القُشَيرىّ : وفى هذا نظر؛ لأنه لا بد من الإيمان، فالقول فى آشتراط العمل الصالح كالقول فى اشتراط الإيمان؛ فالأظهر أن هذا الصلاح فى جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غَدًا تتمّ عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم فى الجنة، و إن دخلها كل إنسان بعمل نفسه؛ بل برحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ أى بالتحف والهدايا من عند الله تكرمة لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى يقولون : سلام عليكم؛ فأضمر القول، أى قد سلمتم من الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة، و إن كانوا سالمين ؛ أى سلمكم الله، فهو خبر معناه الدعاء ؛ و يتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أى بصبركم ؛ فـ«ـما » مع الفعل بمعنى المصدر، والباء فى « بما » متعلقة بمعنى « سلام عليكم » . ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أى هذه الكرامة بصبركم، أى على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جُبَير . وقيل : على الفقر فى الدنيا؛ قاله أبو عِمْران الجَوْنى . وقيل : على الجهاد فى سبيل الله؛ كما روى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : "المجاهدون الذين تُسدّ بهم الثغور وتُتّقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : "السلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبى الدار" وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره الْبَيْهَقِىّ عن أبى هُرَيرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتى الشهداء ، فإذا أَتَى فُرْضَةَ الشِّعْب[1] يقول : " السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان عمر بعد أبى بكر يفعله ، وكان عثمان بعد عمر يفعله ؛ وقال الحسن البصرى رحمه الله : « بما صبرتم » عن فضول الدنيا . وقيل : « بما صبرتم » على ملازمة الطاعة ، ومفارقة المعصية ؛ قال معناه الفُضَيْل بن عِيَاض . ابن زيد : « بما صبرتم » عما تحبونه إذا فقدتموه . ويحتمل سابعا — « بما صبرتم » عن اتباع الشهوات . وعن عبد الله بن سَلَام وعلىّ بن الحسين رضى الله عنهم [أنهما قالا][2] : إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقم أهل الصبر ؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : ٱنطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ! فيقولون : من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معاصى الله ، وصبرناها على البلاء والمحن فى الدنيا . قال علىّ بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : ٱدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . وقال ٱبن سَلَام : فتقول لهم الملائكة : «سلام عليكم بما صبرتم» . ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أى نعم عاقبة الدار التى كنتم فيها ؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذى أنتم فيه ؛ فالعقبى على هذا ٱسم ، و «الدار» هى الدنيا . وقال أبو عِمْران الجَوْنىّ : «فنعم عقبى الدار» الجنة عن النار . وعنه : « فنعم عقبى الدار » الجنة عن الدنيا .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

---

(١) فرضة الشعب : فوهته . والشعب : ما انفرج بين جبلين . والشهداء كانوا بجبل أحد .

(٢) فى الأصل : « أنه قال » .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ لما ذكر الموفين بعهده، والمواصلين لأمره ، وذكر مالهم ذكر عكسهم . نقض الميثاق : ترك أمره . وقيل : إهمال عقولهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ أى من الأرحام، والإيمان بجميع الأنبياء . ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أى بالكفر وآرتكاب المعاصى . ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ أى الطّرد والإبعاد من الرحمة . ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ أى سوء المنقلب، وهو جهنم . وقال سعد بن أبى وقّاص : والله الذى لا إله إلا هو ! إنهم الحَرُورِيّة .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بيّن أنه تعالى الذى يبسط الرزق ويقدر فى الدنيا، لأنها دار آمتحان؛ فبَسْط الرزق على الكافر لا يدلّ على كرامته ، والتّقتير على بعض المؤمنين لا يدلّ على إهانتهم . « ويقدر » أى يضيق؛ ومنه « وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أى ضيّق . وقيل : « يقدر » يعطى بقدر الكفاية . ﴿وَفَرِحُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعنى مشركى مكة؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا ما عند الله ؛ وهو معطوف على « ويفسدون فى الأرض » . وفى الآية تقديم وتأخير؛ التقدير : والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أى فى جنبها ﴿ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ أى متاع من الأمتعة؛ كالقَصْعة والسُّكُرُّجة[1] . وقال مجاهد : شىء قليل ذاهب؛ من مَتَعَ النهارُ إذا ارتفع، فلا بدّ له من زوال . آبن عباس : زادٌ كزاد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا ما يُستمتع بها منها . وقيل : ما يتزوّد منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ؛ « ولهم سوء الدار » ثم آبتدأ « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » أى يوسّع ويضيّق .

قوله تعالى : وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(١) السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشىء القليل من الأدم، وهى فارسية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ بيّن فى مواضع أن ٱقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدلّ على الصدق ؛ والقائل عبد الله بن أبى أمية وأصحابه حين طالبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالآيات . ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ ﴾ عزّ وجلّ ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى كما أضلّكم بعد ما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها يضلّكم عند نزول غيرها . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أى من رجع . والهاء فى « إليه » للحق ، أو للإسلام ، أو لله عزّ وجلّ ؛ على تقدير : ويهدى إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه . وقيل : هى للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « الذين » فى موضع نصب ، لأنه مفعول ؛ أى يهدى الله الذين آمنوا . وقيل بدل من قوله : « من أناب » فهو فى محل نصب أيضا . ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن ؛ قال : أى وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم ؛ قاله قَتَادة . وقال مجاهد وقَتَادة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان ابن عُيَيْنة : بأمره . مقاتل : بوعده . ٱبن عباس : بالحلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه ؛ كما توْجل بذكر عدله وٱنتقامه وقضائه . وقيل : « بذكر الله » أى يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أى قلوب المؤمنين . قال ٱبن عباس : هذا فى الحلف ؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : « بذكر الله » أى بطاعة الله . وقيل : بثواب الله . وقيل : بوعد الله . وقال مجاهد : هم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ﴾ ٱبتداء وخبر . وقيل : معناه لهم طُوبَى ؛ فـ « طُوبَى » رفع بالابتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : جعل

لهم طُوبى ، ويعطف عليه « وحسن مآب » على الوجهين المذكورين ، فترفع أو تنصب .
وذكر عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر عن يحيى بن أبى كَثِير عن عَمْرو بن أبى يزيد البِكَالى عن عُتْبة ابن عَبْدٍ السُّلمى قال : جاء أعرابى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال : فيها فاكهة؟ قال : " نعم شجرة تدعى طوبى " . قال : يارسول الله! أى شجر أرضنا تشبه ؟ قال : " لا تشبه شيئا من شجر أرضك أأتيت الشام هناك شجرة تدعى الجـوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها " . قال : يارسول الله! فما عِظم أصلها! قال : " لو ٱرْتَحَلْتَ جَذَعة من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتها هَرَما " . وذكر الحـديث ، وقد كتبناه بكماله فى أبواب الجنة من كتاب «التذكرة» ، والحمد لله . وذكر ٱبن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن الأشعث عن عبد الله عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبى هُرَيرة قال : فى الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله تعـالى لها : تفتّق لعبدى عمـا شاء؛ فَتَفَتَّق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وتَفَتَّق عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النّجائب والثّياب .
وذكر ٱبن وهب من حديث شَهْر بن حَوْشَب عن أبى أُمامة الباهلى قال : « طُوبَى » شجرة فى الجنة ليس منها دار إلا فيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هى منها؛ وقد قيل : إن أصلها فى قصر النبي صلى الله عليه وسلم فى الجنة ، ثم تنقسم فروعها على منازل أهـل الجنة، كما ٱنتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا . وقال ٱبن عباس : « طوبى لهم » فرح لهم وقرّة عين؛ وعنه أيضا أن « طوبى » ٱسم الجنة بالحبشية؛ وقاله سعيد بن جُبَير .
الربيع بن أنس : هو البستان بلغة الهند؛ قال القُشَيرى : إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين .
وقال قَتَـادة : « طوبى لهم » حسنى لهم . عِكْرِمة : نعمى لهم . إبراهيم النَّخَعى : خير لهم؛ وعنه أيضا كرامة من الله لهم . الضحاك : غبطة لهم . النحاس : وهـذه الأقوال متقاربة؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب؛ أى العيش الطّيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشىء الطّيب .
وقال الزّجاج : طُوبَى فُعْلى من الطِّيب، وهى الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طُيْبَى، فصارت الياء واوا لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا : موسر وموقن .

قلت : والصحيح أنها شجرة ؛ للحديث المرفوع الذى ذكرناه، وهــو صحيح على ما ذكره السُّهَيلى ؛ ذكره أبو عمر فى التمهيد، ومنه نقلناه؛ وذكره أيضا الثعلبى فى تفسيره؛ وذكر أيضا المهدوى والقشيرى عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه أن رســول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " طوبى شجرة فى الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحلى والحُلَل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة " . ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبى . وقال ابن عباس : « طوبى » شجرة فى الجنة أصلها فى دار على، وفى دار كل مؤمن منها غُصْن . وقال أبو جعفر محمد بن على : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : «طوبى لهم وحسن مآب» قال : " شجرة أصلها فى دارى وفروعها فى الجنة " ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : " شجـرة أصلها فى دار على وفروعها فى الجنة " فقيل له : يارسول الله ! سُئِلتَ عنها فقلت : " أصلها فى دارى وفروعها فى الجنة " ثم سُئِلتَ عنها فقلت : " أصلها فى دار على وفروعها فى الجنة " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن دارى ودار على غدا فى الجنة واحدة فى مكان واحد" . وعنه صلى الله عليه وسـلم : " هى شجرة أصلها فى دارى وما من دار من دوركم إلا مُدَلًّى فيها غُصن منها " . ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ آب إذا رجع . وقيل تقدير الكلام : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمم ﴾ أى أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شُبِّه الإنعام على من أُرسل إليه محمد عليـه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبـله . ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ قال مقاتل وابن جُرَيج : نزلت فى صُلح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصُّلْح ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلىّ : "آكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرّحمن إلا صاحب اليمامة ، يعنون مُسَيْلِمة الكذّاب ؛ آكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلىّ : "آكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ؛ ولكن آكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا نقاتلهم ؛ فقال : "لا ولكن آكتب ما يريدون" فنزلت . وقال آبن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : "آسجدوا للرحمن" قالوا : وما الرحمن ؟ فنزلت ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : الذى أنكرتم ﴿ هُوَ رَبِّى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ولا معبود سواه؛ هو واحد بذاته ، وإن اختلفت أسماء صفاته . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وآعتمدت ووثقت . ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أى مرجعى غدا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رِضًا بقضائه ، وتسليما لأمره . وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فى الحِجْر ويقول : "يا الله يارحمن" فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ » .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ هذا متصل بقوله : « لولا أنزل عليه آية من ربه » وذلك أن نفرا من مشركى مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية

المخزوميّان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم ؛ فقال له عبد الله : إن سرّك أن نتبعك فسيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهِبها عنّا حتى تنفسح ؛ فإنها أرض ضيّقة، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا، حتى نغرس ونزرع ؛ فلستَ كما زعمتَ بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسير معه . وسخِّر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضى عليها مِيرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ؛ فقد كان سليمان سخّرت له الريح كما زعمتَ ؛ فلستَ بأهون على ربك من سليمان بن داود . وأَحْيِ لنا قَصَبَ[1] جدّك ، أو من شئتَ أنت من موتانا نسأله ، أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيى الموتى ، ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعالى : « ولو أن قرآنا سُيِّرت بِهِ الجبال » الآية؛ قال معناه الزّبير بن العوّام ومجاهد وقَتَادة والضّحاك ؛ والجواب محذوف تقديره : لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازا، لما فى ظاهر الكلام من الدلالة عليه؛ كما قال امرؤ القيس :

فَلَوْ أنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً * ولِكنَّها نفسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

يعنى لهان علىّ ؛ هذا معنى قول قَتَادة؛ قال : لو فَعَل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل : الجواب متقدم، وفى الكلام تقديم وتأخير؛ أى وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفرّاء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن . الزّجاج : « ولو أن قرآنا » إلى قوله : « الموتى » لما آمنوا ؛ والجواب المضمر هنا ما أظهر فى قوله : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ » إلى قوله : « مَا كَانُو لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ » . ﴿ بَلْ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أى هو المالك لجميع الأمور، الفاعل لما يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال الفرّاء قال الْكَلْبىّ : «ييئس» بمعنى يعلم، لغة النَّخَع؛ وحكاه القُشَيرىّ عن ابن عباس؛ أى أفلم يعلموا؛ وقاله الجوهرى فى الصحاح .

---

(١) القصب : كل عظم مستدير أجوف .

وقيل : هو لغة هَوَازِن ؛ أى أفلم يعلم ؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو عبيدة : أفلم يعلموا و يتبيّنوا ، وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْرِىّ [(١)] :

أَقُولُ لَهُمْ بالشِّعْبِ إذْ يَيْسِرُونَنِى * أَلَمْ تَيْئَسُوا أَنِّى ٱبْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

يَيْسروننى من المَيْسر، وقد تقدّم فى « البقرة » [(٢)] و يروى يأسروننى من الأَسْر . وقال رَبَاح ٱبن عدىّ :

أَلَمْ يَيْئَسِ الأقوامُ أَنّى [أنا] [(٣)] ٱبنُـهُ * وإنْ كنتُ عن أرضِ العَشِيرةِ نائيَا

فى كتاب الرّدّ «أنى أنا ٱبنه » وكذا ذكره الغَزْنَوىّ : ألم يعلم؛ والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس المعروف ؛ أى أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهـم لهداهم؛ لأن المؤمنين تمنّـوا نزول الآيات طمعا فى إيمان الكفار . وقرأ علىّ وٱبن عبـاس : « أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا » من البيان . قال القُشَيرىّ : وقيل لابن عبـاس المكتوب « أفلم ييئس » قال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس ؛ أى زاد بعض الحـروف حتى صار «ييئس» . قال أبو بكر الأنبارىّ : روى عِكرمة عن ٱبن أبى نَجيح أنه قرأ — « أفلم يتبين الذين آمنوا » و بها ٱحتجّ من زعم أنه الصواب فى التلاوة؛ وهو باطل عن ٱبن عباس، لأن مجاهدا وسعيد ٱبن جُبَير حكيا الحرف عن ابن عبـاس، على ما هو فى المصحف بقراءة أبى عمرو و روايته عن مجاهد وسـعيد بن جُبَير عن ابن عبـاس؛ ثم إن معناه : أفلم يتبين ؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التى خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وتأتى بتأويلها ، و إن أراد الله المعنى الاخر الذى اليأس فيـه ليس من طريق العـلم فقد سقط مما أوردوا؛

---

(١) ذكر فى « لسان العرب » أن قائل البيت هو سحيم بن وثيـل اليربوعى ؛ قال : وذكر بعض العلماء أنه لولده جابر بن سحيم بدليل قوله فيه : « أنى ابن فارس زهدم » وزهـدم : فرس سحيم . وقوله : ييسروننى من إيسار الجزور ؛ أى يجتزروننى و يقتسموننى ، وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه سباء فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قسمة فدائه .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٥٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) لم ترد فى الأصول لفظة « أنا » والواجب إثباتها كما فى كتاب «الرد» إذ أن البيت من الطويل ، و بدونها لا يستقيم .

وأمّا سقوطه يبطل القرآن ، ولزوم أصحابه البهتان . ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ « أَنْ » مخففة من الثقيلة ، أي أنه لو يشاء الله ﴿ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وهو يردّ على القَدَرية وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ أي داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم ؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قوارِع ؛ والأصل في القرع الضرب ؛ قال (١) :

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ * قَــرْعُ القَوَاقِـيزِ أَفْوَاه الاباريقِ

أي لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أَرْبد أو من قتل أو أسر أو جدب ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء ؛ كما نزل بالمستهزئين ، وهم رؤساء المشركين . وقال عِكرِمة عن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعكْرِمة : القارعة الطلائع والسرايا التي كان يُنفِذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم . ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ أي القارعة ﴿ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ قاله قَتادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحل أنت قريبا من دارهم . وقيل : نزلت الآية بالمدينة ؛ أي لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ في فتح مكة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : نزلت بمكة ؛ أي تصيبهم القوارع ، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد ، فتحلّ قريبا من دارهم ، أو تحلّ بهم محاصرا لهم ؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولِقلاع خَيْبَر ، ويأتي وعد الله بالإذن لك في قتالهم وقهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا

(١) هو الأقيشر الأسدي ، واسمه المغيرة بن عبد الله . والتلاد : المال القديم الموروث . والنشب : الضياع والبساتين وما جدده بعمله . والقواقيز (جمع قاقوزة) : وهي أوان يشرب بها الخمر .

عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ تقدّم معنى الاستهزاء فى «البقرة»(١) ومعنى الإملاء فى « آل عمران »(٢) أى سُخِر بهم، وأُزْرِى عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان فى علمى أنه يؤمن منهم؛ فلما حقّ القضاء أخذتهم بالعقوبة . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركى قومك .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ليس هـذا القيام القيام الذى هو ضدّ القعود، بل هو بمعنى التولّى لأمور الخلق؛ كما يقال : قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أى يقدرها على الكسب ، ويخلقها و يرزقها و يحفظها و يجازيها على عملها ؛ فالمعنى : أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف؛ والمعنى : أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل . وقيل : أفمن هو قائم أى عالم؛ قاله الأعمش . قال الشاعر :

فلولا رِجالٌ من قريشٍ أَعِزّة * سَرَقْتُمْ ثيابَ البيتِ واللهُ قائمُ

أى عالم؛ فالله عالم بكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكلون ببنى آدم، عن الضحاك . ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ حال ؛ أى قد جعلوا، أو عطف على « استهزئ » أى آستهزءوا وجعلوا؛ أى سمّوا ﴿ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ يعنى أصناما جعلوها آلهـة . ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد : « سمّوهم » أى بيّنوا أسماءهم ، على جهة التهديد ؛ أى إنما يسمّون : اللّات والعُزّى وَمَنَاة وهُبَل . ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ « أم » استفهام توبيخ ، أى أتنبئونه ؛ وهو على التحقيق عطف على آستفهام متقـدّم فى المعنى ؛ لأن قوله : « سمّوهم » معنـاه : أَلَهُمْ أسماء الخالقين «أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض»؟ . وقيل : المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه، أم بظاهر من القول يعلمه؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه أحالوا، و إن قالوا :

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ؛ فإذا سموهم اللات والعُزى فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكا . وقيـل : « أم تنبئونه » عطف على قوله : « أفمن هو قائم » أى أفمن هو قائم ، أم تنبئون الله بما لا يعلم؛ أى أنتم تدعون لله شريكا ، والله لا يعلم لنفسه شريكا؛ أفتنبئونه بشريك له فى الأرض وهو لا يعلمه ! وإنما خص الأرض بنفى الشريك عنها وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض لأنهم آدّعوا له شركاء فى الأرض . ومعنى ﴿ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾: الذى أنزل الله على أنبيائه . وقال قَتَادة : معناه بباطل من القول؛ ومنه قول الشاعر :

أَعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَهَا ولُحُومَهَا * وذلِكَ عارٌ يا بن رَيْطَةَ ظاهِرُ

أى باطل . وقال الضحاك : بكذب من القول . ويحتمل خامسا — أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم؛ ويكون معنى الكلام : أتخبرونه بذلك مشاهدين، أم تقولون محتجين . ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ أى دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرهم ؛ قيل : آستدراك على هـذا الوجه، أى ليس لله شريك، لكن زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ آبن عباس ومجاهد — « بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ » مسمى الفاعل؛ وعلى قراءة الجماعة فالذى زَيَّن للكافرين مكرهم الله تعالى، وقيل : الشيطان . ويجوز أن يسمى الكفر مكرا؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفرا . ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى صدهم الله؛ وهى قراءة حمزة والكسائى . الباقون بالفتح؛ أى صدّوا غيرهم؛ واختاره أبو حاتم، اعتبارا بقوله : « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » وقوله : « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وقراءة الضم أيضا حسنة فى « زين » و « صدّوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك فى مذهب أهل السنة؛ ففيه إثبات القَـدَر، وهو آختيار أبى عبيد . وقرأ يحيى بن وثّاب وعَلْقَمة — « وصِدُّوا » بكسر الصاد؛ وكذلك « هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا » بكسر الراء أيضا على مالم يسم فاعله ؛ وأصلها صُـدِدوا ورُدِدَت ، فلما أدغمت الدال الأولى فى الثانيـة نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ ﴾ بخذلانه ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى موفّق؛ وفى هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم؛ لقـوله : « ومن يضلِلِ الله »، فكذلك قوله : « وَصُدُّوا » . ومعظم القراء

يقفون على الدّال من غير الياء ؛ وكذلك والٍ وواقٍ ؛ لأنك تقول فى الرجل : هذا قاضٍ و والٍ وهادٍ ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين . وقرئ « فماله من هادِى » ، و « والِى » و « واقى » بالياء ؛ وهو على لغة من يقول ؛ هذا داعى ووالى وواقى بالياء ؛ لأن حذف الياء فى حالة الوصل لالتقائها مع التنوين ، وقراءتنا هذا فى الوقف ؛ فردّت الياء فصار هادى ووالى وواقى . وقال الخليـل فى نِداء قاضٍ : يا قاضى بإثبات الياء ؛ إذ لا تنوين مع النـداء ، كما لا تنوين فى نحو الداعى والمتعالى .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى للشركين الصادّين بالقتل والسّبْى والإسار ، وغير ذلك من الأسـقام والمصائب . ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أى أشـدّ ؛ من قولك : شَـقَّ علىّ كذا يَشُـقّ . ﴿ وَمَا لَهُـمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ أى مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع . و « مِن » زائدة .

قوله تعـالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّـةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ آختلف النحاة فى رفع « مَثَل » فقال سيبو يه : آرتفع بالابتـداء والخبر محذوف ؛ والتقدير : وفيما يتلى عليكم مَثَلُ الجنـة . وقال الخليل : آرتفع بالابتداء وخبره « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهار » أى صفة الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ كقولك : قولى يقوم زيد؛ فقولى مبتدأ ، ويقوم زيد خبره ؛ والمَثَل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ » وقال: « وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَى » أى الصفة العليا ، وأنكره أبو علىّ وقال : لم يسمع مَثَل بمعنى الصفة؛ إنمـا معناه الشـبه ؛ ألا تراه يجرى مجراه فى مواضـعه ومتصرّفاته ، كقولهم : مررت برجل مثلك ؛ كما تقول : مررت برجل شبهك ؛ قال : و يفسـد أيضا من جهة المعنى ؛ لأن مثلا

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التى فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأن الأنهار فى الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج : مثّل الله عزّ وجلّ لنا ماغاب عنا بما نراه؛ والمعنى : مَثَلُ الجنّة جنّةٌ تجرى من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو علىّ فقال : لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفى كلا الوجهين لايصح ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت : صفة الجنّة جنّة، فجعلت الجنة خبرا لم يستقم ذلك؛ لأن الجنّة لا تكون الصفة، وكذلك أيضا شبه الجنّة جنّة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التى بين المتماثلين، وهو حَدَث، والجنّة غير حَدَث؛ فلا يكون الأوّل والثانى . وقال الفرّاء : المَثَل مقحم للتأكيد؛ والمعنى : الجنّة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيرا بالمثل؛ كقوله : « ليس كَمِثْلِهِ شىء »؛ أى ليس هو كشىء . وقيل التقدير : صفة الجنّة التى وعِد المتقون صفة جنّة « تجرى من تحتها الأنهار » . وقيل معناه : شبه الجنّة التى وعد المتقون فى الحسن والنعمة والخلود كشبه النار فى العذاب والشدّة والخلود؛ قاله مقاتل . ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع؛ وفى الخبر : " إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى " وقد بيناه فى « التذكرة » . ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أى وظلها كذلك؛ فحذف؛ أى ثمرها لاينقطع، وظلّها لا يزول؛ وهذا ردّ على الجَهْمِيّة فى زعمهم أن نعيم الجنة يزول و يفنى . ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ أى عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى بعض من أوتى الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سَلَام وسلمان، والذين جاءوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص . وقال قَتَادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن؛ وقاله مجاهد

وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهـود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلمـاء : كان ذكر الرحمن فى القرآن قليلا فى أول ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة ؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فأنزل الله تعالى : « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ » فقالت قريش : مابال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مُسَيْلِمَة الكذاب ؛ فنزلت : « وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ » « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ » ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : « وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ » . ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ يعنى مشركى مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : من أعداء المسلمين من ينكر بعض ما فى القرآن ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف ؛ أى أفرده بالعبادة وحده لاشريك له ، وأتبرّأ عن المشركين، ومن قال : المسيح ابن الله وعزير ابن الله، ومن اعتقد التشبيه كاليهود . ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى إلى عبادته أدعو الناس . ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أى أرجع فى أمورى كلها .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا ؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربيّ ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا ، أى بلسان العرب ؛ ويريد بالحكم ما فيه

من الأحكام . وقيل : أراد بالحكم العربيّ القرآن كله ؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم . ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى أهواء المشركين فى عبادة ما دون الله ، وفى التوجيه إلى غير الكعبة . ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى ناصر ينصرك . ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يمنعك من عذابه ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد الأمة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)

فيــه مسئلتان :

الأولى — قيل إن اليهود عابوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم الأزواج، وعيرته بذلك وقالوا : ما نرى لهـذا الرجل همة إلا النّسـاء والنكاح، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن النّساء ؛ فأنزل الله هذه الآية ،وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص فى الوحى .

الثانيــة — هذه الآية تدل على الترغيب فى النكاح والحض عليه، وتنهى عن التَّبتُّل ، وهو ترك النكاح، وهذه سـنّة المرسلين كما نصّت عليه هـذه الآية، والسـنّة واردة بمعناها؛ قال صلى الله عليه وسلم : "تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم" الحديث . وقد تقدّم فى «آل عمران»[1] . وقال : "من تزوج فقد ٱستكمل نصف الدّين فليتّـقِ الله فى النصف الثانى" . ومعنى ذلك أن النكاح يعفّ عن الزنى، والعفاف أحد الخَصْلَتين اللتين ضَمِن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الجنة فقال : "من وقاه الله شرّ ٱثنتين وَلَجَ الجنّـة ما بين لَحْيَيه وما بين رِجليه" خرجه الموطأ وغيره . وفى صحيح البخارىّ عن أنس قال : جاء ثلاثة رَهْط إلى بيـوت أزواج النبيّ

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تَقَالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبيّ صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم : أمّا أنا فإنى أصلّى الليل أبدا، وقال الآخر: إنى أصوم الدهر فلا أفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأُفطر وأصلى وأرقد وأتزوّج النساء فمن رغب عن سنّتى فليس منى". خرجه مسلم بمعناه؛ وهذا بين. وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال: أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولو أجاز له ذلك لَٱخْتَصَيْنَا، وقد تقدّم فى «آل عمران» الحضّ على طلب الولد والرّد على من جهل ذلك. وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول: إنى لأتزوج المرأة وما لى فيها من حاجة، وأطؤها وما أشتهيها؛ قيل له: وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال: حبّى أن يخرج الله مِنّى من يكاثر به النبيّ صلى الله عليه وسلم النبيّين يوم القيامة؛ و إنى سمعته يقول: "عليكم بالأبكار فإنهنّ أَعْذَب أفواهًا وأحسن أخلاقًا وأَنْتَق أرحاما و إنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" يعنى بقوله: "أنتق أرحاما" أَقْبَل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق؛ لأنها ترمى بالأولاد رميا. وخرج أبو داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنى أصبت آمرأة ذات حسب وجمال، وأنها لا تلد، أفأتزوجها ؟ قال "لا" ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: "تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم". صححه أبو محمد عبد الحق وَحَسْبك.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ عاد الكلام إلى ما آقترحوا من الآيات — ماتقدّم ذكره فى هذه السورة — فأنزل ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حَظْر ومعناه النفى؛ لأنه لا يحظر على أحدٍ ما لا يقدر عليه. ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أى لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله؛ قاله الحسن. وقيل: فيه تقديم وتأخير، المعنى: لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء والضحاك؛ أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل، ووقت معلوم؛ نظيره «لكل نبأ مستقر»؛

بيّن أن المراد ليس على اقتراح الأمم فى نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب . وقيل : المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقـدّر لا تقف عليه الملائكة . وذكر الترمذىّ الحكيم فى « نوادر الأصول » عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبى هُريرة قال : لمـا ٱرتقى موسى صلوات الله عليه وسلم طور سيناء رأى الجبّارُ فى إصبعه خاتمـا، فقال : ياموسى ماهذا ؟ وهو أعلم به، قال : شىء من حُلىّ الرجال، قال : فهـل عليه شىء من أسمائى مكتوب أو كلامى ؟ قال : لا، قال : فاكتب عليه « لكل أجل كتاب » .

قوله تعـالى : يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهـله ويأتى به « ويثبت » ما يشاء ؛ أى يؤخره إلى وقته؛ يقال : محوت الكتاب محوا، أى أذهبت أثره . « ويثبت » أى ويثبته، كقوله : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » أى والذكرات الله .

وقرأ ٱبن كثير وأبو عمـرو وعاصم «وَيُثْبِتُ» بالتخفيف، وشَـدّد الباقون؛ وهى قراءة ٱبن عبـاس، وٱختيار أبى حاتم وأبى عبيد لكثرة من قرأ بهـا ؛ لقوله : « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا» . وقال ٱبن عمر : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : ”يمحو الله مايشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت“. وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء؛ الخَلْق والخُلُق والأجل والرزق والسـعادة والشقاوة؛ وعنه : هما كتابان سوى أمّ الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت، ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ الذى لايتغير منه شىء. قال القُشَيرىّ : وقيل السـعادة والشقاوة والخَلْق والخُلُق والرزق لا تتغـير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفى هذا القول نوع تحكم .

قلت : مثل هـذا لايدرك بالرأى والٱجتهاد، وإنمـا يؤخذ توقيفا، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة فى جميع الأشياء،وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وآبن مسعود وأبى وائل وكعب الأحبار وغيرهم ، وهو قول ٱلْكَلْبِىّ . وعن أبى عثمان النَّهْدىّ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه كان يطوف بالبيت وهو يبكى و يقول : اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها ، و إن كنت كتبتنى فى أهل الشقاوة والذنب فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتنى فى السعداء فأثبتنى فيهم ، و إن كنت كتبتنى فى الأشـقياء فآمحنى من الأشقياء وآكتبنى فى السعداء ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ؛ وعنـدك أمّ الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت كتبتنا أشـقياء فامح وآكتبنا سعداء ، و إن كنت كتبتنا سـعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب . وقال كعب لعمر بن الخطاب : لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بمـا هو كائن إلى يوم القيامة : « يمحو الله ما يشاء و يثبت وعنده أم الكتاب » . وقال مالك ابن دينار فى المرأة التى دعا لهـا : اللهم إن كان فى بطنها جارية فأبدلهـا غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب . وقد تقدّم فى الصحيحين عن أبى هُريرة قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : "مَن سَرّه أن يُبْسطَ له فى رزقه و يُنْسَأَ له فى أَثَرِه[1] فليَصِلْ رَحِمَه". ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ أَحَبَّ" فذكره بلفظه سواء ؛ وفيـه تأويلان : أحدهما — معنوى ، وهو ما يبقى بعـده من الثناء الجميل والذكر الحسن ، والأجر المتكرر ، فكأنه لم يمت . والآخر — يؤخر أجله المكتوب فى اللوح المحفوظ ، والذى فى علم الله ثابت لا تبدّل له ، كما قال : « يمحو الله ما يشاء و يثبت وعنده أمّ الكتاب » . وقيل لابن عباس لمـا روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أحبّ أن يمد الله فى عمره وأجله و يبسط له فى رزقه فليتق الله ولْيَصِلْ رَحِمَـه" كيف يزاد فى العمر والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْـدَهُ » . فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

(١) الأثر : الأجل .

الثاني — يعني المسمى عنده — من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البَرْزَخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أَجَل البَرْزَخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أَجَل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البَرْزَخ؛ فإذا تحتم الأَجَل في علمه السابق آمتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» فتوافق الخبر والآية؛ وهـذه زيادة في نفس العمر وذات الأَجَل على ظاهر اللفظ، في آختيار حبر الأمة، والله أعلم. وقال مجاهد: يُحكم الله أمر السَّنَة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه. وقال الضحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحَفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن آبن عباس. وقال الْكَلْبيّ: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم. ثم سئل الكلبيّ عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب. وقال قَتَادة وآبن زيد وسعيد بن جُبَير: يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أمّ الكتاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدويّ عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدّثنا بكر بن سهل، قال حدّثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس «يمحو الله ما يشاء» يقول: يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه، «ويثبت ما يشاء» فلا يبدله، «وعنده أم الكتاب» يقول: جملة ذلك عنده في أمّ الكتاب، الناسخ والمنسوخ. وقال سعيد بن جُبَير أيضا: يغفر ما يشاء — يعني — من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره. وقال عِكرِمة: يمحو ما يشاء — يعني بالتوبة — جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [قال تعالى](١): «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا» الآية. وقال

(١) الزيادة من «البحر المحيط».

الحسن : « يمحو الله ما يشاء » من جاء أجله «ويثبت» من لم يأت أجله . وقال الحسن : يمحو الآباء ، ويثبت الأبناء . وعنه أيضا : يُنْسى الحَفَظة من الذنوب ولا يُنْسى . وقال السدّى : « يمحو الله ما يشاء » يعنى : القمر « ويثبت » يعنى : الشمس ؛ بيانه قوله : « فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » وقال الرّبيع بن أَنَس : هذا فى الأرواح حالة النوم ؛ يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » الآية . وقال علىّ بن أبى طالب : يمحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » ويثبت ما يشاء منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » فيمحو قَرْنا ، ويثبت قَرْنا . وقيل : هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذى يمحو ، والذى يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من ديوان السيئات ، ويثبته فى ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبىّ والماوردىّ عن ابن عباس . وقيل : يمحو الله ما يشاء — يعنى الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال قيس بن عُبَاد فى اليوم العاشر من رجب : هو اليوم الذى يمحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون فى رمضان . وقال ابن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام ، من درّة بيضاء ، لها دَفّتان من ياقوتة حمراء ، لله فى كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة ، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله سبحانه يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يَبقين من الليل فينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء" . والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله ؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء ، وقد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما ، وهو الثابت ؛ ومنه ما يكون مصروفا بأسباب ، وهو الممحو ، والله أعلم . الغزنوىّ : وعندى أن ما فى اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحتمل التبديل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال ؛ وما فى علمه من تقدير الأشياء لا يبدّل . « وعنده أمّ الكتاب » أى أصل ما كتب من الآجال

وغيرها . وقيل : أمّ الكتاب اللوح المحفوظ الذى لا يبدّل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجرى فيه التبديل . وقيل : إنما يجرى فى الجرائد الأخر . وسئل ابن عباس عن أمّ الكتاب فقال : عِلْم الله ما هو خالق ، وما خلقه عاملون ؛ فقال لعلمه : كن كتابا ، ولا تبديل فى علم الله ، وعنه أنه الذِّكْر ؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » وهـذا يرجع معناه إلى الأوّل ؛ وهو معنى قول كعب . قال كعب الأحبار : أمّ الكتاب عِلْم الله تعالى بمـا خَلَق وبما هو خالق .

قوله تعـالى : وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِـدُهُمْ ﴾ « ما » زائدة ، والتقدير : وإن نرينك بعض الذى نعدهم ، أى من العذاب ؛ لقوله : « لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَـا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ فليس عليك إلا البلاغ ؛ أى التبليغ ؛ ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أى الجزاء والعقوبة .

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعنى أهـل مكة . ﴿ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ ﴾ أى نقصـدها . ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ اختلف فيـه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « ننقصها من أطرافها » موت علمـائها وصلحائها . قال القُشَيرِىّ : وعلى هـذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ابن الأعرابى : الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيـد ، لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان فى أمورهم ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهـم ليس عن عجـز ؛ إلا أن يحمل قول ابن عبـاس على موت أحبار اليهـود والنصارى . وقال مجاهد أيضا

وقَتَادة والحسن : هو ما يغلب عليـه المسلمون ممـا فى أيدى المشركين ؛ وروى ذلك عن ٱبن عباس، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران فى ناحية منها؛ وعن مجاهد : نقصانها خرابها وموت أهلها. وذكر وكِيع بن الجَرّاح عن طلحة بن عُمَير عن عطاء بن أبى رَبَاح فى قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهاب فقهائها وخيار أهلها . قال أبو عمر بن عبد البرّ : قول عطاء فى تأويل الآية حسن جدّا، تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكاه المهدوىّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأوّل نفسه؛ روى سفيان عن منصور عن مجـاهد « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلمـاء ؛ ومعروف فى اللغة أن الطَّرَف الكريم من كل شىء ؛ وهـذا خلاف ما ٱرتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبـد الكريم من قول ٱبن عباس . وقال عِكرِمة والشّعبىّ : هو النقصان وقبض الأنفس . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشّـك[1] . وقال الآخر : لضاق عليك حشّ تتبرز فيـه . وقيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبـل قريش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أولم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم ؟ ! أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك ؛ وروى ذلك أيضا عن ٱبن عباس ومجاهد وٱبن جُرَيج . وعن ٱبن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها . وقيل : نقصها بجَوْر وُلَاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وٱنجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أى ليس يتعقب حكمـه أحد بنقص ولا تغيير . ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى الانتقام من الكافريـن ، سريع الثواب للؤمن . وقيل : لا يحتاج فى حسابه إلى رَوِيّة قلب، ولا عقـد بَنَان؛ حسب ما تقدّم فى « البقرة »[2] بيـانه .

---

(١) الحش : المتوضأ .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣٤ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى من قبل مشركى مكة ، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم . ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ أى هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضرّ إلا بإذنه . وقيل : فلله خير المكر، أى يجازيهم به . ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من خير وشر، فيجازى عليه . ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ ﴾ كذا قراءة نافع وآبن كثير وأبى عمرو . الباقون : « الكفار » على الجمع . وقيــل : عنى أبو جهل . ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أى عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة، وهذا تهديد ووعيد .

قوله تعــالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ قال قَتَادة : هم مشركو العرب؛ أى لست بنبىّ ولا رسول ، و إنمــا أنت متقول ؛ أى لمــا لم يأتهم بمــا آقترحوا قالوا ذلك . ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ ﴾ أى قــل لهم يا محمد : « كفى بالله » أى كفى الله ﴿ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بصدقى وكذبكم . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ وهــذا احتجاج على مشركى العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفاسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم ؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سَلَام وسلمان الفارسىّ وتميم الدارىّ والنجاشىّ وأصحابه ؛ قاله قَتَادة وسعيد بن جُبَير . وروى الترمذىّ عن ابن أخى عبــد الله بن سَلَام قال : لمــا أريد [قتل] عثمان جاء عبد الله بن سَلَام فقال له عثمان : ماجاء بك؟ قال : جئت فى نُصرتك ؛ قال : آخرج إلى الناس فآطردهم عنى، فإنك خارج خير لى من داخل؛ فخرج عبد الله بن سَلَام إلى الناس فقال : أيها الناس ! إنه كان آسمى فى الجاهلية فلان، فسمانى

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله؛ فنزلت فيّ « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ونزلت فيّ « قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكماله في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جُبَير « ومن عِنده عِلم الكِتاب » ؟ قال : هو عبد الله بن سَلَام .

قلت : وكيف يكون عبدالله بن سَلَام وهذه السورة مكية وآبن سَلَام ما أسلم إلا بالمدينة؟ ! ذكره الثعلبي . وقال القُشَيريّ : وقال آبن جُبَير السّورة مكية وآبن سَلَام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على آبن سَلَام؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول آبن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضحاك : هو الله تعالى؛ وكانوا يقرءون « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ» وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سَلَام وسلمان ؛ لأنهم يرون أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « وَمِن عِندِه عِلْمُ الْكِتَابِ » وإن كان في الرواية ضعف؛ وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وروى محبوب عن إسمعيل بن محمد اليمانيّ أنه قرأ كذلك — « وَمِنْ عِنْدِهِ » بكسر الميم والعين والدال « عُلِمَ الْكِتَابُ » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سَلَام فقال : إنما ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين ، والله أعلم .
قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه عليّ فعوّل على أحد وجهين : إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : "أنا مدينة العلم وعلي بابها" وهو حديث باطل؛ النبيّ صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أبوابها؛ فمنهم الباب المنفسح، ومنهم المتوسط ، على قدر منازلهم في العلوم . وأما من قال

إنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يَعْلَمَ الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن. وأما من قال هو عبد الله بن سَلَام فعوّل على حديث الترمذيّ؛ وليس يمتنع أن ينزل فى عبد الله بن سَلَام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى قريشا؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى، الذين هم إلى معرفة النبوّة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سَلَام وغيره يحتمل أيضا؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التى أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفســير ســورة إبراهــيم

مكية كلها فى قول الحسن وعِكرِمة وجابر . وقال آبن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين وقيل : ثلاث نزلت فى الذين حاربوا الله ورسوله وهى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا » إلى قوله : « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » .

قوله تعالى : الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ تقدم معناه . ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ أى بالكتاب، وهو القرآن، أى بدعائك إليه . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم؛ وهذا على التمثيل، لأن الكفر بمنزلة الظلمة؛ والإسلام بمنزلة النور . وقيل : من البدعة إلى السنة، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، والباء فى «بإذن ربهم» متعلقة بـ«تخرج » وأضيف الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعى والمنذر الهادى . ﴿ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقلِ الفاضلِ من غير واو ، لأنهما شيء واحد ؛ والله هو العزيز الذى لامثل له ولا شبه . وقيل : « العزيز » الذى لا يغلبه غالب . وقيل : « العزيز » المنيع فى ملكه وسلطانه . « الحميد » أى المحمود بكل لسان، والممجد فى كل مكان على كل حال. وروى مِقْسم عن آبن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى بن مريم، وقوم كفروا به، فلما بُعِث محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى، وكفر الذين آمنوا بعيسى؛ فنزلت هذه الآية ، ذكره الماوردىّ .

قوله تعالى : ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وعبيدا واختراعا وخلقا . وقرأ نافع وابن عامر وغيرهما « اللهُ » بالرفع على الابتداء « الذى » خبره . وقيل : « الذى » صفة، والخبر مضمر؛ أى الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض قادرٌ على كل شىء . الباقون بالخفض نعتا للعزيز الحميد فقدم النعت على المنعوت؛ كقولك : مررت بالظريف زيدٍ . وقيل : على البدل من « الحميد » وليس صفة ؛ لأن اسم الله صار كالعَلَم فلا يوصف؛ كما لا يوصف بزيد وعمرو ، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد . وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير ، مجازه : إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له مافى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقف على « الحميد » رفع ، وإذا وصل خفض على النعت . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف على « وما فى الأرض » .

قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قد تقدّم معنى الويل فى « البقرة »(١) وقال الزجاج : هى كلمة تقال للعذاب والهلكة . « من عذاب شديد » أى فى جهنم . ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك . « فالذين » فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمر؛ أى هم الذين . وقيل : « الذين يستحبون » مبتدأ وخبره « أولئك » . وكل من آثر الدنيا وزهرتها، واستحب

(١) راجع جـ ٢ ص ٧ وما بعدها طبعة ثانية .

البقاء فى نعيمها على النعيم فى الآخرة، وصدّ عن سبيل الله — أى صرف الناس عنه وهو دين الله، الذى جاءت به الرسـل، فى قول ابن عباس وغيره — فهو داخل فى هذه الآية؛ وقد قال صلى الله عليه وسـلم : "إن أخوف ما أخاف على أمتى الأئمـة المضلون" وهو حديث صحيح . وما أكثر ما هم فى هذه الأزمان، والله المستعان . وقيل : «يستحبون» أى يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته . ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى يطلبون لها زَيْغا وميلا لموافقـة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم . والسبيل تذكر وتؤنث . والعِوج بكسر العين فى الدّين والأمر والأرض، وفى كل ما لم يكن قائمـا؛ وبفتح العين فى كل ما كان قائمـا، كالحائط والرُّمح ونحوه؛ وقد تقدم فى «آل عمران» (1) وغيرها . ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى ذهاب عن الحق بعيد عنه .

قوله تعـالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أى قبلك يا محمد ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أى بلغتهم، ليبيّنوا لهم أمر دينهـم ؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القـوم لأن المراد اللغـة ؛ فهى اسم جنس يقع على القليل والكثير ؛ ولا حجـة للعجم وغيرهم فى هـذه الآية ؛ لأن كل من تُرجم له ما جاء به النبي صـلى الله عليه وسـلم ترجمة يفهمها لزمته الحجـة ؛ وقد قال الله تعـالى : «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» . وقال صلى الله عليه وسلم : "أرسل كلُّ نبىّ إلى أمته بلسانها وأرسلنى الله إلى كلّ أحمرَ وأسـودَ من خَلْقه" . وقال صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ ولا نصرانىّ ثم لم يؤمن بالذى أُرسلتُ به إلا كان من أصحاب النـار" . خرجه مسلم، وقد تقدّم . ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ردّ على القَدَرية فى نفوذ المشيئة ، وهو مستأنف ، وليس بمعطوف على

(1) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

« ليبين » لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا الإضلال . ويجوز النصب فى « يضل » لأن الإرسال صار سببا للإضلال ؛ فيكون كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم ؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ (١) أى بحجتنا وبراهيننا ؛ أى بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هى التسع الآيات . ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة : «لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» . وقيل : « أَنْ » هنا بمعنى أى ، كقوله تعالى : «وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا» أى امشوا .

قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ أى قل لهم قولا يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم ؛ وقاله أبىّ بن كعب ورواه مرفوعا ؛ أى بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التِّيه ، إلى سائر النِّعم ؛ وقد تسمى النِّعم بالأيام ؛ ومنه قول عمرو بن كُلْثوم (٢) :

* وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ *

---

(١) الآيات التسع هى : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات .
(٢) البيت من معلقته وتمامه :

* عصينا الملك فيها أن ندينا *

وقد يكون تسميتها غرا لعلوهم على الملك وامتناعهم منه ؛ فأيامهم غر لهم ، وطوال على أعدائهم ؛ وعليه فلا دليل فى البيت على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر عطف على (بأنا) فى البيت قبله ، ويجوز أن تجعل الواو بدلا من رب .

وعن آبن عباس أيضـا ومقاتل : بوقائـع الله فى الأمم السـابقة ؛ يقال فلان عالم بأيام العرب، أى بوقائعها . قال آبن زيد : يعنى الأيام التى انتقم فيها من الأمم الخالية؛ وكذلك روى آبن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطـبرى : وَعَظهـم بما سـلف فى الأيام المـاضية لهم ؛ أى بمـا كان فى أيام الله من النعمة والمحنـة ؛ وقد كانوا عبيـدا مستذلّين ؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . وروى سـعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : سمعت رسول الله صـلى الله عليـه وسلم يقول : "بينا موسى عليـه السلام فى قومه يُذكّرهم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونعماؤه" وذكر حديث الخضر ؛ ودل هذا على جواز الوعظ المرقّق للقلوب، المقـوّى لليقين، الخـالى من كلّ بدعة ، والمنزّه عن كل ضـلالة وشبهة . ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أى فى التـذكير بأيام الله ﴿لَآيَاتٍ﴾ أى دلالات . ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه . ﴿شَكُورٍ﴾ لنعـم الله . وقال قَتَـادة : هو العبد ؛ إذا أُعطِى شـكر، وإذا آبتلِى صـبر . وروى عن النبى صلى الله عليـه وسـلم أنه قال : "الإيمـان نصفان نصف صبر ونصف شكر — ثم تلا هـذه الآية — «إن فِى ذلك لآياتٍ لِكل صبارٍ شكورٍ» " . ونحوه عن الشَّعْبىّ موقوفا . وتَوارى الحسن البصرىّ عن الحَجّاج سـبعَ سنين، فلمـا بلغه موتُه قال : اللهم قد أمتّـه فأمِتْ سُنّته، وسجد شكرا، وقرأ « إن فِى ذلك لآياتٍ لِكل صـبارٍ شكورٍ » . وإنمـا خص بالآيات كل صبار شكور لأنه يعتبر بهـا ولا يغفل عنها؛ كما قال : « إِنَّمَـا أَنْتَ مُنْـذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا » وإن كان منذرا للجميع .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَـةَ ٱللَّهِ عَلَيْـكُمْ إِذْ أَنجَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِـكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّـكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ تقدم فى «البقرة»(١) مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله؛ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . و «تأذّن» وأذّن بمعنى أعلم؛ مثل أوْعد وتوعّد؛ روى معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذان، لأنه إعلام؛ قال الشاعر :

فلم نَشْعُرْ بضوءِ الصّبحِ حتّى * سمِعنا فى مجالِسنا الأذِينا

وكان ابن مسعود يقرأ « وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ » والمعنى واحد . ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى . الحسن : لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم من طاعتى . ابن عباس : لئن وَحَّدْتُم وأطعتم لأزيدنّكم من الثواب، والمعنى متقارب فى هذه الأقوال؛ والآية نصٌّ فى أن الشكر سبب المزيد؛ وقد تقدم فى « البقرة »(٢) ما للعلماء فى معنى الشكر . وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال : ألّا تتقوّى بنعمه على معاصيه . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال : أى رب كيف أشكرك، وشكرى لك نعمة مجدّدة منك علىّ . قال : ياداود الآن شكرتنى .

قلت : فحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للنعم ، وألا يصرفها فى غير طاعته ؛ وأنشد الهادى وهو يأكل :

أَنالَكَ رِزقَه لتقومَ فيـه * بطاعتِه وتشكرَ بعضَ حقّهْ

فـلم تشـكر لِنعمتـه ولكنْ * قَوِيتَ على معاصِيه برزقه

فغُصّ باللقمة، وخنقته العَبْرة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للزيد . ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أى جحدتم حقّ . وقيل : نِعَمِى؛ وَعَد بالعذاب على الكفر، كما وَعَد بالزيادة على الشكر، وحذفت الفاء التى فى جواب الشرط من «إن» للشهرة .

---

(١) راجع ج ١ ص ٣٣١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٧١ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغنى . «الحميد» أى المحمود .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ النبأ الخبر، والجمع الأنباء؛ قال [(١)] :

* أَلَمْ يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى *

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول الله ؛ أى وآذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . وقيل : هو آبتداء خطاب من الله تعالى . وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله فى كتابه . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أى لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يعرف نسبهم إلا الله ؛ والنّسابون وإن نَسَبُو إلى آدم فلا يدّعون إحصاء جميع الأمم ، وإنما ينسبون البعض، ويمسكون عن نسب البعض؛ وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم لما سمع النّسابين ينسبون إلى معدّ بن عدنان ثم زادوا فقال : "كذب النّسابون إن الله يقول « لا يعلمهم إلا الله » " . وقد روى عن عُرْوة بن الزبير أنه قال : ماوجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان وإسمعيل . وقال آبن عباس : بين عدنان وإسمعيل ثلاثون

---

(١) القائل هو : قيس بن زهير ، وتمام البيت : * بما لاقت لبون بنى زياد * . وبعده :

ومحبسها على القرشى تشرى * بأدراع وأسياف حداد

وبنو زياد : الربيع بن زياد وإخوته ، أخذ لقيس درعا فاستاق قيس إبل الربيع لمكة وباعها لعبد الله بن جدعان — وهو مراده بالقرشى — بدروع وسيوف .

أبا لا يُعرَفون . وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ « لا يعلمهم إلا الله » : كذب النسابون .
﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالحجج والدلالات . ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى جعل أولئك القوم أيدى أنفسهم فى أفواههم ليعضُّوها عضًّا مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم؛ قاله ابن مسعود، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ « عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » . وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم : أن اسكت، تكذيبا له ، وردًّا لقوله؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى، والضميران للكفار؛ والقول الأول أصحها إسنادا؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عبد الله فى قوله تعالى « فردوا أيديهم فى أفواههم » قال عَضُّوا عليها غيظا؛ وقال الشاعر :

لو أنّ سَلْمى أبصرتْ تَخَدُّدِى[1] * ودِقَّةً فى عظمِ ساقى ويَدِى
وبُعْدَ أهْلِى وجَفَاءَ عُوَّدِى * عَضَّتْ من الوَجْدِ بأطرافِ اليدِ

وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران »[2] مجوّدا، والحمد لله . وقال مجاهد وقَتَادة : ردّوا على الرسل قولهم وكذّبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأول للرسل، والثانى للكفّار . وقال الحسن وغيره : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردًّا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار، والثانى للرسل . وقيل معناه : أَوْمَأوا للرسل أن يسكتوا . وقال مقاتل : أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : ردّ الرسل أيدى القوم فى أفواههم . وقيل : إن الأيدى هنا النِّعم؛ أى ردّوا نِعم الرسل بأفواههم ، أى بالنطق والتكذيب؛ ومجىء الرسل بالشرائع نِعَمٌ؛ والمعنى : كذّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل . و « فى » بمعنى الباء؛ يقال : جلست فى البيت وبالبيت ، وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض . وقال أبو عبيدة : هو ضرب مَثَل؛ أى لم يُؤْمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن

---

(١) التخدد : أن يضطرب اللحم من الهزال . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

الجواب وسكت قد ردّ يده فى فيه ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال القُتَبِىّ : لم نسمع أحدا من العرب يقول : ردّ يده فى فيه إذا ترك ما أُمر به ، وإنما المعنى : عضوا على الأيدى حنقا وغيظا ؛ لقول الشاعر :

تَرُدُّون فى فِيهِ غِشّ الحَسُو * دِ حتى يَعَضّ علىّ الأكُفّا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه وكفّيه . وقال آخر :

قد أفنى أنامِلَه أزْمُهُ[(١)] * فأضحى يَعَضّ علىّ الوَظِيفا

وقالوا : — يعنى الأمم للرسل — ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أى بالإرسال على زعمكم ، لا أنهم أقروا أنهم أرسلوا . ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ ﴾ أى فى ريب ومرية . ﴿ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى موجب للرّيبة ؛ يقال : أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكًّا ؛ أى نظنّ أنكم تطلبون الملك والدنيا .

قوله تعالى : قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ ﴾ ٱستفهام معناه الإنكار ؛ أى لا شك فى الله ، أى فى توحيده ؛ قاله قتادة . وقيل : فى طاعته . ويحتمل وجها ثالثا : أفى قدرة الله شك ؟ ! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها ؛ يدل عليه قوله : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم ؛ لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له . ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ أى إلى طاعته بالرسل والكتب . ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ قال أبو عبيد : « من » زائدة . وقال سيبويه : هى للتبعيض ؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع .

---

(١) أزمة : عضا ؛ والوظيف لكل ذى أربع : ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق .

وقيل : « من » للبدل وليست بزائدة ولا مُبعِّضة ؛ أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب . ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعنى الموت ، فلا يعذبكم فى الدنيا . ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ ﴾ أى ما أنتم . ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ فى الهيئة والصورة ؛ تأكلون مما نأكل ، وتشربون مما نشرب ، ولستم ملائكة . ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام والأوثان . ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة ظاهرة ؛ وكان هذا مِحالا منهم ؛ فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى فى الصورة والهيئة كما قلتم . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى يتفضّل عليه بالنبوّة . وقيل : بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية . وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت : وهذا قول حسن ؛ وقد خرج الطبرى من حديث آبن عمر قال قلت لأبى ذرّ : ياعم أوصنى ؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : " مامن يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمنّ بها على من يشاء من عباده وما مَنّ الله تعالى على عباده بمثل أن يُلهمهم ذِكره " . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ ﴾ أى بحجة وآية ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بمشيئته ، وليس ذلك فى قدرتنا ؛ أى لانستطيع أن نأتى بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته ؛ فلفظه لفظ الخبر ، ومعناه النفى ، لأنه لا يُحظَر على أحد ما لا يقدر عليه . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ « ما » استفهام فى موضع رفع بالابتداء، و « لنا » الخبر، وما بعدها فى موضع الحال؛ التقدير : أىّ شىء لنا فى ترك التوكل على الله . ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته، وينجى من سخطه ونقمته . ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ لام قسم؛ مجازه : والله لنصبرن ﴿ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ به، أى من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ اللام لام قسم؛ أى والله لنخرجنكم . ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ أى حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا؛ قاله الطبرىّ وغيره . قال ابن العربى : وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير؛ فإنّ « أو » على بابها من التخيير؛ خيَّر الكفارُ الرسلَ بين أن يعودوا فى ملّتهم أو يخرجوهم من أرضهم؛ وهذه سيرة الله تعالى فى رسله وعباده؛ ألا ترى إلى قوله : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا » وقد تقدم هذا المعنى فى « الأعراف »(١) وغيرها . ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى إلى ديننا ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أى مقامه بين يدىّ يوم القيامة؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل . والمَقَام مصدر كالقيام؛ يقال : قام قياما ومَقَاما؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة ، وبالضم فعل الإقامة ؛ و « ذلك لمن خاف مقامى » أى قيامى عليه ، ومراقبتى له؛ قال الله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » . وقال الأخفش : « ذلك لمن خاف مقامى » أى عذابى، « وخاف وعيد » أى القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد الاسم من الوعد .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا﴾ أى وٱستنصروا؛ أى أُذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم؛ قاله ابن عباس وغيره، وقد مضى فى « البقرة »[1]. ومنه الحديث: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَسْتَفْتِح بصعاليك المهاجرين، أى يَستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش : «اللَّهُـمَّ إِنْ كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية؛ وروى عن ابن عباس . وقيل قال الرسول : "إنهم كذّبونى فافتح بينى و بينهم فَتْحًا" وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذّبنا؛ عن ابن عباس أيضا؛ نظيره «ٱئْتِنا بِعذابِ اللهِ إِن كنتَ مِن الصادِقِين » « ٱئتِنا بِما تَعِدنا إن كنت مِن المرسلين » . ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبّار المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا؛ هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس . والعنيد المعاند للحق والمجانب له، عن ٱبن عباس وغيره؛ يقال : عَنَـد عن قومه أى تباعد عنهم . وقيل : هو من العَنَد، وهو الناحية وعاند فلان أى أخذ فى ناحية مُعْرِضا؛ قال الشاعر :

إذا نزلتُ فٱجعلُونى وَسَطَا * إنّى كبيرٌ لا أُطِيـقُ الْعُنَّـدَا

وقال الهَرَوِىّ قوله تعالى : « جبار عنيد » أى جائر عن القصد؛ وهو العَنُود والعَنِيد والعانِد؛ وفى حديث ٱبن عباس وسئِل عن المستحاضـة فقال : إنه عِرْقٌ عانِدٌ . قال أبو عبيد : هو الذى عَنَد و بَغَى كالإنسان يعانِد؛ فهذا العِرق فى كثرة ما يخرج منه بمنزلته . وقال شَمِر : العاند الذى لا يرقأ . وقال عمر يذكر سيرته : أَضُمُّ العَنُود؛ قال الليث : العنود من الإبل الذى لا يخالطها إنما هو فى ناحيـة أبدا ؛ أراد من هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها . وقال مقاتل : العنِيد المتكبر . وقال ابن كَيْسان : هو الشامخ بأنفه . وقيل : العَنُود والعَنِيد الذى

---

(١) راجع ج ٢ ص ٢٦ وما بعدها طبعة ثانية .

يتكبر على الرسل و يذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العرب : شر الإبل العنود الذى يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصى . وقال قتادة : العنيد الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أى متكبر . وقيل : إن المراد به فى الاية أبو جهل؛ ذكره المهدوىّ . وحكى الماوردىّ فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله عز وجل : « وآستفتحوا وخاب كل جبارٍ عنيدٍ » فمزق المصحف وأنشأ يقول :

أتُوعِدُ كلَّ جبّارٍ عَنِيـدِ * فها أنا ذاكَ جبّارٌ عَنِيدُ
إذا ماجئتَ ربَّكَ يومَ حَشْرٍ * فَقُلْ يا ربِّ مَزَّقَنِي الوليدُ

فلم يلبث أياما حتى قُتل شرّ قِتلةٍ، وصُلِب رأسه على قصره، ثم على سُور بلده .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أى من وراء ذلك الكافر جهنم ، أى من بعد هلاكه . ووراء بمعنى بعد؛ قال النابغة :

حَلَفتُ فلم أترك لِنفسكَ رِيبةً * وليس وراءَ اللهِ للمـرء مذهبُ

أى بعد الله جلّ جلالُه ، وكذلك قوله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى من بعده، وقوله تعالى : « ويكفرون بِمـا وراءه » أى بما سواه؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد : بما بعده . وقيل : « من ورائه » أى من أمامه، ومنه قول الشاعر :

ومِنْ ورائكَ يومٌ أنتَ بالغُهُ * لا حاضرٌ مُعجِزٌ عنـه ولا بادِى

وقال آخر :

أَتَرْجُو بنو مروانَ سمعِي وطاعتِي * وقومى تمـيمٌ والفـلاةُ ورائِيـا

وقال لبيد :

أليس ورائِى إنْ [تراخَتْ] (١) منيّتِى * لُزومُ العَصَا تُحنَى عليهـا الأصابـعُ

(١) كذا فى ديوانه، وفى الأصل : « إن بلغت منيتى » .

يريد أمامى . وفى التنزيل « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ » أى أمامهم ؛ وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو علىّ قُطْرُب وغيرهما . وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك ، أى سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان أى فى طلبه وسأصل إليه . وقال النحاس : فى قوله « مِن ورائِهِ جهنم » أى من أمامه ، وليس من الأضداد ولكنه من تَوَارَى ؛ أى آستتر . وقال الأزهرى : إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد ، وقاله أبو عبيدة أيضا ، واشتقاقهما مما توارى واستتر ، فجهنم تَوَارَى ولا تظهر ، فصارت من وراء لأنها لا ترى ؛ حكاه ابن الأنبارى وهو حسن .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أى من ماء مثل الصديد ، كما يقال للرجل الشجاع أسد ، أى مثل الأسد ؛ وهو تمثيل وتشبيه . وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب القُرَظىّ والربيع بن أَنَس : هو غُسَالة أهل النار ، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزوانى . وقيل : هو من ماء كرهته تَصدّ عنه ، فيكون الصديد مأخوذا من الصدّ . وذكر ابن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عُبيد الله بن بُسْر عن أبى أُمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ » قال : " يُقرَّب إلى فِيه فيكرهه فإذا أُدنى منه شَوَى وجهه ووقعت فَرْوة رأسه فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » ويقول « وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ » " خرجه الترمذى ، وقال : حديث غريب ، وعُبيد الله بن بُسْر الذى روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبى أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله ابن بُسْر . ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أى يَتحسّاه جرعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته . ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أى يبتلعه ؛ يقال : جرع الماء وآجترعه وتجرعه بمعنى . وساغ الشّرابُ فى الحلق يسوغ سَوْغا إذا كان سَلِسا سهلا ، وأساغه اللهُ إساغةً . و « يكاد » صلة ؛ أى يسيغه بعد إبطاء ، قال الله تعالى : « وما كادوا يفعلون » أى فعلوا بعد إبطاء ؛ ولهذا قال : « يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ »(١) فهذا يدل على الإساغة . وقال ابن عباس : لايجيزه ولا يمر به (٢) . ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ

(١) آية ٢٠ من سورة الحج . (٢) كذا فى الأصل ؛ ولعله « لا يجيزه ولا يمرأ به » .

منْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ومن قدّامه وخلفه، كقوله : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » . وقال إبراهيم التيمى : يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره؛ للآلام التى فى كل مكان من جسده . وقال الضحاك : إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليه . وقال الأخفش : يعنى البلايا التى تصيب الكافر فى النار سماها موتا ، وهى من أعظم الموت . وقيل : إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وُكِّل به نوع من العذاب؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها فى فرد لحظة؛ إما حية تَنهشه، أو عقرب تَلسبه[1] ، أو نار تَسفعه، أو قيد برجليه، أو غُلّ فى عنقه، أو سلسلة يقرن بها ، أو تابوت يكون فيه ، أو زقّوم أو حميم، أو غير ذلك من العذاب . وقال محمد بن كعب : إذا دعا الكافر فى جهنم بالشراب فرآه مات موتاتٍ ، فإذا دنا منه مات موتاتٍ، فإذا شرب منه مات موتاتٍ ؛ فذلك قوله : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قال الضحاك : لا يموت فيستريح . وقال ابن جريج : تعلق رُوحه فى حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ؛ ونظيره قوله : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » . وقيل : يخلق الله فى جسده آلاما كل واحد منها كألم الموت . وقيل : « وما هو بميت » لتطاول شدائد الموت به ، وآمتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابه .

قلت : ويظهر من هذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » وبذلك وردت السّنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من آستولى عليه سكرات الموت دائما ، والله أعلم . ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ ﴾ أى من أمامه . ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أى شديد متواصل الآلام من غير فتور ؛ ومنه قوله : « وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » أى شدة وقوة . وقال فُضَيل بن عِياض فى قول الله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » قال : حبس الأنفاس .

---

(١) تلسبه : تلدغه .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النحويون فى رفع «مثل» فقال سيبويه : ارتفع بالابتداء والخبر مضمر؛ التقدير : وفيما يُتلى عليكم أو يُقصّ «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» ثم ابتدأ فقال : «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» أى كمَثَل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ . وقال الزجاج : أى مَثَل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد، وهو عند الفرّاء على إلغاء المَثَل، التقدير : والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد . وعنه أيضا أنه على حذف مضاف؛ التقدير : مَثَل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد؛ وذكر الأول عنه المهدوىّ، والثانى القُشَيرىّ والثعلبىّ. ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال : صفة فلان أسمر؛ «فمَثَل» بمعنى صفة . ويجوز فى الكلام جر «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الذين» واتصل هذا بقوله : «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» والمعنى : أعمالهم مُحْبَطة غير مقبولة . والرماد ما بقى بعد احتراق الشىء؛ فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفّار فى أنه يمحقها كما تمحق الرّيحُ الشديدة الرّمادَ فى يوم عاصف . والعصف شدة الريح ؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفى وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل : أحدها — أن العُصُوف وإن كان للرّيح فإن اليوم قد يوصف به؛ لأن الرّيح تكون فيه، فجاز أن يقال : يوم عاصف، كما يقال : يوم حارّ ويوم بارد، والبرد والحرّ فيها . والثانى — أن يريد «فى يوم عاصف» الريح؛ لأنها ذكرت فى أول الكلمة، كما قال الشاعر :

* إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِف *

يريد كاسف الشمس فحذف؛ لأنه قد مر ذكره؛ ذكرهما الهَرَوىّ . والثالث — أنه من نعت الريح ؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ ؛ ذكره

الثعلبيّ والماوردىّ . وقرأ ابن إسحق و إبراهيم بن أبى بكر «فى يومِ عاصفٍ»[1] . ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعنى الكفار . ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ يريد فى الآخرة ؛ أى من ثواب ما عملوا من البرّ فى الدنيا ، لإحباطه بالكفر . ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أى الخسران الكبير ؛ و إنما جعله كبيرا بعيدا لفوات آستدراكه بالموت .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا رؤية القلب ؛ لأن المعنى : ألم ينته علمك إليه . وقرأ حمزة والكسائى — « خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ومعنى « بالحق » ليستدل بهما على قدرته . ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ؛ أى هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء ؛ فلا تعصُوه فإنكم إن عصيتموه يذهبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة فى الإبدال . ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى منيع متعذر .

قوله تعالى : وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ج قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ صلى سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ صلى وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي صلى فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ صلى مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ صلى إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ قلى إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

---

(١) هذه القراءة بإضافة يوم إلى عاصف ، ومن قرأ بها أقام الصفة مقام الموصوف ؛ أى فى يوم ريح عاصف .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أى برزوا من قبورهم ، يعنى يوم القيامة . والبُرُوز الظّهور . والبَرَاز المكان الواسع لظهوره ؛ ومنه آمرأة بَرْزة أى تظهر للناس ؛ فمعنى « برزوا » ظهروا من قبورهم . وجاء بلفظ الماضى ومعناه الاستقبال ، وآتصل هذا بقوله : « وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أى وقاربوا لما آستفتحوا فأهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعا لايسترهم عنه ساتر . « لِلَّهِ » لأجل أمر الله إياهم بالبروز . ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَاءُ ﴾ يعنى الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدرا ؛ التقدير : ذوى تَبَع . ويجوز أن يكون جمع تابع ؛ مثل حارس وحَرَس ، وخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد ، وباقر وبَقَر . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أى دافعون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ أى شيئا ، و « مِن » صلة ؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع . ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أى لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل ؛ لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ هذا ابتداء خبره « أجزعنا » أى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، و بمعنى الاسم ؛ يقال : حَاصَ فلان عن كذا أى فر وزاغ يَحِيص حَيْصًا وحُيُوصًا وحَيَصَانًا ؛ والمعنى : ما لنا وجه نتباعد به عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول أهل النار إذا آشتدّ بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمّ فلنجزع فيجزعون و يصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لاينفعهم قالوا « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من مَحِيص» ". وقال محمد بن كعب القُرَظىّ : ذُكِر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون ، فهلمّ فلنصبر ؛ فلعلّ الصّبر ينفعنا كما صبر أهل الطّاعة على طاعة الله فنفعهم الصّبر إذ صبروا ؛ فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا ، فطال صبرهم فجزعوا ، فنادوا : «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا مِن مَحِيص » أى مَنجًى ، فقام إبليس عند ذلك فقال : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ

وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ» يقول: لست بمغنٍ عنكم شيئا «وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ» الحديث بطوله، وقد كتبناه فى كتاب «التذكرة» بكماله .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ قال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيبا فى جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعا. ومعنى «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» أى حُصِّل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار، على ما يأتى بيانه فى «مريم»(1) عليها السلام . ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ يعنى البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصى فصدَقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنّة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم . وروى ابن المبارك من حديث عُقْبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة قال : "فيقول عيسى أدلّكم على النبي الأمى" فيأتون فيأذن الله لى أن أقوم فيَثُور مجلسُ من أطيب ريح شمّها أحدٌ حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيَثُور مجلسُه من أنتن ريح شمّها أحدٌ ثم يَعظُم نَحِيبهم ويقول عند ذلك : «إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم» الآية . «وعد الحق» هو إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم : مسجد الجامع؛ قال الفراء قال البصريون : وعدكم وعد اليوم الحقّ أو وعدكم وعد الوعد الحقّ فصدَقكم؛ فحذف المصدر لدلالة الحال . ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة وبيان؛ أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزيّنته لكم فى الدنيا ﴿ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أى أغويتكم فتابعتمونى . وقيل : لم أقهركم على ما دعوتكم إليه . «إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ» هو استثناء منقطع؛ أى لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لى باختياركم «فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم» . وقيل : «وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ» أى على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن

---

(1) فى تفسير قوله تعالى : «وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر ...» آية ٣٩ من السورة المذكورة .

دعوتكم فاستجبتم لى؛ وهذا على أنه خَطَب العاصىَ المؤمنَ والكافرَ الجاحد؛ وفيه نظر لقوله : « لما قضى الأمر » فإنه يدل على أنه خَطَب الكفّارَ دون العاصين الموحِّدين؛ والله أعلم .
﴿ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إذ جئتمونى من غير حجة . ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أى بمغيثكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِىَّ ﴾ أى بمغيثىّ . والصّارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النُّصرة والمعاونة، والمُصْرِخ هو المُغيث . قال سَلَامة بن جَنْدَل :

كنّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ * كانَ الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنَابِيب[1]

وقال أُميّة بن أبى الصَّلْت :

ولا تجزعوا إنّى لكم غيرُ مُصْرِخٍ * وليس لكم عندى غَنَاءٌ ولا نَصْرُ

يقال : صَرَخ فلان أى ٱستغاث يَصرُخ صَرْخا وصُرَاخا وصَرْخةً . وٱصطرخ بمعنى صَرَخ . والتَّصرخ تَكلُّف الصُّراخ . والمُصْرِخ المُغيث، والمستصرِخ المستغيث؛ تقول منه : ٱستصرخنى فأصرخته . والصَّريخ صوت المستصرِخ . والصّريخ أيضا الصارخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد؛ قاله الجوهرى . وقراءة العامة « بِمُصرِخِىَّ » بفتح الياء . وقرأ الأعمش وحمزة « بمصرِخِىِّ » بكسر الياء . والأصل فيها بمصرخِيين فذهبت النون للإضافة، وأدغمت ياء الجماعة فى ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعين فيها الفتح مثل : هَوَاىَ وعَصاىَ، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان، مثل : غلامِىَ وغلامِىْ، ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة . وقال الفرّاء : قراءة حمزة وَهَمٌ منه، وقلَّ من سلِم منهم عن خطأ[2] . وقال الزجاج : هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف . وقال قُطْرُب : هذه لغة بنى يَرْبُوع يزيدون على ياء الإضافة ياء . القُشَيرىّ : والذى يغنى عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو ردىء، بل هو فى القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذى قرأ به حمزة أفصح . ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِى

(١) الظنابيب (جمع) ظنبوب ؛ وهو حرف الساق اليابس من قدم . وقرع الظنبوب أن يقرع الرجل ظنبوب البعير ليتنوخ له فيركبه ؛ والمراد هنا سرعة الإجابة .
(٢) أى من القراء .

مِنْ قَبْلُ ﴾ أى كفرت بإشراككم إياى مع الله تعالى فى الطاعة؛ فـ « ـما » بمعنى المصدر . وقال ابن جُرَيج (١) : إنى كفرت اليوم بما كنتم تدعونه فى الدنيا من الشّرك بالله تعالى . قتادة : إنى عصيت الله . الثورى : كفرت بطاعتكم إياى فى الدنيا . ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وفى هذه الآيات ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقتهم؛ آنظر إلى قول المتبوعين : « لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ » وقول إبليس : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ » كيف اعترفوا بالحق فى صفات الله تعالى وهم فى دَرَكات النار؛ كما قال فى موضع آخر : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا » إلى قوله : « فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ » واعترافهم فى دَرَكات لَظًى بالحقّ ليس بنافع، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبَه فى الدنيا؛ قال الله عز وجل : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » و « عسى » من الله واجبة .

قوله تعالى : وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى فى جنات لأن دخلت لا يتعدى، كما لا يتعدى نقيضه وهو خرجت، ولا يقاس عليه؛ قاله المهدوىّ . ولما أخبر تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضا . وقراءة الجماعة « أُدْخِلَ » على أنه فعل مبنى للمفعول . وقرأ الحسن « وأُدْخِلُ » على الآستقبال والآستئناف . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى بأمره . وقيل : بمشيئته وتيسيره . وقال : « بإذن ربهم » ولم يقل : بإذنى تعظيما وتفخيما . ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ تقدم فى « يونس » (٢) . والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

---

(١) فى بعض النسخ ابن بحر . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣١٣ طبعة أولى أو ثانية .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ لما ذكر تعالى مَثَل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدّت به الريح فى يوم عاصف، ذكر مَثَل أقوال المؤمنين وغيرها، ثم فسّر ذلك المَثَل فقال : ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثمرِ، فحذف لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس : الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد وابن جُرَيْج : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية العَوْفى والرّبيع بن أَنَس : هى المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعِكْرِمة : الشّجرة النَّخلة ؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة فى قلب المؤمن — وهو الإيمان — شبّهه بالنّخلة فى المَنْبِت، وشبّه ارتفاع عمله فى السماء بارتفاع فروع النّخلة، وثواب الله له بالثّمر . وروى من حديث أَنَس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن مَثَل الإيمان كمثل شجرة ثابتةٍ الإيمانُ عُروقُها والصلاةُ أصلُها والزكاةُ فروعُها والصيامُ أغصانُها والتأذى فى الله نباتُها وحسنُ الخُلُق ورقُها والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها". ويجوز أن يكون المعنى : أصل النّخلة ثابت فى الأرض ؛ أى عروقها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهى زاكية نامية . وخرّج الترمذىّ من حديث أَنَس بن مالك قال : أُتِى رسولُ الله صلى الله عليه بِقِناع[1] فيه رُطَب، فقال : "مَثَلُ كلمةٍ طيبةٍ كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها فِى السماءِ تؤتى أكلها كل حِينٍ بإذنِ ربها — قال — هى النخلة ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوقِ الأَرض ما لها مِن قرارٍ — قال — هى الحَنْظَل" . ورَوى عن أنس قولَه [وقال][2] : وهو أصح . وخرّج الدَّار قُطْنىّ عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتدرون ما هى" فوقع فى نفسى أنها النّخلة . قال السُّهَيْلىّ : ولا يصح فيها ما روى عن علىّ بن أبى طالب أنها جَوْزة الهند ؛ لِما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر "إنّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها وهى مِثْلُ المؤمن خبّرونى ما هى — ثم قال — هى النخلة" خرّجه مالك فى « الموطأ » من رواية ابن القاسم وغيره إلا يحيى فانه أسقطه من روايته . وخرّجه أهل الصحيح وزاد

(١) القناع : الطبق الذى يؤكل عليه . (٢) أى قال الترمذى : والحديث الموقوف أصح .

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رحلة(١)؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وهى النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة" فبيّن معنى الحديث والمماثلة .

قلت : وذكر الغزْنوى عنه عليه السلام "مَثَلُ المؤمن كالنّخلة إن صاحبتَه نفعكَ و إن جالستَه نفعكَ و إن شاورتَه نفعكَ كالنّخلة كل شىء منها ينتفع به". وقال: "كُلُوا من عَمَّتكم" يعنى النخلة خلقت من فَضْلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، و بقلبها تحيا، وثمرها بامتزاج الذّكر والأنثى. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبّهت به؛ وذلك أن كل شجـرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلا؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان فى الالتقاح لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح قال النبي صلى الله عليه وسلم: "خيرُ المـال سِكّة مَأْبُورة ومُهْرَة مأمورة"(٢). والإبار اللّقاح وسيأتى فى سورة « الحجر »(٣) بيانه . ولأنها من فَضْلة طينة آدم . ويقال: إن الله عز وجل لما صوّر آدم من الطّين فَضَلت قطعة طين فصوّرها بيده وغرسها فى جنّة عَدْن . قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أكرموا عَمّتكم" قالوا: ومن عمتنا يارسول الله؟ قال: "النخلة". ﴿تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قال الربيع: « كلّ حِينٍ » غُدوة وعَشِيّة كذلك يَصعَد عملُ المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس. وعنه « تؤتِى أكلها كل حِينٍ » قال: هو شجرة الهند لا تتعطل من ثمرة، تحمل فى كل شهر، شبه عمل المؤمن لله عز وجل فى كل وقت بالنخلة التى تؤتى أكلها فى أوقات مختلفة. وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل فى جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير فى الأوقات كلها . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضه، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعى بيت النّابغة:

تَنَاذَرَها الرَّاقُونَ مِن سُوءِ سَمِّها * تُطَلِّقُه حِينـًا وحِينـًا تُرَاجِـعُ(٤)

(١) كذا فى الأصل . (٢) السكّة : الطريقة المصطفة من النخل، والمهرة المـأمورة الكثيرة النسل والنتاج؛ أراد خير المـال نتاج أو زرع . (٣) فى تفسير قوله تعالى : «وأرسلنا الرياح لواقح» آية ٢٢ .

(٤) البيت فى وصف حية؛ و « تناذرها الراقون » أى أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرضوا لها . ومعنى « تطلقه حينا وحينا تراجع » أنها تخفى الأوجاع عن السليم تارة، وتارة تشتد عليه . ويروى : «من سوء سمعها» أى أنها لا تجيب الراقى لا أنها صماء؛ لقولهم : أسمع من حية .

فهذا يبيّن لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابت فى قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع فى السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النّخلة فى أوقات السّنة كلّها، من الرّطب والبُسر والبلح والزَّهْو[(١)] والتّمر والطّلع . وفى رواية عن ابن عباس : إن الشجرة الطيبة شجرة فى الجنة تثمر فى كل وقت . و «مثلا» مفعول بـ«ضرب»، «وكلمة» بدل منه، والكاف فى قوله : «كشجرة» فى موضع نصب على الحال من «كلمة» التقدير : كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ لما كانت الأشجار تؤتى أكلها كل سنة مرة كان فى ذلك بيان حكم الحين؛ ولهذا قلنا : من حلف ألّا يكلّم فلانا حينا ولا يقول كذا حينا إن الحين سنة . وقد ورد الحين فى موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى : «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ» قيل فى «التفسير» : أربعون عاما . وحكى عكرمة أن رجلا قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حُرٌّ، فأتى عمرَ بن عبد العزيز فسأله، فسألنى عنها فقلت : إن من الحين حينا لا يُدْرك، قوله : «وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» فأرى أن تُمسك ما بين صِرام[(٢)] النّخلة إلى حَمْلها، فكأنه أعجبه؛ وهو قول أبى حنيفة فى الحين أنه ستة أشهر اتباعا لعكرمة وغيره . وقد مضى ما للعلماء فى الحين فى «البقرة[(٣)]» مستوفى والحمد لله . ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى الأشباه للناس . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ و يعتبرون؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر . وقيل : الكافر نفسه . والشجرة الخبيثة شجرة الحَنْظَل كما فى حديث أَنَس ، وهو قول ابن عباس ومجاهد

(١) الزهو : البسر الملون . (٢) صرام النخلة : حين يقطع ثمرها . (٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا أنها شجرة لم تخلق على الأرض . وقيل : هى شجرة الثّوم؛ عن ابن عباس أيضا . وقيل : الكَمْأَة أو الطّحلبة . وقيل : الْكَشُوث، وهى شجرة لا ورق لها ولا عروق فى الأرض؛ قال الشاعر :

* وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ[1] *

﴿ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ اقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط[2] :

هـو الجلاءُ الذى يَجتثُّ أصلَكمُ * فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا

وقال المؤرّج : أُخذت جثّتها وهى نفسها، والجثّة شخص الإنسان قاعدا أو قائما . وجَثّه قَلَعه، واجتثه اقتلعه من فوق الأرض؛ أى ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض . ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أى من أصل فى الأرض . وقيل : من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قول طيب ولا عمل صالح . وروى معاوية ابن صالح عن علىّ بن أبى طلحة فى قوله تعالى «وضرب الله مثلا كلمة طيبة» قال : لا إله إلا الله «كشجرة طيبة» قال : المؤمن؛ «أصلها ثابت» لا إله إلا الله ثابتة فى قلب المؤمن؛ «ومثل كلمة خبيثة» قال : الشرك، «كشجرة خبيثة» قال : المشرك؛ «اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار» أى ليس للشرك أصل يعمل عليه . وقيل : يرجع المَثَل إلى الدعاء إلى الإيمان والدعاء إلى الشرك؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشىء .

قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ قال ابن عباس : هو لا إله إلا الله . وروى النّسائىّ عن البَرَاء قال قال : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

---

(١) تمامه :

* ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر *

يريد أنهم لاحسب لهم ولا نسب .

(٢) هو لقيط بن معمر الإيادى ، والبيت من قصيدة بعث بها إلى قومه يحذرهم كسرى وجيشه ؛ فلم يلتفتوا إلى قوله ، فظفر بهم كسرى وهزمهم .

فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » نزلت فى عذاب القبر، يقال : من ربك ؟ فيقول : ربّى الله وديني دين محمد ، فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفا فى بعض طرق مسلم عن البَرَاء [أنه] (١) قوله ، والصحيح فيه الرفع كما فى صحيح مسلم وكتاب النَّسائى وأبى داود وابن ماجه وغيرهم عن البَرَاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وذكر البخاريّ ، حدّثنا جعفر بن عمر ، قال حدّثنا شُعْبة عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن سعد بن عبيدة عن البَرَاء بن عازب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أقعد المؤمنُ فى قبره أتاه آتٍ ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »" . وقد بينا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » وبيّنا هناك من يُفتَن فى قبره ويُسأل ، فمن أراد الوقوف عليه تأمله هناك . وقال سهل بن عمّار : رأيت يزيد بن هرون فى المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أتانى فى قبرى مَلَكان فظّان غليظان ، فقالا : ما دينك ومن ربك ومن نبيّك ؟ فأخذتُ بلحيتى البيضاء وقلتُ : ألمثلى يقال هذا وقد علّمتُ الناسَ جوابكما ثمانين سَنَة ؟ ! فذهبا وقالا : أَكَتَبْتَ عن حَرِيز بن عثمان ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يبغض [عليّا] (٢) فأبغضه الله . وقيل : معنى « يثبت الله » يديمهم الله على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رَوَاحَة :

يُثَبِّتُ اللهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ * تَثبيتَ موسى ونَصراً كالذى نُصِرا

وقيل : يثبتهم فى الدارين جزاء لهم على القول الثابت . وقال القَفَّال وجماعة : « فى الحياة الدنيا » أى فى القبر ، لأن الموتى فى الدنيا إلى أن يبعثوا « وفى الآخرة » أى عند الحساب ؛ وحكاه الماوردىّ عن البَرَاء قال : المراد بالحياة الدنيا المُسَاءلة فى القبر ، وبالآخرة المُسَاءلة فى القيامة : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى عن حجتهم فى قبورهم كما ضلّوا فى الدنيا

---

(١) أى قول البراء . (٢) فى الأصل « عثمان » ومثله فى كتاب « التذكرة » للمؤلف . والذى فى « تهذيب التهذيب » أنه كان يبغض عليا .

بكفرهم فلا يُلقِّنهم كلمة الحق ، فإذا سُئلوا فى قبورهم قالوا : لا ندرى ؛ فيقول : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ[1] ، وعند ذلك يُضرَب بالمقامع[2] على ما ثبت فى الأخبار ، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » . وقيل : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالا فى الدنيا . ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من عذاب قوم و إضلال قوم . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم لما وصف مُسَاءلة مُنْكَر ونَكِير وما يكون من جواب الميت قال عمر : يا رسول الله أيكون معى عقلى ؟ قال : " نعم " قال : كُفيتُ إذاً ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً ﴾ أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر فى تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ؛ عن ابن عباس وعلىّ وغيرهما . وقيل : نزلت فى المشركين الذين قاتلوا النبى صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر . قال أبو الطُّفَيل : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : هم قريش الذين نُحِروا يوم بَدْر . وقيل : نزلت فى الأفجرين من قريش بنى مخزوم وبنى أمية ، فأما بنو أمية فمتِّعوا إلى حين ؛ وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بَدْر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما . وقول رابع : أنهم متنصرة العرب جَبَلة بن الأَيْهَم وأصحابه حين لَطَم فجعل له عمر القصاص بمثلها ، فلم يَرْضَ وأَنِفَ فٱرتد مُتنصِّرا ولَحِق بالروم فى جماعة من قومه ؛ عن ابن عباس وقَتَادة . ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال :

---

(١) قيل فى معنى « ولا تليت » : ولا تلوت ؛ أى لا قرأت ؛ من تلا يتلو ، وقالوا تليت بالياء ليعاقب بها الياء فى دريت . (٢) المقامع : سياط من حديد رءوسها معوجة .

تنصّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تكنّفنى منها لَجَاجٌ ونخوةٌ * وبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فياليتنى أرعى المخاضَ ببلدةٍ * ولم أنكر القولَ الذى قاله عُمَرْ

وقال الحسن : إنها عامة فى جميع المشركين . ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ﴾ أى أنزلوهم . قال ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بَدْر أحلّوا قومهم ؛ أى الذين آتبعوهم . ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قيل : جهنم ؛ قاله ابن زيد . وقيل : يوم بدر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب ومجاهد . والبوار الهلاك ؛ ومنه قول الشاعر :

فلم أرَ مثلهم أبطالَ حَرْبٍ * غداةَ الحرب إذْ خِيفَ البَوَارُ

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ بيّن أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد ، وعلى هذا لا يجوز الوقف على «دار البوار» ؛ لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن « دار البوار» فلو رفعها رافع بإضمار ، على معنى: هى جهنم ، أو بما عاد من الضمير فى «يصلونها» لحسن الوقف على «دار البوار» . ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى المستقر . قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أصناما عبدوها ؛ وقد تقدم فى « البقرة »[(١)] . ﴿ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى عن دينه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، وكذلك فى الحج « لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ومثله فى « لقمان » و « الزمر » وضمّها الباقون على معنى ليضلوا الناس عن سبيله ، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضلّون عن سبيل الله على اللزوم ، أى عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ؛ فهذه لام العاقبة . ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ وعيد لهم ، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع . ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى مردّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم .

قوله تعالى : قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٠ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى إن أهـل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يعنى الصلوات الخمس، أى قل لهم أقيموا، والأمر معه شرط مقدّر، تقول : أطع الله يُدخلْك الجنة؛ أى إن أطعته يدخلْك الجنة؛ هذا قول الفراء . وقال الزجاج : « يقيموا » مجزوم بمعنى اللام ، أى ليقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على الغائب بـ « قل » . قال ويحتمل أن يقال : « يقيموا » جواب أمر محذوف؛ أى قل لهم أقيموا الصـلاة يقيموا الصلاة . ﴿ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَـةً ﴾ يعنى الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجمهور : السرّ ما خفى والعلانية ما ظهر . وقال القاسم ابن يحيي : إن السرّ التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »[(١)] مجوّدا عند قوله : « إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ » . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ تقدم فى « البقرة »[(٢)] أيضا . و « خلال » جمع خُلّة كقُلّة وقِلال . قال[(٣)] :

* فلستُ بمَقْلِيّ الخِـلَالِ ولا قَالِى *

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ (٣٣) وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى أبدعها واخترعها على غير مثال سبق . ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السّحاب . ﴿ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أى من الشجر

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) قاله امرؤ القيس، وصدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

ثمرات ﴿ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ تقدم معناه فى «البقرة»[1] . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ يعنى البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أى فى إصلاح ما يصلحان من النبات وغيره ، والدُّؤوب مرور الشىء فى العمل على عادة جارية . وقيل : دائبين فى السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفترّان ؛ روى معناه عن ابن عباس . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا من فضله فى النهار ، كما قال : « ومن رحمتِهِ جعل لكم الليل والنهار لِتسكنوا فِيهِ ولِتبتغوا مِن فضلِهِ » .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أى أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا ؛ فحذف ؛ عن الأخفش . وقيل : المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه ، فحذف ، فلم نسأله شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التى ٱبتدأنا بها . وهذا كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » على ما يأتى . وقيل : « مِن » زائدة ؛ أى آتاكم كلّ ما سألتموه . وقرأ ٱبن عباس والضحاك وغيرهما « وَآتَاكُمْ مِنْ كُلٍّ » بالتنوين « مَا سَأَلْتُمُوهُ » وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقَتَادة ؛ هى على النفى أى من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شىء ما سألتموه أى الذى سألتموه . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ أى نعم الله لا تحصوها ولا تطيقوا عدّها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسّمع والبصر وتقويم الصّور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ وهذه النّعم من الله ، فلِمَ تبدلون نعمة الله بالكفر ؟ ! وهلا ٱستعنتم بها على الطاعة ؟ ! ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفّار .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِنًا ﴾ يعنى مكة وقد مضى فى « البقرة »[1] . ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ أى ٱجعلنى جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله : « بنىّ » بنيه من صُلْبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما . وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له . وقرأ الجَحْدرىّ وعيسى « وَأَجْنِبْنِي » بقطع الألف والمعنى واحد ؛ يقال : جَنَبْتُ ذلك الأمر، وأجنبته وجَنَّبْته إياه فتجانبه وٱجتنبه أى تركه . وكان إبراهيم التَّيْمىّ يقول فى قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول : « وٱجنبنى و بنى أن نعبد الأصنام » كما عبدها أبى وقومى .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ لما كانت سببا للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازا؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعل . ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ فى التوحيد . ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى من أهل دينى . ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أى أصرّ على الشّرك . ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قيل : قال هذا قبل أن يعرّفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَانِي » فيما دون الشّرك .

قوله تعالى : رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — روى البخارىّ عن ابن عباس : أول ما ٱتخذ النّساء المِنْطَق[2] من قِبل أمّ إسمعيل ؛ ٱتخذت مِنْطَقا لتُعفِّى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسمعيل وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس

---

(١) راجع ج ٢ ص ١١٧ وما بعدها طبعه ثانية . (٢) المنطق : النطاق وهو أن تلبس المرأة ثو بها ثم تشد وسطها بشىء، وترفع وسط ثو بها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها .

بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقا فتبعته أمّ إسمعيل، فقالت : يا إبرهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء، قالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت إذًا لا يُضيِّعنا، ثم رجعت، فآنطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِيّة حيث لا يرونه، آستقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال : «رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» حتى بلغ «يشكرون» وجعلت أمّ إسمعيل تُرضع إسمعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدما فى السّقاء عطشت وعطش آبنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى — أو قال يَتَلَبَّطُ(١) — فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصّفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم آستقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصّفا، حتى إذا بلغت الوادى، رفعت طَرَف دِرْعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادى، ثم أتت المَرْوة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فذلك سعى الناس بينهما" فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ! تريد نفسها، ثم تسمّعت فسمعت أيضا فقالت : قد أسمعتَ إن كان عندك غَوَاث(٢)! فإذا هى بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه — أو قال بجناحه — حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضه وتقول بيدها هكذا(٣)، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يرحم الله أمّ إسمعيل لو تركت زمزم — أو قال لو لم تغرف من الماء — لكانت زمزم عينا معينا" قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها المَلَك : لا تخافى الضَّيْعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيِّع أهله؛ وذكر الحديث بطوله .

(١) يتلبط : يتمرغ .

(٢) غواث (بالفتح) كالغياث (بالكسر) من الإغاثة وهى الإعانة؛ وقد روى بالضم والكسر .

(٣) «وتقول بيدها هكذا» : هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل . (قسطلانى) .

مسئلة — لا يجوز لأحد أن يتعلق بهـذا فى طرح ولده وعياله بأرضٍ مَضيعة آتكالا على العزيز الرحيم، وآقتداء بفعل إبراهيم الخليل، كما تقوله غُلَاة الصّوفية فى حقيقة التّوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله فى الحديث: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. وقـد روى أن سارة لمـا غارت من هاجر بعـد أن ولدت إسمعيل خرج بهـا إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فروى أنه ركب الْبُراق هو وهاجر والطّفل بخـاء فى يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك آبنه وأَمَته هنالك وركب منصرفا من يومه، فكان ذلك كله بوحى من الله تعالى، فلما ولى دعا بضمن هذه الآية.

الثانيـــة — لمـا أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطّ الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل المَلَك فبَحَث عن المـاء، وأقامه مقام الغذاء، وفى الصحيح أن أبا ذرّ رضى الله عنه آجترأ به ثلاثين من يوم وليـلة، قال أبو ذر: ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمِنت حتى تَكَسَّرت عُكَنى، وما أجد على كبـدى سَخْفَة جوع[1]؛ وذكر الحـديث. وروى الدَّارَقُطْنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم: "ماء زمزم لمـا شُرِب له إن شربتَه تشتفى به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربتَه لقطع ظمئك قطعه وهى هَزْمة[2] جبريل وسُقْيا اللهِ إسمعيل". وروى أيضا عن عِكرمة قال كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال: اللهم إنى أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء. قال ابن العربى: وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحّت نيّته، وسلمت طويّته، ولم يكن به مكذِّبا، ولا يشربه مجرِّبا، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرِّبين. وقال أبو عبد الله محمد بن علىّ الترمذى وحدثنى أبى رحمه الله قال: دخلت الطّواف فى ليلة ظلماء فأخذنى من البول ما شغلنى، فجعلت أعتصر حتى آذانى، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج؛ فذكرت هذا الحديث، فدخلت زمزم فتضلّعتُ[3] منه، فذهب عنى إلى الصباح. وروى عن عبد الله بن عمرو: وإن فى زمزم عينا فى الجنة من قِبل الركن.

(١) سخفة الجوع: رقته وهزاله. (٢) هزمة جبريل: أى ضربها برجله فنبع المـاء.
(٣) تضلع: أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه وأضلاعه.

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ « مِنْ » فى قوله تعالى : « من ذريتى » للتبعيض أى أسكنت بعض ذريتى ؛ يعنى إسمعيل وأمه ، لأن إسحق كان بالشام . وقيل : هى صلة ؛ أى أسكنت ذريتى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ يدل على أن البيت كان قديما على ما روى قبل الطُّوفان ، وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »(١) . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرّم ، أى يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع واستحلال . وقيل : محرّم على الجبابرة ، وأن تُنهتك حرمته ، ويستخفّ بحقّه ؛ قاله قَتَادة وغيره . وقد مضى القول فى هذا فى « المائدة »(٢) .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ خَصّها من جملة الدِّين لفضلها فيه ، ومكانها منه ، وهى عهد الله عند العباد ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " خمسُ صلوات كتبهنّ الله على العباد " الحديث . واللام فى « ليقيموا الصلاة » لام كى ؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ « أسكنت » ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رَغِب إلى الله أن يوفقهم لإقامة الصلاة .

السادسة — تَضمَّنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى « ربنا لِيقيموا الصلاة » أى أَسكنتُهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه . وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزّبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة " قال الإمام الحافظ أبو عمر : وأسند هذا الحديث حبيب المعلم عن عطاء بن أبى رَبَاح عن عبد الله

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٢٠ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥ طبعة أولى أو ثانية .

ابن الزّبير وجوّده، ولم يخلط فى لفظه ولا فى معناه، وكان ثقة. قال ابن أبى خَيْثمة سمعت يحيى بن مَعين يقول : حبيب المعلم ثقة. وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبى يقول : حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه. وسئل أبو زُرْعة الرازىّ عن حبيب المعلم فقال : بصرىّ ثقة.

قلت — وقد خرّج حديثَ حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبى رَباح عن عبد الله بن الزبير عن النبىّ صلى الله عليه وسلم الحافظُ أبو حاتم محمد بن حاتم التميمى البُسْتِىّ فى المسند الصحيح له، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف. والحمد لله. قال أبو عمر : وقد روى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير، رواه موسى الجُهَنىّ عن نافع عن ابن عمر، وموسى الجُهَنىّ ثقة، أثنى عليه القَطّان وأحمد ويحيى وجماعتهم، وروى عنه شعبة والثّورىّ ويحيى بن سعيد. وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم عن عطاء بن أبى رباح، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه" وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرَّقة قد روى عنه أبو زُرْعة الرازىّ، وأخذ عنه ابن وضّاح، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به. فإن كان حَفِظ فهُما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المعلم. وروى محمد بن وضّاح، حدثنا يوسف بن عدىّ عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل" قال أبو عمر : وهذا كله نصّ فى موضع الخلاف قاطع له عند من ألْهِمَ رشدَه، ولم تَمِل به عصبيّته. وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وعن أَصْبَغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة فى المسجد الحرام على الصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم على ما فى هذا الباب. وقد ٱتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لها فى كل بلد إلا مكة فإنها تُصلّى فى المسجد الحرام. وكان عمر وعلىّ وٱبن مسعود وأبو الدَّرْداء وجابر يفضّلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم؛ وإلى هذا ذهب الشافعى، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين، وروى مثله عن مالك؛ ذكر ابن وهب فى جامعه عن مالك أن

آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض قال : يارَبّ هذه أحب إليك أن تُعبَد فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة، وآختلف أهل البصرة والبغداديون فى ذلك فطائفة تقول مكة، وطائفة تقول المدينة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهى القلوب . وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فؤاداً قادنى بصَبَابةٍ * إليكِ على طولِ المَدَى لَصَبُورُ

وقيل : جمع وفْد، والأصل أوفدة، فقدّمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هى، فكأنه قال : واجعل وفودا من الناس تَهْوِى إليهم؛ أى تنزع؛ يقال : هَوِىَ نحوه إذا مال، وهوت الناقة تهوى هُوِيّاً فهى هاوية إذا عَدَت عَدْوا شديدا كأنها فى هَوَاء بئر، وقوله : « تهوى إليهم » مأخوذ منه . قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال : « من الناس » فهم المسلمون؛ فقوله : « تهوى إليهم » أى تحنّ إليهم، وتحنّ إلى زيارة البيت . وقرأ مجاهد « تهوَى إليهم » أى تهواهم وتجلّهم . ﴿ وَٱرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، و بما يجلب إليهم من الأمصار . وفى صحيح البخارىّ عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : " فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكَته فلم يجد إسمعيل، فسأل آمرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرٍّ، نحن فى ضيق وشدة؛ فشكت إليه، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغيّر عَتَبة بابه، فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئا[1] فقال : هل جاءكم من أحد! قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنى عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشتنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة، قال : فهل أوصاكِ بشىء : قالت : أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول : غيّر عَتَبة بابك؛ قال : ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك آلحَقِى بأهلك؛ فطلّقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، ودخل على آمرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال :

(١) أى كأنه أبصر ورأى شيئا لم يعهده .

كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله . قال : ما طعامكم؟ قالت : اللحم . قال فما شرابكم؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء. قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه" قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه؛ وذكر الحديث . وقال ابن عباس : قول إبراهيم «فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكْنى بمكة، فيصير بيتا محرّما، وكل ذلك كان والحمد لله . وأول من سكنه جُرْهُم . ففى البخارىّ — بعد قوله : وإن الله لا يُضيِّع أهلَه — وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، وكذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُم قافلين من طريق كدا، فنزلوا بأسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا[1] فقالوا : إن هـذا الطائر لَيدُور على ماء ! لَعهدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء؛ فأرسلوا جَرِيًّا[2] أو جَرِيَّين فإذا هُم بالماء، فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأمّ إسمعيل عند الماء؛ فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حقّ لكم فى الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : "[فألفى][3] ذلك أمّ إسمعيل وهى تحب الأنس" فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، شبّ الغلامُ، وماتت أم إسمعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوّج إسمعيل يطالع تَرِكَته؛ الحديث .

قوله تعالى : رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

(١) العائف هنا هو الذي يتردد على الماء ولا يمضى . (٢) الجرى : الرسول .

(٣) ألفى أى وجد ذلك الحى الجرهمى أم إسمعيل ؛ أو ألفى استئذان جرهم بالنزول أم إسمعيل والحال أنها تحب الأنس؛ ففاعل ألفى (ذلك) و(ذلك) إشارة إلى الاستئذان .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا . وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسمعيل وأمه حيث أسكنا بواد غير ذى زرع . ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن » قال الله : « وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » . ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أى على كبر سنى وسن آمرأتى ؛ قال ابن عباس : ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحق وهو ابن مائة وآثنتى عشرة سنة . وقال سعيد بن جُبير : بُشِّر إبراهيمُ بإسحق بعد عشر ومائة سنة . ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ . قوله تعالى : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه . ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أى وآجعل من ذريتى من يقيمها . ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أى عبادتى كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقال عليه السلام : "الدعاءُ مُخُّ العبادة" وقد تقدم فى «البقرة»[1] . ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل : استغفر إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله قال القُشَيرى : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره فى آستغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جُبير « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي » يعنى أباه . وقيل : آستغفر لهما طمعا فى إيمانهما . وقيل : آستغفر لهما بشرط أن يُسلما . وقيل : أراد آدم وحوّاء . وقد رُوى أن العبد إذا قال : اللهم آغفر لى ولوالدى وكان أبواه قد ماتا كافرين آنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسمعيل وإسحق . وكان إبراهيم النَّخَعى يقرأ «وَلِوَلَدَيَّ» يعنى آبنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر ؛ ذكره الماوَرْدى والنحاس . ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «للمؤمنين» كلهم وهو أظهر . ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى يوم يقوم الناس للحساب .

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٠٩ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ؛ أي آصبر كما صبر إبراهيم ، وأَعْلِم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنّة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مِهْران : هـذا وعيد للظالم ، وتعزية للظلوم . ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يعني مشركي مكة يمهلهم و يؤخر عذابهم . وقراءة العامة « يؤخرهم » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ » . وقرأ الحسن والسُّلَمِيّ ورُوِي عن أبي عمرو أيضا « نؤخِّرهم » بالنون للتعظيم . ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أي لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم ، قاله الفراء . يقال : شَخَص الرجلُ بَصَرَه وشَخَص البصرُ نفسُه أي سَمَا وطَمَح من هـول ما يَرى . قال ابن عباس : تَشْخَص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يَرْمَضُون .

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين ؛ قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ؛ مأخوذ من أهطع يُهطع إهطاعا إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مهطِعين إلى الداع » أي مسرعين . قال الشاعر :

بدِجْلة دارُهُمْ ولقد أراهُمْ * بدِجْلةَ مُهطِعِينَ إلى السَّماع

وقيل : المهطع الذي ينظر في ذلّ وخشوع ؛ أي ناظرين من غير أن يَطْرِفوا ؛ قاله ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك : « مهطعين » أي مديمي النظر . وقال النحاس : والمعروف في اللغة أن يقال : أهطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعني الإسراع مع أدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذي لا يرفع رأسه . ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ أي رافعي رءوسهم ينظرون في ذلّ . و إقناع الرأس رفعه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . قال ابن عرفة والقُتَبِيّ وغيرهما : المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه ؛ ومنه الإقناع في الصلاة (١)

(١) الإقناع في الصلاة أن يرفع المصلى رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .

وأقنع صوته إذا رفعه. وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد .
وقيل : ناكسي رءوسهم؛ قال المهدوي : ويقال أقنع إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلّة وخضوعا، والآية محتملة الوجهين، وقاله المبرّد، والقول الأول أعرف في اللغة؛ قال الراجز:

أَنْغَضَ[1] نَحْوِي رَأْسَهُ وأَقْنَعَا * كأنَّما أَبْصَرَ شيئًا أَطْمَعَا

وقال الشّمّاخ يصف إبلا :

يُباكِرْنَ العِضاهَ[2] بمُقْنَعاتٍ * نَوَاجِذُهنّ كالحَدَإِ الوَقِيعِ

يعني : برءوس مرفوعات إليها لتتناولهن . ومنه قيل : مِقْنَعة لارتفاعها . ومنه قَنِع الرجل إذا رَضِي؛ أي رفع رأسه عن السؤال . وقَنَع إذا سأل أي أتى ما يتقنّع منه؛ عن النحاس . وفم مُقْنَع أي معطوفة أسنانه إلى داخل . ورجل مُقنَّع بالتشديد؛ أي عليه بَيْضة؛ قاله الجوهري . ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر . يقال : طَرَفَ الرجلُ يَطْرِف طَرْفا إذا أطبق جَفْنه على الآخر، فسمّى النظر طَرْفا لأنه به يكون . والطَّرْف العين . قال عَنْتَرة :

وأَغُضُّ طَرْفِي ما بَدَتْ لِي جارتِي * حتّى يُوارِي جارتِي مَأْوَاهَا

وقال جَمِيل :

وأَقْصِرُ طَرْفِي دُونَ جُمْلٍ كَرَامَةً * لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذي أَنَا قاصِرُهُ

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي لا تغني شيئا من شدّة الخوف . ابن عباس : خالية من كل خير . السُّدّي : خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم؛ وقال مجاهد ومُرّة وابن زيد: خاوية خربة مُتخرِّقة ليس فيها خير ولا عقل؛ كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء : إنما هو هواء؛ وقاله ابن عباس . والهواء في اللغة المجوّف الخالي؛ ومنه قول حسان :

أَلَا أَبْلِغْ أبا سُفْيانَ عَنِّي * فأنتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ[3] هَوَاءُ

---

(١) أنغض رأسه : حركه . (٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك . والحدأ (بفتح الحاء) وقيل (بكسرها) جمع حدأة، وهي الفأس ذات الرأسين؛ والوقيع : المحدّد . شبه الشاعر أسنان الإبل بالفؤس في الحدة .

(٣) المجوف والمجوّف : الجبان الذي لا قلب له . والنخب : من النخب بمعنى النزع . يقال : رجل نخب أي جبان؛ كأنه منتزع الفؤاد .

*

وقال زُهَير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كأنّ الرَّحْلَ منها فوقَ صَعْلٍ[١] * من الظِّلمانِ جُؤْجُؤُه هَـواءُ

فارغ أي خال؛ وفى التنزيل : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا » أى من كل شىء إلا من همّ موسى . وقيل : فى الكلام إضمار، أى ذات هواء وخلاء .

قوله تعالى : وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤)

قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ قال ابن عباس : أراد أهل مكة . ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة ؛ أى خوّفهم ذلك اليوم . وإنما خصّهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثّواب لأن الكلام خرج مخرج التّهديد للعاصى . ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى فى ذلك اليوم ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ أى أمهلنا . ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة . ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أى إلى الإسلام ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ . فيجابوا :﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنى فى دار الدنيا . ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ قال مجاهد : هو قَسَم قريش أنهم لا يبعثون . ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وأقسموا بِاللهِ جهد أيمانِهِم لا يبعث الله من يموت» . «مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما — ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد . الثانى — « ما لكم مِن زوالٍ » أى من العذاب . وذكر البَيْهَقىّ عن محمد بن كعب القُرَظىّ قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا ، يقولون : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » فيجيبهم الله « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِىَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِىِّ الْكَبِيرِ » .

(١) ”فوق صعل“ : شبه الناقة فى سرعتها بالظليم ، فكأن رحلها فوقه . والصعل : الصغير الرأس ، وبذلك يوصف الظليم .

ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم الله تعالى « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم الله تعالى « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم الله تعالى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » . ويقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم الله تعالى : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فلا يتكلمون بعدها أبدا ؛ خرجه ابن المبارك فى « دقائقه » بأطول من هـذا — وقد كتبناه فى كتاب « التذكرة » — وزاد فى الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » قال هـذه الثالثة ، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء ، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم فى وجه بعض ، وأطبقت عليهم ؛ قال : فحدثنى الأزهر ابن أبى الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله : « هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

قوله تعالى : وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى فى بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم ، بعد ما تبيّن لكم مافعلنا بهم ، و بعد أن ضربنا لكم الأمثال فى القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمى « وَنُبَيِّنُ لَكُمْ » بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضى ، وليناسب قوله : « كيف فعلنا بهم » . وقراءة الجماعة « وَتَبَيَّنَ » وهى مثلها فى المعنى ؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أى بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ « إن » بمعنى « ما » أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووَهْنه ؛ « وإن » بمعنى « ما » فى القرآن فى مواضع خمسة : أحدها هذا . الثانى — « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » . الثالث — « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا » أى ما كنا . الرابع — « قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ » . الخامس — « وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ » . وقرأ الجماعة « وإن كان » بالنون . وقرأ عمرو بن علىّ وابن مسعود وأبىّ « وإن كاد » بالدال . والعامة على كسر اللام فى « لتزول » على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصبا . وقرأ ابن مُحَيصن وابن جُرَيج والكسائىّ « لَتَزُولُ » بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « وإن » مخفّفة من الثّقيلة ، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم ، أى ولقد عَظُم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطّبَرىّ : الاختيار القراءة الأولى ؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة ؛ قال أبو بكر الأنبارىّ : ولا حجة على مصحف المسلمين فى الحديث الذى حدّثناه أحمدُ بن الحسين : حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا وكيع بن الجراح عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن دانيل قال سمعت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : إن جبّارا من الجبابرة قال لا أنتهى حتى أعلم من فى السموات ، فعَمَد إلى فراخ نُسُور ، فأمر أن تطعم اللحم ، حتى اشتدت وعَضَلتْ واستعلجتْ أمر بأن يُتخذ تابوتٌ يسع فيه رجلين ، وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لحم شديد حمرته ، وأن يُستوثق من أرجل النّسور بالأوتاد ، وتُشدّ إلى قوائم التابوت ، ثم جلس هو وصاحب له فى التابوت وأثارَ النّسورَ ، فلما رأت اللحم طلبته ، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله ؛ فقال الجبّار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب ، فقال : أغلق الباب ؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد ، فقال الجبّار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعْدا ، فقال : نكِّس العصا فنكّسها ، فانقضّت النّسور . فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدّة كادت الجبال تزول عن

مراتبها منها ؛ قال : فسمعت عليّا رضى الله عنه يقرأ « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ » بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية (١) . وقد ذكر الثعلبيّ هذا الخبر بمعناه ، وأن الجبّار هو النمّرود الذى حاجّ إبراهيم فى ربّه ، وقال عِكْرِمة : كان معه فى التابوت غلام أمرد ، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليـه ملطخا بالدماء وقال : كُفيتُ نَفْسَك إلهَ السّماء (٢) . قال عِكْرِمة : تَلَطّخ بدم سمكة من السماء ، قذفت نفسها إليـه من بحر فى الهواء معلّق . وقيـل : طائر من الطير أصابه السّهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنكّس اللحم ، فهبطت النّسور بالتابوت ، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنّسور ففزعت ، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء ، وأنّ الساعة قد قامت ، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » . قال القُشَيْرِىّ : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة فى الجبال . وذكر المـاوردىّ عن ابن عباس : أن النّمرود بن كنعان بَنَى الصّرح فى قرية الرسّ من سواد الكوفة ، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعا ، وعرضـه ثلاثة آلاف ذراع وخمسـة وعشرين ذراعا ، وصعد منـه مع النّسور ، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصنا ، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد ، فتداعى الصّرح عليهم فهلكوا جميعا ، فهـذا معنى « وَقَـدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ » وفى الجبـال التى عَنَى زوالهـا بمكرهم وجهان : أحدهما — جبال الأرض . الثانى — الإسلام والقرآن ؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال . وقال القُشَيْرِىّ : « وَعِنْـدَ اللهِ مَكْرُهُمْ » أى هو عالم بذلك فيجازيهم ، أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بكسر اللام ؛ أى ما كان مكرهم مكرا يكون له أثر وخطر عنـد الله تعالى ، فالجبال مَثَل لأمر النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وإن كان مكرهم » فى تقديرهم « لِتزول مِنه الجبال » وتؤثر فى إبطال الإسـلام . وقرئ « لَتَزُولُ منه الجِبالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية ؛ أى كان مكرا عظيما تزول منه الجبال ، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

(١) تعقب هذه القصة ابن عطية فى تفسيره بعد أن حكاها عن الطبرى بقوله : « وذلك عندى لا يصح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وفى هذه القصة ضعف من طريق المعنى ، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف ، وبعيد أن يغرر أحد بنفسه فى مثل هذا » .

(٢) عبارة الثعلبى فى « قصص الأنبياء » : (كفيتُ شغلَ إلهِ السماء) .

عليه وسلم، وهو كقوله تعالى : « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا » والجبال لا تزول ولكن العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعالى : فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ اسم الله تعالى و « مخلف » مفعولا تحسب ؛ و « رُسُلَهُ » مفعول « وَعْدِهِ » وهو على الاتساع، والمعنى : مخلف وعده رسلَه ؛ قال الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ * وسائرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ[1]

قال القُتَبيّ : هو من المقدّم الذى يوضحه التأخير، والمؤخّر الذى يوضحه التقديم، وسواء فى قولك : مخلف وعده رسلَه ، ومخلف رسلِه وعدَه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ أى من أعدائه . ومن أسمائه المنتقم وقد بيّناه فى « الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أى اذكر يوم تبـدّل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل : هو صفة لقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف فى كيفية تبديل

(١) يصف الشاعر هاجرة قـد ألجأت الثيران إلى كنسها ، فترى الثور مدخلا لرأسه فى ظل كناسه لما يجـده من الحرارة، وسائره بارز للشمس .

الأرض، فقال كثير من الناس : إن تبدّل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها؛ ورواه ابن مسعود رضى الله عنه؛ خرجه ابن ماجه فى سننه وذكره ابن المبارك من حديث شَهْر بن حَوْشَب ، قال حدّثنى ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مدَّ الأديم وزيد فى سعتها كذا وكذا ؛ وذكر الحديث . وروى مرفوعا من حديث أبى هُريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العُكَاظى[(١)] لا تَرى فيها عِوجًا ولا أَمْتًا ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم فى الثانية فى مثل مواضعهم من الأولى [من كان فى بطنها ففى بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها]" ذكره الغَزْنَوى[(٢)] . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها ؛ قاله ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالها، فمرة كالمُهْل ومرة كالدّهان؛ حكاه ابن الأنبارى؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبيّنا فى كتاب « التذكرة » وذكرنا ما للعلماء فى ذلك ، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم . روى مسلم عن ثَوْبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك ؛ وذكر الحديث ، وفيه : فقال اليهودى أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فى الظُّلمة دون الجِسْر[(٣)]" وذكر الحديث . وخرج عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات » فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : "على الصراط" خرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء ، وخرجه الترمذى عن عائشة وأنها هى السائلة، قال : هذا حديث حسن صحيح؛ فهذه الأحاديث تنصّ على أن السموات والأرض تُبدَّل وتُزَال، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسْر . وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أديم عكاظى : منسوب إلى عكاظ ، وهو مما حمل إليها فبيع بها . وعكاظ : اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرب مكة .

(٢) عبارة الأصل هنا ناقصة ومحرفة ، والزيادة والتصويب من تفسير الطبرى وكتاب « التذكرة » للؤلف .

(٣) الجسر : الصراط .

وسلم : "يُحشَر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عَفْرَاءَ كقُرْصَة النَّقِيِّ[(١)] ليس فيها عَلَمٌ لأحد".
وقال جابر : سألت أبا جعفر محمـد بن علىّ عن قول الله عز وجل : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » قال : تبـدّل خُبْزةً يأكل منها الخلق يوم القيامة ، ثم قرأ « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَـدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » . وقال ابن مسعود : إنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضـة لم يُعمَل عليها خطيئة . وقال ابن عباس : بأرض من فضة بيضاء . وقال علىّ رضى الله عنه : تبدل الأرض يومئذ من فضة والسماء من ذهب وهذا تبديل العين، وحسبك. ﴿ وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ أى من قبورهم، وقد تقدّم .

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ﴾ وهم المشركون . ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم القيامة. ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ أى مشدودين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ وهى الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد . و يقال: صَفَدته صَفْدا أى قيـدته والاسم الصَّفَد ، فإذا أردت التكثير قلت : صَفَّدته تصفيدا ؛ قال عمرو ابن كُلْثوم :

فآبُـوا بالنِّهَـاب وبالسَّـبَايَا * وأُبْنَـا بالمُـلُوكِ مُصَـفَّدِينَا

أى مقيّدينا . وقال حسان :

مِنْ كُلِّ مَأْسُـورٍ يُشَـدُّ صِفَادُهُ * صَـقْرٍ إذَا لَاقَى الْكَرِيهَـةَ حَامِ

أى غُلّه . وأصـفدته إصفادا أعطيته . وقيل: صَفَدته وأَصْفَدته جاريان فى القيد والإعطاء جميعا ؛ قال النابغة :

* فلم أُعَرِّض أَبَيْتَ اللَّعْنَ[(٢)] بالصَّفَد *

فالصَّفَد العطاء لأنه يُقيِّد ويُعْبِد ؛ قال أبو الطيب :

وقيَّـدتُ نفسِى فى ذَرَاكَ[(٣)] مَحبَّـةً * ومَن وَجَدَ الإحسانَ قَيْدًا تَقيَّدَا

---

(١) النقى : الدقيق الحوارى . والحوارىّ : ما حوّر أى بيض . والعلم الأثر .
(٢) معنى أبيت اللعن : أى أبيت أن تأتى شيئا تلعن عليه ، وصدر البيت :
* هـذا الثناء فإن تسـمع لقائله *
(٣) الذرا (بالفتح) : الدار ونواحيها ، وكل ما استترت به ؛ تقول : أنا فى ذرا فلان أى فى كنفه وستره .

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان فى غُلّ ، بيانه قوله : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » يعنى قرناءهم من الشياطين . وقيل : إنهم الكفار يجمعون فى الأصفاد كما اجتمعوا فى الدنيا على المعاصى . ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ أى قمصهم ، عن ابن دُرَيد وغيره ، واحدها سِربال ، والفعل تَسربلتُ وسَربلتُ غيرى ؛ قال كعب بن مالك :

تَلْقَاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ * مِنْ نَسْجِ دَاودَ فى الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

« مِن قَطِرانٍ » يعنى قطران الإبل الذى تُهْنأبه ؛ قاله الحسن . وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم . وفى الصحيح أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِربال من قطران ودِرْع من جَرَب . وروى عن حماد أنهم قالوا هو النُّحاس . وقرأ عيسى بن عمر : « قَطْرَانٍ » بفتح القاف وتسكين الطاء . وفيه قراءة ثالثة : كسر القاف وجزم الطاء ؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَرَقَ الْمَنْتُوحَا(١) * لَبَّسَهُ الْقِطْرَانَ وَالْمُسُوحَا

وقراءة رابعة : « مِنْ قِطْرٍ آنٍ »(٢) رويت عن ابن عباس وأبى هُريرة وعِكرمة وسعيد بن جُبير ويعقوب ؛ والقِطْر النحاس والصُّفْر المذاب ؛ ومنه قوله تعالى : « آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » . والآن : الذى قد ٱنتهى إلى حَرِّه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . ﴿ وَتَغْشَى ﴾ أى تضرب ﴿ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ فتغشّيها . ﴿ لِيَجْزِىَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ أى بما كسبت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى هذا الذى أنزلنا إليك بلاغ ؛ أى تبليغ وعظة . ﴿ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ أى ليخوّفوا عقاب الله عز وجل . وقرئ . « وَلِيَنْذَرُوا » بفتح الياء والذال ، يقال : نَذِرت بالشىء أَنْذَر إذا علمت به فاستعددتَ له ، ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا من عسى وليس ، وكأنهم ٱستغنوا بأن والفعل كقولك : سَرَّنى أن نَذِرتُ بالشىء . ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين . ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو

---

(١) نتح العرق خرج من الجلد . (٢) « قطر » : ضبطه فى « روح المعانى » بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء ، ومثله فى « البحر المحيط » ، وضبط بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء ، ففيه ثلاث لغات .

الْأَلْبَـاب ﴾ أى وليتّعظ أصحاب العقول . وهــذه اللامات فى و « لينذروا » و « ليعلموا » و « ليذكر » متعلقة بمحذوف ؛ التقدير : ولذلك أنزلنــاه . وروى يمــان بن رئاب أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصــديق رضى الله عنــه . وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان ؟ فقال : نعم ؛ قيــل : وأين هــو ؟ قال قوله تعالى : « هــذا بلاغ لِلناسِ ولِينذروا بِهِ » إلى آخرها . تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام والحمد لله .

❖

تم الجزء التاسع من تفسير القرطبي

يتــلوه إن شــاء الله تعــالى الجــزء العــاشر، وأوّله :

ســـورة « الحجـــر »

كَمُلَ طبع الجزء التاسع من كتاب " الجامع لأحكام القرآن للقرطبى "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٨ ذو القعدة سنة ١٣٥٨
(١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩ م)

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٧٢/١٩٣٨/٥٠٠٠)

